هشام عيد

حارة سر الدين

الفلواتي

رواية

الهالة للنشر والتوزيع

اللّيل

كلما حاول أن يقبض على قطعة واعية من عقله أدركه الفشل. وكلما تبادر إلى ذهنه ذلك السؤال الثابت صلبًا بين دوائر الدخان، قبض على عقله الخمول فتاه في بحر الهلاوس.

لم تُوحِ ملامحُ أي منهم بالإجابة.. أهم أبناؤه أم أبناء فرج الفوال؟

ملامحهم إليه تقف على نفس المساحة من ملامحه. أمامه اتخذت موقفًا لبيع الجرائد. ثلاثة وعشرون عامًا وهي تلازمه كما يلازم هو المقهى، كان واحتها الفريدة وأنيس جلستها اليومية والمنفق عليهم جميعًا في الضيق واليسر. وله أيضًا، كان «فرج» منبع الكيف الذي لا ينضب.

لم يبق من أثر الأفيون إلا مرارته، واشتعالٌ خفيف أعلى الرأس، وعشق لا نهائي للنوم..

أين البطولات المدهشة؟

وأطلّ من بين الركام ذلك الوجه الملطخ بالرمل والدماء، قال وهو يزفر النفس الأخير: «وصيتك البنات، خذ ما تريده».

وذهبت كهرمانة وفي جوفها السرا

أوشك أن يسألها لكنه خاف أن يكدر الصفو ونعيم الدخان.

***

- بطتين في يوم واحد.. منين؟

- يا خويا كُل.. هو أكل ولا بحلقه؟ فرج عامل معانا واجب.

***

يصحو فيجد فرج الفوال مخمورًا بالمنزل.. أرسل العيال في «سرحة».. قبض كل واحد ما يتناسب مع فهمه وقدرته على إفساد المتعة.

يبدأ الصراع الخافت بين الأفيون والخمر الرديء.. أيهما يعرف الآخر؟

وسأله المخدور بلسان عيي: «فرج.. انت بتعمل ايه هنا؟»

أجاب المخمور وقد برز شعر صدره الغليظ وبدا اللباس والفانلة فاشلَين في احتواء جسده الضخم المكور:

«باعمل ايه؟! مش عيب تسأل السؤال دا يا حموده؟ دانا ف بيت أخويا.. هو إنت مش كلت البطة؟»

ضحكتها اللاهية تقرع الصمت كأصوات رنين النحاس فتملأ الموقف غموضًا وعهرًا وألفةً.

يمضي الليل وكلاهما لا يدري أكان حلفا أم حقيقةً.

الأفيونجي

في البدء كانت الكلمة.. ثم صار الصمم.

لم يعد في الأرض متسع لقدمك، ضاق بك المقهى وجافاك المكان، هذا هو الوقت المناسب للتبلد للنهاية...

لم يعد قادرًا حتى على تذكر طلبات الزبائن. المسافة بين طاولاتهم وبين النصبة أصبحت كتسلق الجبال. ينسحب السمع من استكمال المشوار، عزلة من القطن يثقبها الطنين. تصعب قراءة شفاههم، تصبح على البعد أشد عسرة. لو كانت مقهى «الكاشف» ذات حدود، لربما كان الأمر أهون، لكن الطاولات الآن تفترش الشارع، حيث يُضاف لهذا الفراغ توهة الصوت في المدى..

الأدهى من كل ذلك، أنهم اكتشفوا علته. وضع شفاههم عند أذنه والصياح صار مهزلة، يضحكون فيتوه بين أصواتهم. أهم راضون أم ساخطون؟ رزع قواشيط الطاولة، ارتطام كروت الدومينو بالرخام وصيحات لاعبي الكوتشينة ورصانة لاعبي الشطرنج.. كل ذلك صار صامتًا كالسحاب، صار تلقيهم مستحيلًا.. في النهاية، لا يليق بقهوجي أن يكون أصمًا. ويبقى سؤال واحد صادم بحجم الإفاقة؛ هل يسمع الناس الأصم؟ أم تطيش كلماته ككلماتهم في الهواء؟

انتابته رغبة أن يصرخ؛ لينظر هل يسمع هو نفسه صراخه أم ليس سوى هذي الذبذبات. أيظن الناس أن الأصم يعيش في جزيرة هادئة؟!

أحدهم بلغ به الهزل أن قام من بين أصحابه ليرجع بنفسه بالمشاريب، كل رفاقه يضحكون. والمعلم الكاشف صاحب المقهى يراقب في غضب. تحرك المساعد الأعرج، أشرف، مدعيًا المساعدة. «في حضور المعلم كلهم مخلصون» أما هو، فكأنما يشاهدهم من خارج دائرة في مكان بعيد..

لم يدر ما يفعل! أيقوم هو الآن بدور المساعد؟ تحركات طائشة لبعث الإحساس بالوجود.. صار كالفراغ، أيحطم الأكواب ويلقي المشاريب؟ شعر بفراغ العالم واتساعه. وامتد الصمتُ المثقوب بالوشْ والطنين إلى ما لا نهاية، دارت به الدنيا، رست على وجهه نظرة فارغة وابتسامة بلهاء.

هبّت عاصفة محملة بالتراب والأوراق فلاحت فرصة مناسبة لادعاء الإدارة، طلب من أشرف النوبي أن يُنزّل الخيام وينظف الصواني ويغطي الأكواب.

لماذا يبدو إبراهيم الكاشف طويلًا جدًا، مائلًا أعلاه كلما ألفت به مشكلة؟ لماذا لا تبلعهم الأرض جميعًا؟ لماذا لا يضعهم كلهم في قدر الفول ويضع فوقهم فرج ونجية ويوقد القدر بأوراق الخطاطين؟

لم يكن «عم بيتهوفن» -كما أصبح يحلو للبعض أن ينادي حمودة الافيونجي- ليقبل الأمر رغم ذلك بسهولة؛ سماكة جلده وبلادته حالتا دون تقبل الهزيمة.. قرر استخدم طلقته الفضية..

وقف بينهم كأثر قديم كَسَت أحجاره الأتربة.. نكَّش رأسه باقتدار والتجأ للذريعة الأبدية التي يلجأ إليها عند كل خذلان.. تعمد أن يسمعه المعلم الكاشف: «أنا حاربت ف سبعه وستين وتلاته وسبعين، أصحابي ماتوا حواليا، لبست «الأفرول» ودافعت عن رمل سينا قبل أبوك انت وهو ما يقابل أمك».

ثم يصبح أداؤه دراميًا منتهيًا بشهيق متقطع بين كلماته الأخيرة: «احنا لبسنا الجزم ست شهور لما رجلنا دودت في الصحرا وشراباتنا باشت، إحنا شربنا البول، دلوقت بتتريقوا عليا. إحنا لحسنا الزلط عشان اللي زيكم يعرف يقعد ع القهاوي».

تحيط به جماعة الخطاطين، يضمه أكبرهم ويربت على كتفيه في حنان كنموذج للنضال الوطني وعبث الأقدار. تنتهي هذه الوصلة دائمًا بأن يجمعوا مالًا يدسونه في يديه وهو يدعي التعفف.

تواتيه الفرصة حينئذ في مغالطة الحساب، رقَّ قلب كل من سمعه وحدد طاولاته بسرعة. لاعبو الشطرنج، إما مدققون يحسبونها بالملّي أو أسخياء يُضحون بالرُّخ والوزير ويجزلون بلا حدود..

- حسابنا إيه يا عم حمودة؟

- خلاص بقى يا باشا خلّيها علينا.

- قدها وقدود يا راجل يا طيب.. قل لي كام.

- أربعة سخن واتنين سحلب وتمن حجارة قص، يبقى كله ستة وعشرين.

لكن إبراهيم الكاشف صاحب المقهى سئم مغالطة الزبائن وسئم كل شيء فيه، ولم تعد تؤثر فيه خطبة النضال الحربي هذه، كما إن قصة حمودة الأفيونجي مع الحرب تشعره بالقرف والغثيان.. لا تنطلي عليه هذه اللعبة السخيفة، يعلم ما كان يفعله في الميدان.. حكى له ذات مرة، وقد ذاب فصّ الأفيون وانتشى، إن كل ما فعله في الحرب كان سرقة مقتنيات

زملائه القتلى، ساعات وأموال وخواتم وذخيرة، طعام.. وأحيانًا أسنان ذهبية.

تسكت الكاشف غصةٌ قديمةٌ، لم يكن سالمًا من العطب. شارك في الخداع دون أن يدري.. لن ينسى تجمع الناس حول راديو المقهى وانتشاءهم بالأخبار الزائفة عن سحق العدو...

ويُدق ناقوس الخطر، يعرف إبراهيم الكاشف، يصبر كثيرًا ويحتمل بلا حدود لكنه يكره أن تظنه ميتًا.. عندما يوشك اللبن أن يفور يعرف اللحظة المناسبة لفصله عن النار.. يدير المقهى ويعرف كل ما حوله، لكنك لا تكاد تسمع له صوتًا، يتنازل حتى تظنه غافلًا لكنه إذا انتفض وقبل التحدي، لا شيء يقف أمام عناده.

ظل على اعتياد ذهابه كل صباح، يشرف على كنس المقهى وترتيب الكراسي ومسح الطاولات ورص المعسل وترتيب النصبة. حاول أن يملأ الصباح أمامهم بحركة دؤوب، لكنه يشعر بالخلل، لا يستطيع أن يملأ الفراغ.. ليست هذه مهارة القهوجي...

maktabbah.blogspot.com

جمع أكبر قدر من الطلبات والتنقل كالحمامة بين الطاولات والعودة إلى النصبة ثم إلى الزبائن متذكرًا طلب كل واحد، شاملًا ببصره وسمعه البعيد والقريب تلك هي المهارة، فهم الزبون ومشروبه ولونه: هذا ملتصق بكرسيه يطارد فكرةً خلف دخان الشيشة، وذاك جاء ليصرخ ويُبدي مهارةً لم تعبأ بها الحياة فيُخرج غلبه في عشرة كوتشينة، والذي جاء ليصمت في ركن قصي هاربًا من ضجيج العالم.. وعاقدو الندوات والصفقات، تذكر حساب كل هؤلاء فرادى وجماعات.. تلك هي المقاهي.

كان الأفيون يمنحه هذه القدرة، كما كان كرباج السرير، لكن جدائل السوط تهتكت فلم يعد يمنحه غير الخيال والارتخاء. جلس المغني وجهز الربابة لكنه لم يجد في ذهنه الأغنية، وصار السبيل مبولةً.. لا يسمع مما يدور حوله إلا اللمم. كل ما تطال يداه من مكيفات لن يصله بماضيه، توشك أوهى ريح أن تطيح به.. ويصله من ذاكرة بعيدة صوت المغني الذي كان يمر بالمقهى..

«يا مسأسأ الصبر فوق الجرح من بره، الجرح يا عم نازز دم من جوه»(1).

لم يكن يدري، أيَبِسٌ أم يعبس في وجه هذا الوافد الجديد، جاء بزعم المساعدة، يعلم خبث منشئه وخسة منبته، والخائنون ينسجمون بسرعة الضوء مع أي خادم، ملأ المجال نشاطًا وحيويةً، تدعمه صداقة حميمة بأشرف، النذل والأعرج.. يا للمقاهي!! بمساعدته، سيطر على المكان كله في وردية واحدة.. وصار محل الوراق القديم مرتعًا لأفلام السكس.. وخدمة الأقدار للمعلم تعفيه من أي حرج: «الواد مش غريب دا حته منك».

سأله الخطاطون عن اسمه وسنه، دار ولف بين خطوطهم، اعتبروه منهم، البقشيش له، أما ما يصله هو ففضلة الصدقات والعطف على النادل القديم..

المدهش أن هذا الوافد الجديد المشتعل حماسا ونهما إلى السيطرة هو «سوكة»، ابنه.

يتخذ المقهى موقفا أثريًا بين مجموعة مبان قديمة تابعة للأوقاف، مبان تبرع بها أصحابها منذ مئات السنين لتصير وقفًا لوجه الله تعالى وصدقةً على الفقراء، ثم صارت ملكيتها لوزارة الأوقاف لقاء راتب شهري للورثة. بقي الوقف وضاع الورثة بمرور الزمن.. آخر الوارثين كان يقبض ثمانية جنيهات شهريًا عن كل هذه المباني. يمر السائحون الذاهبون لزيارة القلعة بهذه الأسبلة فيعجبون.. تكوّم التاريخ في ملابس رثة، وجلس يستجدي العدم حول القذارة ورائحة الصنان.

حاول كثيرون فك الوقف من براثن الوزارة لكنهم فشلوا. كثُر بعد ذلك الورثة ولم يعد أحد يسأل عن جنيهات ثمان تُوزّع على عشرات الوارثين. مع تغير السياسات والرؤساء، حارت القوانين في تطبيق قانون على الأوقاف فقررت الحكومات نسيانه، الانتقال من عهد الملكية إلى الجمهورية نقل الأوقاف من المعرفة إلى النسيان.. لم تعد أكثر من مبان قديمة مستأجرة. رغم رثاثة حال الوقف وقلة الرعاية يحج السائحون إليه ويلتقطون الصور.

على يمين المقهى، سبيلٌ أثري كبير الأحجار تطل ناصيته على «حارة بِغبِس»، تعشقه جماعة الخطاطين؛ يقولون إن الأحجار الكبيرة تمنحهم الإحساس بالراحة فيبدعون. كان السبيل واحة ماء وسقاءً للظامئين العابرين ومالئي القراب. وعلى يسار المقهى كبير واسع، كان قديمًا يُسقى التكية، يدخلها عابرو السبيل والمعدمون فيجدون الطعام والمأوى.

التكية الآن مغلقة، لا تحوي بداخلها سوى الثعابين والفئران وذكرى الجائعين، تمامًا كنفسه. بجوار التكية، تحوّل محل أثري آخر لبيع أشرطة الفيديو، كان هذا المحل في الماضي خان وزاق يبيع المخطوطات، أما المقهى فكان كذلك منذ عهد الربابة، سمعت أحجارها كل فتوحات الهلالي والزناتي.

تبدّل الزمان.. السبيل الذي كان واحة سقاء صار مرحاضًا يبول على حائطه العابرون. الدور العلوي الذي يغطي مساحته السبيل والمقهى لم يعد على شبابيكه سوى التراب والعفن.. كروحه وقلبه.

الباب الضيق، المؤدي إلى ذلك الوقف العملاق، لم تعد هيئته المخزية تليق بضخامته وماضي خدماته كندرة الكلمات المتسللة إلى سمعه من هذا الصمم.. ضيقُه لحكمة، فليس أدعى للهرج من الجوع، فتحة الباب ضيقة ليسهل دخول الجائعين وترتيبهم وتوزيع الطعام

والموائد.. لكن ما الحكمة ألا تسمح هذه الأذن بمرور الكلمات؟ خان الوراق الذي انكفأ صاحبه القديم طوال عمره يخط وينسخ ويمحو، صار مركزًا لأفلام «السكس» وصور التلاقي.. غَبْرَ الزمان كل فكرة ومضت، أحنى الجدار وإن بدا واقفًا.. تهدم، كنفسه السائبة.

أما المفاجأة المخالفة لكل توقع، فكانت ليلة حين أتاه سوكة بأجر الوردية كاملًا، التقطه كالنسر «ذلك حقي.. التقطته من جيبي حين ظننتني سقطت قتيلًا».

---

(1) أحمد فؤاد نجم.

النكسة

في الليل أيضًا يلاحقه الفشل، لم يعد قادرًا على الفرادة واحدة تتصف بالتمام، بل إن البَرّاد يفور ولمّا يستوي الماء بعد، النار تومض لكنها بلا وقود، الجاز شحّ.. من له بكبّاس يظل متدافعًا لتحمية الوابور! لا تصطنع هي أي شكل لمداراة الخيبة والملل، حتى صمتها يعايره، ليلها ازدراء وصباحها كدر، لسانها أنفذ وأسرع من طلقات الرصاص. لا تغنيك براعة المشاريب القديمة، شُربت وانتهت.. أضحت الأكواب فارغة.

في المحاولة الأخيرة، ظل جاثمًا فوق صدرها كحجرٍ ثقيل.. ظل كلاهما صامتًا.. غرئهما في هذه اللحظة كان مقيتًا. جسداهما بلا طعم ولا معنى، سادت رائحة العرق وساد صمت محزٍ مقزز وأعرض الوجهان.. البوادر كانت كثيرة، لكن هذه المرة قاصمة. كل المحفزات فاشلة. ألقته جانبًا في فتور يشوبه صدقُ التوقع، نظفت نفسها باشمئزاز ثم أعطته ظهرها للأبد، أعطاها ظهره بغير اكتراث.. لم يكن أساسًا يكترث للأبد.

البقاء في المنزل يشعره بالتطفل، كأنه جاثم فوق صدورهم أيضًا «اجلس صامتًا أو ابتعد.. لم يعد في الحياة متسع لك» ... «أنا الذي صنعت هذا البيت يا حشرات، دفعت ثمن البقاء قديمًا، لقد ضعت في الصحراء من أجل هذا الوطن».

لم يحفلوا بوجوده يومًا، يتحدث كثيرًا حتى لو لم يسمعه أحد، أيام تمر وليس سوى الفراغ والملل. أوحشه صخب المقهى، يذهب إليه الآن كغريب منبوذ، يظل جالسًا بالساعات، يحاول لفت الانتباه، يدعي المساعدة لكنهم يتجاهلونه.. ليس مطلوبًا منه غير أن يجلس كشيخٍ فانٍ يتلقى من الشفقات أجر ما صنع، أو يبتعد غارقًا في بحر النسيان.. حفنة من الجنيهات تصله في أول كل شهر، تُصرَف للمحاربين القدماء.. لولاها لما ظنوا وجوده.

والبيت لا يغنيك عن صخب المقاهي، كل ما حولك غاضب ومشمئز. هل يشعر الفؤال نحوهم بالحنان؟ أتعيره وتقلب سحنتها في وجهه أيضًا أم ما زال سوطه يطرقع؟

وقديمًا غنى المغني على الربابة: «أذاهب للحرب يا عنترة؟ أم قاعد في البيت مثل المره؟»

فأجابه الفارس المغوار ملوحًا بسيفه البتار: «العار، ولا قعدة الراجل في الدار».

يذهب ويروح كأنه ليس بكائن.. أبناء الظلام والمجهول.. قبيلة من الخونة تقودهم نجية الوِبش، المتأصلة في العهر منذ نشأته الأولى.. لعلها تلك التي قصدها مغنواتي المقهى «نجيب» بالطائرة الفانتوم.

تزوجها بعد النكسة بخمسة أعوام في إجازة خاطفة، لم يكن هناك وقت للاختيار

والتدقيق. انتقاها من مكتب أم عامر لتوريد الخادمات، غطاء مناسب لتوريد البغايا. خادم في الثلاثين، لا أصل لها ولا نسب.. كالبغل، لا هي بالذكر ولا بالأنثى، جافة كنخلة جدباء، طويلة كسيمافور المحطة، تكبره بسبعة أشهر وتفوقه طولًا ونحولًا.. نفَرَ اللسان المتشقق كلسان أفعى منذ الجملة الأولى، لم يخف شفه «آخرة صيامي بصله».

ترك العدو على الحدود ليلازم عدوًا أشرس إلى الأبد...

أدرك في ليلة الدخلة أن فتوحات أبي زيد الهلالي سلامة والزناتي خليفة لم تكن محض أغاني ربابة.. لقد دمّر الفاتحون بوابات المدن.. ليته ادّخر قنبلةً يدويةً يدسها في قدر الفول الواسع.

أشعلته رغم قصر المدة وحفلّته بذكرى كافية لإيقاد الشوق كلما خبا.. متقدة كالوابور، قادرة رغم عطب الجمال على منح متعة بلا حدود. نار محرقة.. في لهفة ودعته.. عاد للميدان بعد سبعة أيام.. الشمس والصحراء والوقت الممل. ثم لا يدري، أهو الذي حفّلها بهذا الذي عاد بعد سبعة أشهر فرآه مكورًا بطنها.. لا بد أن الحرب حفّلته «بلبن العفريت».

وفي غيابه اكتشفت نجية وحدتها، لا تعبأ الضباع بقلة الرفاق، لكن الوحدة التي عانتها مختلفة، وحدة الجوع والحاجة. في بيت أم عامر كانت تجد الطعام لقاء الخدمة في البيوت ومسح السلالم وإشباع الهائجين والمراهقين، أما هذا الخائب فلا يعنيه إلا دفق مائه. لم يسألها يومًا كيف استوفت حاجات الحياة في غيبته. أمهلته قليلًا بعين أفعى، لكنه لم يعبأ. أكل وشرب وقفز ونام. أعجبه الطعام ولم يسأل عن مصدره.. ليس سوى بصلة. لن تعود لبيت أم عامر.. ليس هناك أكدى من شماتة القِحاب.

تحايلت على صعاب الحياة في غيابه ببيع الجرائد أمام فرج الفوال. سمح لها باستعمال عتبة دكانه في النهار، وضاجعها في الليل. مقايضة لم تستهلك سوى سؤالٍ ورده:

- ينفع نقعد ع العتبة عندك نسترزق؟

- وماله؟ خطي عتبتي واخطي عتبتك.

يعود الغائب فتنداح الصدمة على قلب بارد، ماله يستقبله كصديق أعياه الشوق؟! ما هذا السخاء وهذا التآلف بينهما؟ ساحر يمتلك الصنف المميز.. دعك من سخف الأسئلة.. يتقاسمان قطع الأفيون، فتافيت حشيش تتوجها جمرات النار على الشيشة ثم يتبادلان المبسم، يناوله إياه بعد أن يشعله، يخنق نفسه بكتم النفس ثم يمنحه الدور، يكّخان ويبصقان في إناء واحد... «شد، شد يا حمودة.. حط الفص دا تحت لسانك.. بتحب البط يا حمودة؟ اعملي لنا بطه يا نجية الليلة دي.. خللي الراجل يرم عضمه».

إذا لم تسأل عن البطة الأولى فلا يحق لك أن تسأل عما يحدث في الحظيرة...

إجازة قصيرة وعاد للميدان.. الشمس والصحراء والوقت الممل.. بذهنه آلاف الأسئلة لكن البحث مضن والصحراء لا تمنح أجوبةً بل لظى مستعر.. لم يكدروه بالسؤال عن ساعاته وخواتمه فلماذا يقطع الطريق على مزاج الليالي ومتعة الخيال الأزرق؟ «روح انت بس خللي بالك م الحدود وعيالك ف رقبتي.. شد يا حمودة».

وأوصاه البطل الذي تصدى للدبابة قبل أن يموت بالسلام على بناته بينما كان يخلع ساعته: «ورينا بس معاك كام».

بصق في وجهه بعد أن نطق الشهادة. تحولت نظرة التوسل في عينيه إلى احتقار ظل ثابتًا على ملامحه إلى أن أسكته الموت، وبقيت تلك النظرة حية إلى الأبد.. كطعم البصقة.

أكمل تفتيش جيوبه وهو يدندن في حزن: «الله يا دايم هو الدايم ولا دايم غير الله».

تعثرت الظروف في الإجازة الثالثة.. أعوزه المال وأوحشه الحشيش ونوبان الفص واشتعال البدن. رأته بعينيها، هو الذي يحتضن فرج كصديق حميم.. سمعته بأذنيها يدعوه للسهرة، أهداه ساعة ماركة جوفيال وخاتمين فضيين ثم سألها في همس خفي: «هو مش هيجيبلنا بطه؟»

سخي فرج.. أعطاه ما يريد من مال، ابتاع ما جلب من خواتم وساعات، وذاب الفص واشتعلت أحجار المعسل ممهورة بأطيب أنواع الحشيش وملأت يديه رائحة الظفر وراح الثلاثة في نوم عميق..

اعتاد أن يعود من الميدان فيجد الركوبة والمزاج والظفر..

وتمتد في الظلام يد دفعت الثمن مقدمًا.. تعتصر نهديها بكل جسارة وجنون..

- يا راجل عيب! الراجل نايم.

- لا بأس، غطِي وجهه ببدلته العسكرية.

***

في حارة سر الدين الفلواتي، ذلك الذي غاص في الطين وقلبه شاخص إلى السماء، انتشرت قصة علي العراقي. سأل الأفيونجي نفسه في لحظة بين الصحو والغفلة وحوله أربعة من الأبناء، لماذا لم يفعل بفرج كما فعل العراقي بعلي النجار؟!

أدرك على الفور الإجابة.. أوشك أن يستفيق من طعمها الرملي الملطخ بالدماء والبصقة،

عاد العراقي من حربه الخائبة، التي يقتل فيها الأخ أخاه، بالنخوة.. أما هو فلم يعد من حربه المقدسة إلا بالخواتم والساعات والأسنان الذهبية.. سقط جزء كبير من نفسه هناك بين دماء الرفاق.. ولم يشأ أن يسترده.

وضع الفص تحت لسانه وأغمض عينيه...

«دعك من سخف الأسئلة».

الخَال

عوف الليبي، الدفء والغرابة ونظرة العين الغائبة.. ذكرى هائمة لرجل غليظ الكفين، ضخم الرأس غامق البشرة، خشن الصوت.. على وجهه تجاويف صنعتها الصحاري ولفح الشمس، جالس على مقعد كبير لا يجلس على غيره. خفي عن مجال الرؤية بإحدى زوايا الغرفة في حر شديد، خالعًا كل ملابسه إلا ما يستر عورته.. يتربص بلحظة غافلة وسكون. ضخم كالجبال، يذهب برأسه يمنةً ويسرةً بلا توقف.

يدعوهما، يتأملهما قليلًا ثم يسحبهما واحدًا تلو الآخر إلى دائرة الوجد، يضمهما إلى صدره في حنان غريب ملغز، أنفاسه خانقة ذات فحيح، شوك ذقنه مؤلم، عبث كفيه غامض، لا مفر ولا خيار.. يوقفهما أمامه كالمنومين، يسحب أكف الطفلين تباعًا ويدسهما تحت خصيتيه.. تغيب عيناه في لحن بزي لا يسمعه سواه.. الدفء والغموض والسخونة، طاعة حائرة، عيناهما حائرتان، لا يبتدران حركةً بغير إذن منه، ينتشي، يدفعهما نحوه، يزوم كالمحموم.. يشتد الحضن وتعتصرهما الضمة ويذهب بهما بعيدًا إلى حافة الاختناق ثم يرسلهما مرهقًا.

صمت وفراغ.. سكون كالعدم.. ثلاثتهم ملقون كأجساد تخلّت عن أرواحها أو حقت عليها اللعنة.. ملاكان وشيطان أهبطوا إلى الأرض.. يتمنيان أن يطرق أحدهم الباب أو يظهر شخص ولو عفوًا ليمنحهما التفسير.. لكنه يفيق، ينظر إليهما بعينين حانيتين متعبتين، متعته بعد ذلك أن يراهما عاريين، يبادل بنفسه وضع أيديهما، كلٌ على جسد الآخر بهدوء.. سقف الحجرة أسود والباب مغلَق بإحكام والكل بعيد.. ليس في الوجود سوى الخال وهروب العالم وتجاهل السماء.. لا يدركان أحق ذلك أم ضلال! أيغضبان ويهربان أم يتيهان في غيه السادر؟ كل ما يعرفانه أن شيئًا مقززًا غامضًا يحدث.. يتبادلان النظر.. ربما مرات محدودة في نزع الصبا.. ذلك أن عيونهما بعد ذلك، طوال عمرهما، أدمنت الهروب.. وفي قصور الثقة عبثت الفواحش.

لم يدريا، أيحكيان للأم أم يستديمان رضاها بترضية الشقيق.

خدر لذيذ ممتع من لمس الأيادي، محير وحائر رغم ذلك، حتى حين أدركهما المقت، بعد زمن طويل، لم يعد ممكنًا نسيان هذه الأنامل وهذا الدفء وذكرى زومة الصوت الشجية.. كأنها لعنة أسكنتها كهرمانة روحيهما إلى الأبد. ويطويهما الليل ولا يعبأ بهما السحاب. ينظران إلى سقف الحجرة الأسود كالسخام ويديمان النظر منتظرين بطش السماء لكن الليل يمضي ثم يستيقظ النهار ساطعًا فيستيقظ السعار والأنانية والبرودة المقيتة والجدب في كل المشاعر. ويطوي الاعتياد كل شيء وتمضي الحياة كما هي، الخال والأم والأب في نعيم، فماذا في الأمر إذًا؟

رغم أنها بقيت عالقةً في الذكري كجرح أبدي. لم يبح أحدهما للآخر بذلك السر الخفي عن العالم، جهير داخلهما. لم يتطرق أحدهما إليه؛ أملًا أن يكون الآخر قد نسيه.

أشاعوا أنه كان زوجًا لجنية اسمها كهرمانة، سكنته حين كان عامل بناء في صحاري ليبيا ومنحته قوى خارقة. كان قويًا كالبغل، يثني أسياخ الحديد بيديه العاريتين وتضاجعه العفريتة ليلًا فوق رمال الصحراء الدافئة ويأكل الثعابين ويصطاد الثعالب والعقارب.

maktabbah.blogspot.com

يقوم في الليل البهيم، صلبًا وثابتًا، يطلق عواءً غريبًا، يكتمل الرعب حين تجيبه «ماجدة» القاطنة بالطابق الأعلى بصراخ متقطع يشق الليل ولا يقترب لتفسيره أحد، يردد أحيانًا حين يطربه الحشيش والأفيون، قولًا لا يدري أحد من أين حفظه وألَمَ به: «هل من سامع يسمع فيجيب أو مذنب يقلع فينيب، إن أحسنَ ما نسخته الخطوط كتاب الله المخطوط، أيها الناس، البسوا ثوب الاجتناب واسلكوا سبل أولي الألباب.. قوم يا سوكة افتح الباب».

في اللحظة ذاتها، وبتوافق غريب، يدق الباب ثلاث دقات غامضة.. لا يفهم أحدٌ شيئًا مما قال.. هذا ليس لسانه، فتح سوكة الباب ذات مرة فلم يجد غير الليل وصوت الريح، استوثق الصمت جيدًا، مر طيف بلا تحديد أمامه، مسه الطيف فسرت رعدة في ظهره، عاد جريًا إلى فراشه ولاذوا جميعًا بأغطيتهم ولم يرفعوها بعد ذلك حين كان يردد ذات الكلمات.

في هالة من التقديس والشعور بالإكبار لهذا الذي تلبسته الجن وحرمت عليه زوجة من الإنس، كانت طاعته كطاعة الرب نفسه.

كانا يسمعان حديثه مع الله بعد طلوع الشمس.. لا بدَّ أنه يعرف الله وأن الله يعرفه شخصيًا...

«صباح الخير يا ربنا.. عامل إيه.. حبيبي يا رب خليك معانا النهار ده».

«هكذا تبيض الفرخة، في هذا الدفء، أعطني يديك، هات يدك أيضًا».

تخفت في باطن نفسيهما الذكرى، أورثتهما عشق الخروج عن المألوف، كلما كبرا أدركا فصلًا جديدًا من الحكاية. الغيظ والندم، منبوذان في كل الشرائع، ملعونان أينما ثُقِفا، شيء ما بينهما سقط. لم يضع أحدهما عينه في عين الآخر، دائمًا في فرار، لم يغنه سواها، لم يصل به غيرها إلى تلك النقمة البعيدة الغائرة التي كانت في عين الخال كسر المجهول وتحدي العرف والتقاليد والرب نفسه.. «ألم يكن الرب موجودًا حين هتكنا الخال؟»

****

كان ضخمًا وغامضًا، كائنًا بلا تفسير، كالليل والضباب وكهرمان وكهرمانة وكل غوامض

الحارة، يصلي الفجر في المسجد ويذهب إلى الكنيسة أيام الآحاد، يتبتل بآيات من القرآن والصليب في يديه، شره في طعامه وشرابه، يصوم في رمضان ثم تنتابه الرغبة فجأةً في شرب الخمر جهرًا أمام الصائمين في الشارع، يعشق الغناء ويقتنع أنه ليس شرطًا أن تكون عذب الصوت لتصدح بعلو عقيرتك، قد يضيق من غير سبب بأي شخص فيفتك به بيديه الصلبتين كالحديد، يتحاشى غضبه الجميع.. يتبع قانونًا مليئًا بالتناقض بداخله لا يعرفه البشر.

لا يعرف الخوف إلا إذا قابله «عضمة» السروجي»، شابّ هزيل نحيل لا تكاد تقف به قدماه لكن الخال، عوف الليبي، على ضخامته وجسارته وثني الحديد يتجنبه ويقع أمامه كالكلب إذا رآه ولا يخرج إن كان «عضمة» بالشارع، يقف أمامه «عضمة» سامقًا وشامخًا، يتضاءل عوف شيئًا فشيئًا ليبلغ القرفصاء المذلة المهينة.. يوشك «عضمة» أن يطأه بقدميه لكنه يزمجر فقط حين يطمئن لخنوعه، تكتسي عيناه بنظرة متسيدة وتخضع عينا عوف الليبي وتفرّان وهو ثابت في مكانه، يتخذ جسده هيئة مغايرة منكمشة هاربة، تتحرك رقبته ببطء ونشيج، لا يعود نفسه إلا إذا انصرف «عضمة».. سألوه ذات ليلة عن سر هيبته فتوقف نفس الشيشة في حلقه وصمتت القرقرةُ..

قال وقد خرج فجأةً من دوائر الحشيش الزرقاء: «عضمة» زعيم القبيلة».

***

يسري في الليل حيث تأخذه قدماه، قد يغيب ليلة أو ليلتين ثم يعود فينام ليلةً أخرى، لا يسألونه أين كان وماذا حدث، يملأهما الرعب حين يسطو صوته في الليل الحالك وهو يئن وينثر كلامًا شهوانيًا محمومًا ثم ينتفض ويتعرى ويتعرق، يتململ، ينتفض ثم يصرخ لاعنًا كهرمانة ويتلوى متألمًا ويرفس بكلتا قدميه يرجوها: «ارحميني بقى يا كافره، كفايه أنا تعبت، مش قادر، مش قادر».

يفعل كل ما يضمن له الاحتفاظ بحالة الجنون والتقديس، يدخل أي بيت في أي وقت يسأل عن طعام أو يتنبأ لهم مما شم من رائحة، يجلس الأطفال على حجره، يروي لهم أسطورة البيضة التي إن سلقناها جمدت وإن قليناها تهشمت وإن حفظناها في الدفء فقست فرخًا «وآدي البيضة وآدي اللي قشرها وآدي اللي قال حته حته حته». الآباء والأمهات يضحكون ويتبركون بهذا المسكون ويحذرون جميعًا أن تحرقهم كهرمانة أو يجعل كهرمان المارد ذو العينين المرعبتين أعالي الحارة سافلها في لحظة غضب.

***

في الليل، تدور الجوزة بينه وبين الأب وفرج الفوال وإبراهيم المكوجي. أربعة رجال يتسيدون كونهم الصغير، ترافقهم سيدتان: جارتهم حورية الساعاتي، زوجة النجار الذي سافر ولم يعد، وأمهم نجية. يوقد ابنها الأكبر سوكة النار ويرص الحجارة بالمعسل بينما يقطع، الأصغر، سلامة الحشيش بأسنانه ويرصه قطعًا صغيرة فوق الطبلية، يختم كل حجر معسل بقطعة من حشيش فترسو حولها النيران. عشق منذ طفولته مذاق الحشيش وتفنن في معرفة أصوله.. أما الدخان الأزرق وجو الانبساط فكان عالمًا سحريًا هائمًا وغائمًا شمل الأطفال الثلاثة للأبد.. وفي زاوية غير بعيدة جلست نجية، الأم، متكئة في جلباب وردي تصارع ضحكتها ألمَ الحمل.

وبدت حورية في قميصها الأحمر العاري وجسدها اللدن الخالي من العظم إغواءً ممتدًا منذ الأزل وقد انتفض ثدياها متمردين على الاحتواء، وتحول مبسم الجوزة في فمها ذي الروج الصارخ إلى ناي ذي نغم شبقي محنك...

- يا سعده يا هَناه اللي هياخدك يا حورية!

- كل البلد عايزه حورية.

- هو علي هييجي امتى م العراق يا حورية؟

- والله شكله نسي.

يسدد إبراهيم المكوجي نظرةً جانعةً إلى صدرها المتقد كبركان.

- هو اللي زيك يتنسي يا حورية؟

ضحكهم مع قرقرة الشيشة والجو الأسطوري من الرهبة الذي كانت تفرضه طلبات الجنية وحكاياتها ونشوة الدخان المتدفق والرائحة الغريبة، كل هذا الخيال سكنهم إلى الأبد وظل في الغرفة حتى بعد رحيل الخال، وظلت كذلك نظرة متهتكة متبادلة بين الأم وفرج الفوال، تنتظر الفافل بإرادته حتى يغفو، عالقة في جدران الحجرة.

ويختفي إبراهيم المكوجي وحورية الساعاتي مع اختفاء آخر سحابات الدخان في سقف الغرفة.

أتراه يعرف أبونا تفسيرًا لما يفعله الخال؟ لماذا يختبئ بنا ويهددنا بالجنية والمارد إذا نحن قصصنا قصة فرخ البيض؟

حتى حين كبرا وأدركا الحقيقة، كانا أكيدين أن أباهما لو علم كان غضبه كله ليهدأ مقابل قطعة من حشيش لن يجدها إلا عند تجار السلوم مهربًا من ليبيا ولا يجلبه إلا الخال. يذكر

سلامة إنه أقبل نحو الخال ببراءة طفل وهم يتبادلون الشيشة فمد بإحدى يديه نحو دفء خصيتيه.. سادت لحظة صمت ودهشة، حتى الدخان سكن حينها وهدأت قرقرة الشيشة في تنازل بطيء.. مرت لحظة باردة، علا أزيز مروحة قديمة ثم غرق الجميع في ضحك تقطعه أصوات سعالهم حين تخلص عوف الليبي من الموقف قائلًا: «الولعه هناك يا حبيبي، ملكش دعوه «بالعنقد» اللي هناه».

غالبًا، تنتهي هذه الجلسة بأن يحمحم الخال ويدمدم ويعوي ثم يرجف رجفةً متقطعةً ليست كأي رجفة. يتحرك حينها كبندول ساعة يموت، يرتفع سواد عينيه وينتشر فيهما البياض ويزبد فمه ثم يسقط على الأرض فيشتد العصب حتى لا يقدر عليه أحد ثم يلتف حوله الجميع فيسرد طلبات الجنية بصوت رفيع مثل أسلاك النحاس الأصفر: «هاتولي اتنين كيلو كباب وكفتة من عند محمود الكبابجي وإزازة بيره مشبره».

يتكفل بكل ذلك فرج، وفي انتظار الوليمة يتنبأ لكل منهم بصوته الغريب المختلف بما ينتظره في قادم الأيام، كلما أفحش القول في تنبؤاته كلما زاد مرحهم وصخبهم:

- هتموت محروق يا فرج، ياللي بتغرف من قدرة حمودة.

- ايه بقى الكلام دا؟ طب خلاص مفيش كفته.

يزوم ويرعد فيقول فرج:

- خلاص خلاص سوكة راح يجيبها.

- كل العيال هتطلع حراميه سلامة، منى، ممكن أسخطكم برصين، فاكريني أنا بس الملبوس؟ الحارة كلها ملبوسه، الكل شايل بس مش قايل، وانت يا نجية هتخلفي واد وتسميه مايكل».

- مايكل؟ بس دا اسم مسيحي يا ست كهرمانة!

يزأر وينتفض فتستأنف نجية التي كانت حاملًا بالفعل في شهرها الأخير: «خلاص، خلاص، مايكل».

رد فرج: «بس هندلعه نقول له يا ميكا».

تأتي الكفتة فتظهر أذكى حالاته، في منطقة وسطى دقيقة الميزان بين الوعي والتلبس، حيث لا بدّ أن يفيق ليأكل وأن يظل ملبوسًا لئلا يشاركه الطعام أحد، يسيل ريق العيال حوله، لا يعبأ بهم، ينهش الكباب ويزوم وينظر بجانبي عينيه كالأسد ويأكل ما يشاء وحده. يتطوع إبراهيم المكوجي مبررا حالته: «كهرمانة حولته لأسد».

نزع فرج مبسم الجوزة مسرعًا وقال: «طب اهربي انت يا حورية».

غرقوا جميعًا في الضحك والسعال فقالت حورية: «والنبي انت راجل عايب».

يضحكون ويسعلون إلى حد الدمع بينما شفاه سوكة وسلامة ومنى تتلمظ منتظرة بقايا الخال الشره ويمصمصون ما يتسقط من عظم.

يخرج الخال المتخم بالكباب وبالحشيش ليشم الهواء ساعة أو ساعتين. يدلف حمودة ضائقًا مسطولًا تحت البطانية، مسدلًا بتغافله ثمن العشاء والمزاج والكباب وتسيير الحياة بشكل عام، يتجه إليها وهو يدندن أغنية حرب «رايحين رايحين ف ايدنا سلاح» يغدق فرج على العيال مالًا ليخرجوا في سرحة.. يبهجهم سخاؤه.. يطيرون للخارج، لا يعبأون بالظلام.. يسند إبراهيم المكوجي حورية من وسطها اللدن المتراخي، تميل على كتفه مغناجة ويذهبان للتبرك في ضريح سر الدين الفلواتي قبل حلول الفجر.

في إحدى الليالي، عاد الخال عاريًا، متلبسًا بالصمت، تسيل الدماء من رأسه وجسده، على ظهره خطوط طويلة من الدماء والسحجات. اتجه إلى الركن الذي ينام فيه وأخذ يبكي ويهذي، كان واضحًا أنه تعذب وجُلد وسُحل، زحف وتعرض للمطاردة والقذف بالطوب والزجاج. جلدته الشياطين أم أزرت به غلمان الطرق؟ لماذا لم تحمه كهرمانة؟ أسعد الموقف على صعوبته سلامة ومنى، أضحكهما شقاؤه ورؤية مؤخرته الضخمة العارية، سقط من سطوة أسطورته. زجرتهما نجية بعنف وهي تكبس مواضع الدم بالبن وتهذي بتميمة الغراب وتناجي البن: «اشرب الدم كالغراب». وقف صامتًا بين يديها كالطفل، عاريًا صاغرًا..

آخر ما سمعوه كان بكاؤه الهائم في الليل، بكاءً ممزوجًا بالعتاب والضباب والألم..

ثم مات قبل أن يطلع الصباح... قالوا إن الجنية سحبته تحت الأرض... وأنجبت نجية ابنًا سمته «مايكل».

العُمدة

للحارة تاريخ.. بسطاء سكنوها وعمروها كما عمرتهم. استدعاؤهم معقد ومربك، لكنه جدير بالذكر. ذابوا في الزمن، لكن عبق أنفاسهم وحفيف خطاهم ما زال على ترابها وسلالم بيوتها الثلاثة. بنوا بيوتهم بالأحجار الكبيرة العتيقة على غير اتفاق، علموا حارتنا الحكمة وزرعوا العرف والأصول بين حبات ترابها.

في أول بيت بالدور الأرضي المرتفع تسكن أم يوسف؛ امرأة جاوزت السبعين، تعيش في وحدة مفرطة، لا زوج ولا أبناء. الفراغ اليومي والنفس الخالية من الحاضر والماضي والمستقبل.. ليس هناك ما يطل على الحياة سوى ذلك الجزء أمام الشباك ذي الأعمدة الحديدية. الحارة محدودة والحائط المواجه شديد القرب، لا يمنحها لحظةً تعيشها سوى المارين في لحظة محدودة أمام الشباك. لم تكن تتحرك بجسدها العجوز المكتنز من خلف الشباك الحديدي، جالسة في نفس الموضع في كل الأوقات. يجلجل صوتها «الحياني» وهي تسب الرائح والغادي وتدعو على الجميع بالهلاك والشي في نار جهنم. تحك ظهرها بين حين وآخر «بعصا الفلية».

ترعب الأطفال في الليل حين تفك الإيشارب فينحسر عن شعر أبيض كالسحاب، قصير ومنكوش كرؤوس النخيل في ضوء لمبة كيروسين عتيقة، تقذف بالشبشب من يتجاسر بالنظر أو التعليق. تطالب المقذوف أن يناولها الشبشب بعد ذلك: «هاته يابن الكلب». مناولتها الشبشب كانت كالواجب المقدس.. حتى من أصابه الشبشب لا بد أن يعيده، يزداد رعبه كلما اقترب، على جانبي فمها تدلت شعيرات بيض طويلة، يكتشف أن في عينيها حنان وشوق ومزحة ساحرة ورغبةً في استطالة الوقوف، مخلوقًا يألف ويُؤلَف.

قَذفُ شبشبها صار مزحةً ورهان الأطفال والشباب والبنات، كثيرًا ما كانوا يستفزونها لتزيد السباب، هم يدَّعون الخوف وهي تدعي أنها مخيفة، كانت تدرك بهجتهم، فتتفنن في اللفظ والإيقاع، تملأ الوجود بالصياح...

اتضح بعد ذلك بكثير أنها كانت تفعل ذلك لتهزم وحدتها وليشعر الناس بوجودها، كان شتمها وضجرها وقذف شبشبها نادرةً يتندر بها الناس، صار بعد ذلك مؤسيًا ومحزنًا. الوحيد الذي تجرأ وقذف في وجهها الشبشب كان صفوت ابن العمدة، أصاب وجهها، أجابته بالدهشة والصمت والعين الكسيرة.

أمامها يسكن أبو فرج وزوجته أم فرج، عجوزان يقطنان بنفس الطابق، سافر أبناؤهما ولم يبق لكل منهما سوى الآخر. مراسلات الأبناء انقطعت بالترتيب بعد هجرة كل واحد لمكان

مختلف. تشتتا كشوارد الطيور، أحدهما اتجه إلى إيطاليا في هجرة غير شرعية، والآخر إلى الأردن.

الخطابات التي كانت تصله منهما في البداية كانت مصدر حيرة بقدر ما كانت مبهجة.. يطوف في ذلك اليوم الذي يصل فيه الخطاب على كل الأماكن باحثًا عمن يقرأه له ولزوجته، شيئًا فشيئًا انقطعت الخطابات.. تباعدت ثم تلاشت. أخفى حنينًا دائمًا وخدع أم فرج أكثر من مرة بإعادة إطلاعها على نفس الخطابات وتدبير أخبار وقصص عن نعيم الغربة. لم يكن قلبها مطمئنًا لكنها كانت تجاريه، لأن الخدعة كانت تطربه.. كانت تلمح في عينيه أنه يصدق قصصه فيبتهج وجهه.

احترق وجه أبي فرج حين انفجر فيه وابور الغاز الحديث حينئذ. كانت أم فرج مريضة، أراد أن «يلزم عضمها» بشوربة فول نابت من صنع يديه فانفجر في وجهه الوابور. لم تنج سوى عين واحدة، اتسع مدارها جدًا واختفت رموشها، تقلصت ملامح وجهه حد الانمحاء. طمس أنفه، شاط شعر رأسه وحاجباه، برزت أسنانه من فمه المهترئ، صار وجهه كالمومياوات ولم يعد متصلًا بالعالم إلا ببصيص صغير من نور..

بقيا معًا للحظة الأخيرة، أنشودة عشق الفقراء.. لا تدري أفرضتها العشرة الطويلة أم وحدة المصير وقلة الاختيارات! أم هو الحب في أبسط أشكاله وأمتنها. ماتا تباعًا ولم يعد أحدٌ من الأبناء. تكفل العمدة والكاشف القديم بمراسم الغسل والدفن في مقابر الصدقة بالسيدة نفيسة، بحثوا عن الخطابات القديمة ليراسلوا أبناءهما لإعلامهم بوفاتهما فلم يجدوا غير مظاريف بلا عنوان تحتوي خطابًا زائفًا مكررًا.

بعد ذلك بقليل، اشتم الناس رائحة شديدة العفن وانتبهوا إلى أنهم لم يسمعوا شتم أم يوسف ولم يروها لأيام.. اكتشفوا أن الرائحة التي ملأت خياشيم الحارة وفزت من هول نتنها الكلاب كانت لجثتها. لم يكن الشبشب في قدميها حين ماتت، كانت إحدى الفردتين في يدها اليمنى.

أما البيت الثاني، ففي طابقه الأول المرتفع سكن عم عبده، صاحب محل الخردوات برأس الحارة وزوجته وأبناؤه الثلاثة ماجدة ورضوان وعاطف.

تجارته عجيبة وبضائعه أعجب، كان بنكًا ومستودعًا لاحتياجات الناس، يبيع أقماع السكر وتلقيمة الشاي وقراطيس الملح على الكمون والشوق.. يُقرِضُ المعوزين حتى تنفرج الأزمات. لم يدرِ أحد سر متعته الشديدة في مساعدة أهل الحارة، حاول كثيرًا أن يكون قاسيًا فيمنع «الشكك»، لكنه دائمًا يضعف أمام احتياجات البيوت.

أول من امتلك تليفونًا في الحارة، خدماته كانت أكثر قيمةً ومجانيةً من هيئات سلكية ولاسلكية قامت بعد ذلك. تُصنَّف هذه العائلة كأشد العائلات تماسكًا...

أكبر ذكريات الأسرة كانت تتمثل في حفلات الزار الشهرية التي تقيمها زوجته أم هاشم، يعرفها الناس بهذا الاسم رغم أنه لم يكن لها ولد اسمه هاشم. تعرفها كل الكوديات بالاسم. لا ينتهي الزار إلا بإغمائها، حينئذ يدرك الحضور أن الأرواح الشريرة قبلت القربان وفرّت هاربة، يسود الصمت بعد أن أوشك الضجيج أن يهد الحوائط. توقفت عن حفلات الزار بعد أن أنجبت رضوان.

وبالطابق الثاني، تسكن أسرة عم ياسين. أسرة صامتة شديدة النظام، هادئةٌ وسطَ في كل شيء، يتحركون ببطء ويتكلمون بهدوء، ساكنون كالتلال المرسومة في الصور الزيتية، يتحركون في الحارة كالريح المحايدة العادية التي لا يشعر بلفحها أحد. لم يشعر بهم أحد طوال عشرين عامًا حتى ألقى ابنهم الشاب عادل ياسين بنفسه من الشباك فسقط على رأسه. لم يمت، لكن عيناه جحظتا بشكل غريب.. لعل النظام والصمت هما اللذان دفعاه إلى إسقاط نفسه لتجربة الصخب الذي قد يفعله الارتطام.

وبسطح هذا البيت، يسكن عم مراد.. اللورد. أسموه بذلك لحكمته وتأنقه وهيئته الباشاواتية، الموظف الوحيد الذي عرفته حارة سر الدين الفلواتي، وزوجته الرائعة دولت وأبناؤهما الشامخون، محمود وسيد ومديحة، المحترمون رواد المساجد، الموقرون من الصغار والكبار، الأسرة التي أخرجت المهندس والطبيبة والمعلم، والتي أثبتت أن وجود أم عظيمة كفيل بأن ينظم كل مسارات الحياة ويحتوي تقلباتها ويوجه دفتيها.

سكناهم بسطح أعلى بيت كان كالتاج الذي ازدانت به الحارة في ذاك الزمان، السيد مراد كان كالملك المتوّج، نزيهًا يكوي الملابس، مهندم الشعر والخطو، مفروق الشعر من الجانب بدقة تحت دهان لامع من الفازلين العطر، أول من أمسك الساعة الأنيقة المدلاة من العروة إلى جيب الصديرية في الحارة، لكل بدلة صدرية تناسبها. يحلو للأطفال أن يسألوه عن التوقيت كلما رأوه ليزوا أناقة الغطاء الفضي الرقيق وهو ينكشف عن الآلة السحرية التي يخرجها بهدوء من الجيب السحري الصغير.

مشروعات اللورد مراد ودولت هانم الخيرية القديمة بالحارة ظلت باقيةً بعد رحيلهما الاضطراري، دهن البيوت الثلاثة بلون موحد وترميم الشقوق بين أحجار المباني وعمود «القلل القناوي» على ناصية الحارة، إعادة بناء ضريح الفلواتي حين أوشك على الانهيار في الزمن القديم، وفضّ النزاعات وترسيخ الأصول والمحبة.

هجروا الحارة إلى منزل رائع بحدائق القبة بعد موت اللورد مراد وبتر ساق السيدة دولت؛ أفسدها مرض السكري وصار النزول والصعود مستحيلًا. يوم رحيلهم كان تعيسًا وخالدًا بالحارة.. أصبح تأريخ الأحداث يُعرف بما قبل أو ما بعد «عِزال» اللورد وزوجته. افتقدت الحارة بفقدانهم المسك والعنبر والنظام السامي ولم يبق إلا الأذناب. تزوج حمودة من نجية وانتقل بها للعيش في بدروم ذلك البيت في اليوم التالي.

وببيت الساعاتي الأخير المواجه للضريح استقرت أسرة حسن الساعاتي ذات الأصول الشامية. ريفي نحيل طويل القامة غرِفَ بالورع وعذوبة الصوت، اشترى البيت من مالكه الأرمني، واشترى منه أيضًا محل الساعات وامتهن مهنته. لا همّ لزوجته إلا تربية الفراخ وتعهدهم وتوطئة القش لهم، تعرفهم بالواحدة وبالواحد. تتعهدهم أوقات «التكسير» والفقس والطعام والنقار والمشاكسات.

عشة الفراخ مكان مقدس في نهاية الحارة، لا مجال للاقتراب منه. تطل من شباك داخل شقتها على داخل العشة لمراقبة اللصوص والفراخ. رغم ذلك، فكثيرًا ما تجاسر الأولاد على تخطي الخطوط الحمراء... ضيق الحارة كان مثاليًا يسمح للأولاد بلعب «الصده رده». يبدأ اللعب مع طلوع النهار وينتهي وقت أن ترتطم الكرة بالعشة فتوقوق الفراخ لتخرج زوجة الساعاتي كالإعصار العاتي.. محنية الظهر تنفرد مع علو صوتها وسبابها ليبلغ كل آباء وأمهات العيال الذين يفرون جميعًا.

ماتت زوجة الساعاتي تاركةً له ابنتهما حورية، أيقونة حسن في التاسعة عشر، ألهبت القاصي والداني بقدها اللدن المتراخي غير ذي العظم «ودلعها» الذي جعل ناصية الحارة مركزًا لتجمع الشباب والرجال. تقدم لها العرسان من كل الأطياف، العمال ورجال الأعمال لكنها ضنت بجمالها عليهم جميعًا.. ولم تقطع أطماعهم رغم ذلك..

ما إن تخرج ساعة العصاري لتطعم الفراخ بثوبها المجسم المكشوف عن صدر عاجي ساحر التقبب، حتى يطل الجميع على المسرح.. كل الشبابيك والبلكونات مفتوحة في هذا الوقت: أزواجًا وعزباء من كل الأعمار، هذا يدخن وذاك يشم هواءً، وهذا يساعد زوجته في لم الغسيل وذلك نشوان يهتز وقد وجد وقود اعتياده.

رفضت الخُطّاب تباعًا إلى أن أدركها العنس وسوء السمعة، بلغت الثلاثين ومات الساعاتي وماتت الأم. شعرت بفراغ الحياة وفوت الفرص فرضيت كارهةً بعلي النجار.

كان علي النجار جبارًا في الأرض، زير نساء بلا رادع، طويلًا عريض الباع، غزير الشعر في جميع جسده، يميزه شاربٌ كثيف وكف ضخمة ذات أصابع غليظة شامخة ويأكل من كل

البيوت، مفتونًا بالبطش والانفلات وإذلعة أنباء ضحاياه وكسر نفوسهم، تدعمه قوته الطاغية، يباهي بفتوته في كل مجلس، خاصةً فحولته وكثرة مناوباته، وبراعته فيما أسماه «اللضم»، وكان يعني به متابعة المرات من دون فواصل بغير خروج الخيط من سم الخياط..

اكتشف أحد الجيران أنه يعاشر امرأته فذهب لمعاتبته، ضربه علي حتى كاد يقتله، كلما استفسر جاز شرح له السبب بكل بساطة: «فيها إيه لما آخد مراته شويه؟» لم يجرؤ أحد على طلب استيضاح أكثر، ولم يحاول أحدٌ منعه حتى سكن الرجل من شدة الضرب، أجبره على قبول الأمر الواقع، هدده بالقتل إن هو طلقها. وكانت الزوجة فاجرة العينين سافرة التحدي، أرغمت زوجها على الدياثة حتى مات كمدًا.

لم يكن يضاهي علي النجار بأسًا إلا صفوت ابن العمدة، لكنهما -للعجب- لم يتصادما مرةً! تعرف القوى العظمى دائمًا أنْ تلاشي الصدام أبقى لقوتها وأن الاتحاد أفضل. كلما نشدا مزاحًا اختارا رجلًا أو رجلين أو شيخًا، وأحيانًا عائلةً، فتلاعبا بهم كما يتلاعب القط بالفأر.

منذ أن تزوج عليٌ بحورية «شكمها»، حزج عليها الخروج من الشقة لأي سبب.. أمرها بذبح الفراخ والديوك وأكلهم تباعًا. ترك العشة خاويةً، لكنه ملأ ما بين جدران بيتها الفارغ صخبًا. صادف جبروته في قلبها نشوةً، أمتعها بطشه وهذأت متعة صحبتها وقوده. حجبته عن العالم بانشغال حميمي ساحر جدير بالتفرغ. لكنه سافر إلى العراق هربًا من حكم قضائي قديم.

وفي الشقة المقابلة بالدور الأرضي يسكن الحاج حامد وزوجته رقية وابنهما الوحيد مهند، واحة المحبة وملاذ الضائعين. الحنان والعطاء بلا مقابل. صينية القلل الأنيقة على شباكهم الخشبي الأزرق يكسوها الشاش الأبيض البراق تستحلب ريق العابرين.. زوجة طيبة ورجل شفيق وفي شح نفسه، ملأ الله قلبه بالرضا واليقين فانطبع ذلك على زوجته وحياته..

لا بد لمن يدخل شقتهما أن يأكل ويشرب، كوب شاي بالحليب على وجه الخصوص. يأوي إليهما العابرون بلا استئذان، بابهما دائمًا مفتوح. لا يتضجران ولا يسأمان زائرًا، بل تشمله «الست رقية» بالدعاء في الخروج والدخول بصيغ دعائية لا يتقن تراكيبها سواها. قسوتها الوحيدة كانت رحيمةً في باطنها: عندما تضع الإوز تحت وركها «لتزغيطه» لم يكن ممكنًا لجمعيات الرفق بالحيوان ولا الأمم المتحدة أن تستنقذه.

في عصر كل خميس، تسري في الحارة كخيط من أثير رائحة ملوخية «الست رقية»، أريج كالأسطورة وطعم يقدسه الحاج حامد. تقول إن لها سرًا توارثته عن أمها التي ورثته بدورها عن أمها هو «سر الطشة». أطعمت الشارع كله من ملوخيتها لكنها لم تبح بالسر العائلي لأحد قط. لم تنقطع طشة الخميس عن الحارة إلا حين سقط بها مهند في طريقه إلى أم يوسف.

انقلب كل شيء فجأةً وبسرعة؛ أسفرت تحاليل الدم التي أجرياها لابنهما مهند عن اكتشاف إصابته بسرطان الدم. اكتشف ذلك قبلهما نظرًا لبراعته في اللغة الإنجليزية. لم يكن خفيًا على الأب أن الأمر خطير، قيؤه المستمر، عجز يديه عن حمل أبسط الأشياء، بادي الإنهاك، تردي حالته بسرعة رهيبة، تورد وجهه الذي صار كثمرة ذابلة، ارتعاشته الغريبة... تسلح الأبوان بالإيمان والصبر وتسلح الابن الجميل بالرضا واتباع تعليمات الأطباء ومداراة أبويه بالتحمل قدر ما استطاع، سقط شعر رأسه وحاجبيه بتأثير العلاج.. والعذاب.

كافأه الله على مراسلاته لأكبر معاهد معالجة الأورام، قبله أحدها في أميركا.

قرر الأب أن يسافر معه. أصرّت الأم أن تصحبهما. لعنت سمنتها للمرة الأولى، تظاهرت بالخفة الشديدة لئلا تعيق حركتهما. ركبت الطائرة للمرة الأولى، حملت معهما الحقائب.. منحت لحظات الآلام بهجةً، منح الأب نفس اللحظات تماسكًا ورصانةً، منحهما الابن وجهًا مستعارًا للسعادة والصحة.. باختصار، كانت كلها رحلة للادعاء، إلى بلاد تدعي أنها تمتلك الأمل.

فوقهم تعيش «سيدة واصل»، فتاة ناعمة بصحبة أمها العجوز. إن كانت هذه الحارة جسدًا، فسيدة هي قلبه النابض الرقيق، فطرة سوية وحنان بلا حدود. قصة حب راقية بينها وبين مهند تناسب رقتهما. عاشت جلّ شبابها مع أمها بعد وفاة أبيها. تعشق هي تربية القطط وتعشق أمها النادي الأهلي.

قدمت هذه الأم الخدمة الأجل لأبي فرج حين احترق وجهه، تكفلت بطعامه وطعام زوجته وخدمتهما.. تطعمه مما يطعمون كما اتفق. تمر أطباق البصارة والعدس والفول النابت من بيتها الأخير بالحارة إلى بيتهم الأول وقد تزينت حوافها بعيدان الفجل والبصل والجرجير، تكفلت أيضًا بتنظيف البيت مرتين أسبوعيًا. كلما شمّرت ذيل جلبابها ولفّته بإحكام حول وسطها استعدادًا للتنظيف، مازحت عم فرج: «اقفل عينك يا فرج.. اللي يندب فيها رصاصة».

تسمع الحارة صياح الأم كلما أحرز النادي الأهلي هدفًا، وتسمع عتابها الشديد لمختار على وجه الخصوص، لأنه لا يرفع رأسه عن الأرض وهو يركل الكرة.. في البيت سبع قطط ترعاهم جميعًا سيدة.. تقول دائمًا إن تربية الكلاب تعكس أنانية أصحابها، لأن الكلاب أيضًا تدللهم وتخيبهم وتهز ذيولها طربًا كلما رأتهم، أما مربو القطط فيرعونهم بلا مقابل.

ضجّت الحارة يومًا بصراخ الأم وهي تقطعها ذهابًا وإيابًا مولولةً. ارتعب الناس وظنوا أنها التاثت أو أن زوجها مات، استقرت أخيرًا في حضن «الست رقية» وهي تندب: «الست ماتت،

الست ماتت».

كانت تقصد أم كلثوم.

زوجها، كان اسمه واصل، كان طويلًا نحيلًا عريض الكتفين، وجهه مشوب ببياض ريفي مميز، أسماه الناس بذلك الاسم ظنًا أنه كان واصلًا بعالم السماء وأهل الله لمجرد خدمته بالمسجد القريب من الحارة. شديد النظام والنظافة، ليس من النوع الذي يقبل النقاش حول أمور المسجد، ظنَّ أن العلم انتهى إليه لمجرد أنه يكنس الجامع ويملك مفاتيحه، يترنم عقب كل أذان بترانيم يفطها ويطيلها حسب مزاجه، كان مدمنًا للإفتاء وتغسيل الموتى وشرب القرفة بصفة خاصة.. غليها وتصفيتها والتجوال بها على رواد المسجد ما بين الأذان والإقامة في أكوابٍ صغيرة ينتقيها على وجه متناسق مخصوص.. نزاعه مع الساعاتي حول الأحق برفع الأذان لا ينتهي.

***

عاد الأبوان من أميركا مكلومين بغير ابنهما، تركاه بعيدًا كما أوصى، تقبلهما للأمر كان مدهشًا.

في جلسة جمعت «الحاج حامد» بعم عبده البقال باح له بأكثر المواقف صعوبةً عليه، حين كان لا بد من إيجاد مترجم لشرح حالته وإجراءات العلاج، صمم الطبيب على ذلك ورفض مهند، طلب القيام بكل أمور الترجمة.. خرجت الممرضة بعدها بدقائق تقول إنها لم تر مثل هذا من قبل، أصرَّ على الترجمة بنفسه ليجنب أبواه فهم ما يسوؤهما: «الابن يا عبده هو اللي خاف علينا».

وعندما سأله الطبيب الأمريكي عن حاله أمامهما قال للطبيب إنه بخير، لم يكن ذلك الطبيب يؤمن بشيء غير حقائق العلم.. الكذب هناك جريمة، قال: «لا تكذبني، أعلم إنك تحترق، أنا طبيبك».

«لست حزينًا، ليس هناك حزن يليق بمهند، أتفهمني يا عبده؟ لا أشك في قرب اللقاء.. ألم الفراق فظيع يا عبده.. حارق»، أكمل الطبيب صراحته الحادة كنصل السيف قائلًا: «لقد بذلنا كل جهد ممكن ولم نتمكن من قهر مرضك، لم يتبق إلا عقار واحد في طور التجربة على الحيوانات». أتدري ماذا قال له مهند، ابني الحبيب؟ قال: «جربوه على جسدي، لا تحرموني من صدقة جارية». أوصى بترك جسده للتشريح».

كل ما اذعته الأم من رشاقة في تلك البلاد البعيدة عاد ثِقلًا. صار مجرد تحركها من مقعدها مرهقًا، فضلًا عن إحساسها أنه مجهود غير مجدٍ. التزمت الرقيقة «سيدة» برعايتها

ورعاية الحاج حامد، تطوعت بخدمتهما منذ ذلك اليوم. كما قامت أمها قديمًا بخدمة «أبو فرج» حين شبّ في وجهه الغاز.

كان مهند زوجًا متوقفًا لها، انتظرته بأمل كبير، لم تكن تتصور أن الحياة يمكن أن تتخلى عن مثل ابتسامته.. لكنها أخيرًا، وبضغط من أمه نفسها، قبلت الزواج بأحدهم ثم هاجرت معه إلى أميركا.. لم يبقَ من مهند بعدها غير صورة على الحائط تناجيها الست رقية داعيةً أن يترفق الله بابنها في العالم الذي خلقه الرب لرعاية الوادعين.

بالطابق قبل الأخير، يسكن الحاج حسبو، الشيخ الضرير، وزوجه وأبناؤه الثمانية. أبيض الثوب والشعر واللحية، بدين فخيم، أشبه في عيون الأطفال بالملائكة «اللي لابسين أبيض ف أبيض». بعض الأطفال ظنوا أن الله نفسه لا بد أن يكون على هيئته الراقية الطاهرة.. وبعضهم لم يكن يتصور أن هيئة جبريل الملاك تخالفه قيد أنملة، ينزل قبل كل صلاة وحده يتحسس الطريق دون أن يصحبه أحد من أبنائه الثمانية.

يذكر سلامة أنه كان يتلذذ بالعدو نحوه وهو دون الثامنة ليصحبه إلى المسجد وينتظره حتى يفرغ من صلاته فيعيده إلى البيت، وينعم عليه الحاج حسبو «بمِلَبسة» أطعم من كل مذاق بالدنيا..

يذكر صدمته الشديدة حين طلب الشيخ منه ذات مرة أن يصحبه إلى معرض سجاد المعلم شندي الموسر الكريم.. قرأ له آيات متفرقات من القرآن ثم رفع يديه فدعا له وأطال، ثم تبادل الشيخ والتاجر حديثًا طويلًا كانت نهايته قول الشيخ في استكانة وقد دلى رأسه جانبًا وغاص في عتمة العماء «نحن أهل الله وخاصته»، فأخرج المعلم من درج مكتبه ورقةً بعشرة جنيهات ودسها في يد الشيخ حسبو.

ظل المعلم شندي جالسًا والشيخ واقفًا في تصاغر عجيب. أخذ «النفَخة» وخرج.. بحثت يده عن يد سلامة المذهول.. تباطأت يده.. قرر ألا يساعده، رد يده غير جافلٍ، تركه ومضى.. كفر من يومها بالمسجد والملائكة والمِلَبس وثواب مساعدة العميان.

***

وعلى سطح آخر بيت بالحارة الضيقة، بيت الساعاتي، كان العمدة راسخًا وقديمًا قدم الحارة نفسها، لا يدري أحد متى جاء مصطحبًا ابنه صفوت ولا من أي البلاد هو، لعله أقدم ساكني الحارة منذ عهد الساعاتي وأول العهد بالوقف والأقدمين العمالقة.

كان غمر ابنه صفوت حين وصلا الحارة سبع سنوات. رباه بالبطش والمنع والسباب، مارس عليه كل سلطات العمودية وحرمه ملاعب الصبا ومنبت الأسرة، فكان دائمًا في الحارة غريبًا

لا يألف ولا يؤلف...

كلاهما أغرب من الآخر... فلا هذا يصلح أن يكون العمدة بطوله ونحوله وتفاهة مشيته وبندقيته العتيقة التي أصر أن يعلقها دائمًا فوق كتفه، وطربوشه الذي يضاهيه طولًا ونحولًا، كأن رجلًا آخر واقف فوق رأسه... ولا هذا يصلح أن يكون ابنًا بحال من الأحوال بنموه العضلي الصارم وشنبه الكث العريض وصوته الغليظ الخارج من جوف الجبل.

يقولون إن العمدةَ باعَ فدادينه وطينه ثم هجر الأرض التي نشأ فيها فداءً لحب كباريهات شارع الهرم وراقصاته وخموره وإنه بسبب هذا الحب ضيع كل ما جاء به من القرية. كانت العلاقة بينه وبين ابنه في أول عهد الترحال صياحًا وضربًا من جهة الأب، وبغضًا وكمدًا من جهة الابن. لم يصحبه العمدة من تلك الأرض البعيدة إلا لخدمته، لم يكن يتصور أن تكون له متطلبات خاصة به كطفل، وكلما طلب شيئًا كان جزاءه الضربُ بالنبوت. وحين اشتد عود الابن وانحنى ظهر العمدة، فإن شيئًا غامضًا صار يحدث فوق هذا السطح.

اختفى العمدة، ولم يعد يظهر سوى صياح الابن وصوته الغليظ الذي يملأ الحارة ويغالب صراخ الممسوسين، بكاء كالعويل بلا تفسير يصدر من شقتهم ليلًا، كلما حاول أحدهم أن يفك هذا اللغز طرده الابن صفوت قبل أن يصل للباب.

مرّ قبل ذلك بأطوار غريبة ومتباينة، كان أصغر من شوهد بالسيجارة في حارة الفلواتي. وأحيانًا هو المتدين شديد الصرامة والالتزام حتى إنه تسلم إقامة الشعائر والأذان بعد وفاة الساعاتي، ثم انقلب طوره فأدمن المشاكسة والعراك، أولع بالحط من شأن الكبار بالبطش والقوة، أولع أيضًا برياضة رفع الأثقال فاشترى من سباك بشارع المستشفى مترًا ونصف متر ماسورة «نصف بوصة»، وصفيحتين فارغتين. ملأهما بالإسمنت ثم وضعهما على طرفي الماسورة واستخدمها كرافعة أثقال.

ولصفوت عادة غريبة حين يصيح بالناس، فهو ينظر للأعلى ويصيح فيختلط الأمر على محدثه، أيصرخ فيه أم في شخص قرب السقف أو السماء، ثم إنه يسحب ريقه بين جملة وأخرى بصوت عال يشبه فحيح الأفاعي ثم ينقلب عند نهاية صياحه إلى وحش ضخم يضرب محدثه أيا كان «لا يمكن اتقاء هذا التحول ما دام قد بدأ الصياح».

صار بمرور الوقت عفريت الحارة الإنسي الذي يخاف بطشه الجميع. استخدم البندقية لصيد الحمام وترويع الناس.. في الليالي الشتوية الباردة المطيرة يطل على الحارة ويستهويه الصراخ وشتم الناس موازيًا صوته بهزيم الرعد وثجيج المطر، يضرب الرصاص فيخرج صوته الجهوري أشد رعبًا وهولًا من طنين الرصاص.

نزل العمدة ذات صباح يجري كالمجنون بملابس تحتية مبتذلة، كلسون ضيق وصديري أبيض فوق لحمه الأحمر، مذعورًا كديك شركسي يفر من سكين، رقبته من دون التلفيحة أشبهت في دقتها رقبة ديك بالفعل. للمرة الأولى رآه الناس متهدلًا بغير طاقيته وبندقيته التي لا تفارق كتفه، كان يجري حاملًا قميص صفوت المغسول، ماذًا ذراعيه أمامه بالقميص في مجال العدو ليفرده في الهواء فيجف.. قبل أن يصل إلى نهاية الحارة، ابتدره صفوت من فوق السطح وهو يصرخ فيه: «إن مرجعتش بيه مكوي» سحب ريقه سحبًا طويلًا وتعلق بصره بالسماء «تششششش، أحسن لك مترجعش إلا وهو ناشف».

لم يكن إبراهيم المكوجي قد فتح حانوته بعد.. ظل العمدة يجري يمينًا ويسارًا باحثًا عن بؤرة شمس فارذًا يديه بالقميص الذي غسله بنفسه في الليلة السابقة، ولسوء حظه في هذا النهار الشتائي رفضت الغيوم أن تعلن عن تلك البؤرة الشمسية، شعر أن كل شيء ضده، تمنى أن ينتهي العالم. تحرك يمنةً ويسرةً حائرًا بلا وجهة، وصفوت بالأعلى يصيح ويسحب ريقه وينظر إلى السماء.

لم ينقذ الموقف غير نجية، تطوعت بحل بسيط وفرعوني قديم لتجفيف القميص.. فردته فوق وابور الجاز ومزرته فوق النار قطعةً قطعةً، بدأت بالصدر ثم الكمين تباعًا ثم الظهر، وأعادت الكرّةَ مرتين حتى أوشك على الجفاف. قلبته على الوجه الآخر ومرّ القميص بنفس الدورة. منذ ذلك اليوم أدرك الأفيونجي سر احتماله لهذه الزوجة، هدوؤها لحظات الخطوب.. وصولها للحلول بأبسط الطرق... مشتت مثله محتاج لامرأة راسخة مثلها، نظر إليهم وبعينيه نظرة تيه وفخر وابتسامة متكبرة.. يريد أن يخبرهم واحدًا واحدًا أن هذه زوجته.

تردد العمدة، خاف أن يطلع بالقميص. أرسلته نجية مع ابنها سوكة. كان الفتى الصغير يمني النفس برؤية أي سطح يعد من عليه أفراد سرب الحمام، كان يريد أن يرى الحارة من أعلى بيت فيها، سئمًا من سكناه أدناها.. تناول صفوت منه القميص وبينهما درجتا سلم، نظر سوكة إلى وجهه عن قرب متودذًا، فاجأه صفوت بصفعةٍ على وجهه، صفعةً ظل يعاني ضراوتها أسبوعًا كاملًا.. ظلت أذنه وظلت متأثرةً بها حتى نهاية عمره.

ظل العمدة مختبئًا بالضريح حتى نزل صفوت.. تذكر في ذلك اليوم عم مراد.. قال إن هذا لم يكن ليحدث لو كان موجودًا، سمع خطوَ صفوت يقترب نازلًا من البيت فأوقف أنفاسه، مر منتفخًا كالطاووس مزهوًا بمتابعة عيونهم، كان مرتديًا القميص المكوي المجفف، وجهه أيضًا كان مكويًا ومجففًا بفعل المساحيق والكبرياء والشارب الكثّ وسوالف الشعر التي كانت عريضةً تصل إلى شحمة الأذن. لم يتكلم أحدٌ بطول الحارة حتى خرج.

خرج العمدة من الضريح فحاضرًا بالعيون، لم يعرف كيف يداري خجله أمام الناس..

أصابه التهاب رئوي مات على إثره بعد أسبوع واحد وأطلق الناس على صفوت لقب المفتري.

استمر صفوت المفتري في الحارة كأسطورة مرعبة لا يقربها أحد ويحرص على تجنبه الجميع، ينزل من سطوحه شامخ القد عظيم البنيان متأنقًا مفتول العضلات يقول لسان حاله «يا أرض اتهدي ما عليكي قدي».

ويعود في الليل البهيم مصطحبًا صاحبةً أو صاحبًا. وتنتهي السهرة دائمًا بسماع صراخ الصاحب أو الصاحبة.. كلهم يصرخون بنفس الوتيرة؛ كأنما يتعرضون لنفس الدافع.. وكلهم، رجالًا ونساءً، على نفس الشاكلة.. يتغيرون باستمرار ولا تتغير السحنة ولا يتغير الصراخ. لم يكن سكان الفلواتي يعبؤون بالصراخ فصفوت يصيح وضيوفه يصيحون وكهرمان وكهرمانة يصيحان.. ومن يدري.. لعل سر الدين الفلواتي في ضريحه أيضًا يصيح.

كهرمان

عندما ينسجي الليلُ سدولَه تغرق الحارة في ظلام عجيب. لا يطل النور من شباك واحد أو يتسلل من غرفة بعيدة، لا نقطة ضوء، الكل متربص ينتظر الصرخة.. ينطوي كل بيت على أهله كالطيور التي تكن في أعشاشها انتظارًا للصباح. وفي كل بيت سر وفي كل بيت صخب لا يشعر به الوجود. ويشق الليل عواء ماجدة، يتكور الأطفال الثلاثة: سوكة وسلامة ومنى في ظلام الغطاء متجمدين من الرعب، تتمنى الحارة ألا يقلب المارد عاليها سافلها. كيف يحتمل جسمها الهزيل ماردًا جبارًا؟

طاف بها الحاج عبده الخردواتي على المشافي والمساجد والكنائس فلم يجد لها شفاءً، قال عوف الليبي يومًا إنها زوجة لكهرمان شقيق كهرمانة.

تقع غرفتها بالطابق الأول من البيت الثاني بالحارة في شقة ضيقة لكنها تتسم بالطول الغريب. قُسمت غرفها كالقوالب، حجرتها في أقصى الشقة بجوار الحمام شبه المعزول عن باقي السكن.

في صباها كانت غامضةً هادئةً وكانت ألطف من كل البنات، تستقر على وجهها ضحكةٌ مميزة ناضجة، فوق رأسها تُوجَت «بكحكة دائرية» كالتاج، خلفها تدلت ضفيرة شديدة اللمعة والأناقة.. لكنها كانت شديدة الصمت والخجل، بعيدةً عن كل ما يمت «لشقاوة» الأطفال بصلة.

لم يدر أحد الوقت الدقيق لبداية اضطرابها.. ربما كان ذلك قبل أن يخبروها أن أمها ماتت، صرخت وصممت أن تراها، تطوع أحدهم بسحبها من يدها للحجرة التي استقر فيها جسد الأم. رأت أمها مسجاه. لم تفهم معنى الموت، كانت أمامها راقدةً. صرخت بلا توقف: «ماما عايشه، ماما عايشه».

مُذْاك اليوم، أخذت أحرف كلماتها تتسارع، تنقلاتها بين البؤس الشديد والبهجة الشديدة تفاوتت بلا ترتيب.. تراوحت حالاتها بين الهزل والجد، الحماسة والخمول.. كلاهما بعيدان ولكنهما شديدا الكثافة. لم تعد تصرفاتها تخضع لميزان، تشكو أوجاعًا لا يوجد سبب عضوي لها، تفرح بشكل مُبالَغ فيه بلا أسباب، تستحم كل فجر وتمشط شعرها لساعة ثم توقظ البيت كله بغنائها، تختتم الوصلة بصراخ هستيري. هرعت إلى الشباك ذات ليلة محاولةً أن تلقي بنفسها منه.. تذكر القدماء عادل ياسين وجحوظ عينيه.

التبس الحق بالباطل، وصل أحد الشيوخ في ملابس متمدينة يرتدي الجينز وقميصًا

يتواءم مع هيئته وسنه وإقباله على التقدير في الأعين، عيناه تشعان بريقًا غامضًا، بيده كيس يحتوي نوعًا من البخور وسحرًا يسطع في الظلام، طلب قصعةً وفحمًا مشتعلًا وبطةً سوداء الريش وكاسيت.

أجلسها أمامه وبيده كوب ماء «عزّم عليه»، قرأ من خواتيم السور، همهم بكلمات غامضة وهي مغمضة العينين كأنها لا تسمعه، رشّ عليها الماء فانتفضت ملسوعةً وبدأت الصراخ، انتفض جسدها في بأس وزمجرت كأنما يوشك أن ينطلق وحش من داخلها، لم يستطع شقيقاها رضوان وعاطف السيطرة عليها لشدة البأس الذي طرأ عليها ولارتخاء قبضتيهما بفعل الخوف. استطاع الشيخ المتماسك ردّها إلى الكرسي، قبض بيده اليمني على جبهتها بقوة، ترنم بالعزائم وهي تئن في وَهَنٍ متنازل. أجلسوها وقد سادت نفس الشقيقين حالةٌ من الرعب خففها التقديس للشيخ المتمكن.

أخرج من كيسه سماعتين ووضعهما على أذنيها. وضع بالكاسيت شريطًا عليه سورة البقرة كاملةً، رفع الصوت إلى أعلى درجة، كلما ضجت من الصوت العالي دفعت السماعات عن أذنيها فقال: «انظروا.. إنها لا تطيق سماع القرآن».

ست وثمانون ومئتا آية كاملة، لو رفعوا السماعات عن أذنها لارتجّ زجاج الشبابيك، أعياها الصوتُ والسماعُ فصرخت من عمق غمق الروح والقلب وانهارت.

انتهت الجلسة وقد تملكهم إعياء شديد، قرر الشيخ أنها تحتاج جلستين أخريين.

***

قرّ أمر الأسرة على وجوب خضوعها لجلسة تالية قبل أن يثوب الكائن المرعب داخلها ويسترد عافيته، أراد عاطف أن يقول لهم كفى، لكنه خاف أن تؤدي الشفقة إلى إرجاء شفائها فسكت.

الجلسة التالية كانت مختلفةً. أتت بسلاسة وبطء، كانت في منتهى الجرأة والاستهانة الممتزجة بعدوانية كامنة، جلست مائلةً على الكرسي تهتز باستهتار على جانب فمها رست ابتسامة عابثة ونظرة عينٍ تفيض امتهانًا ومكرًا.

وضع الشيخ يده على رأسها وشرع في ترديد تمائم، خفضت رأسها ورفعت عينيها في عناد متربص، أخذت تزفر بأنفها ضحكة مهتزة من غير صوت، كزّت على أسنانها وبدأت تميل وتنظر من طرف تظنه خفيًا، جلس أمامها يقرأ تعويذةً على كوب ماء.

وقتٌ طويلٌ مرّ قبل أن تبدأ التجاوب، سخرت من الشيخ الشاب بشدة واستهزأت بقميصه

المخطط وقامته القصيرة، خرج من أعماقها صوت حلقي غليظ، علا الجدالُ بينهما وتواتر التحدي.. تبادلا الشتم والتهديد بالحرق والخرق، طلب الشيخ من المتحدث إليه أن يخرج فردَ الصوت بلغة عربية فصيحة: «لن أخرجَ إلا من عينيها».

تولاهم الرعب فلم تجد نفوسهم مخرجًا ولم ينطق أحدهم بكلمة أو يلتفت..

طالبه الشيخ بالخروج من إصبع القدم فرفض الصوت الخشن الخارج من حلقها فلطمها الشيخ، وبدأ بينهما التدافع.

قال له رضوان متأثرًا بنفس اللغة: «دعه يخرج».

أجابه الشيخ: «لو خرج من عينها لفقأها».

أخرج من كيسه خرطومًا كالذي يضربون به الحمير في مطالع الكباري.. طالب الشقيقين أن يقيداها ثم انهال عليها ضربًا في كل مكان مردذا نصوصًا يحفظها والصوت يصرخ. كلما صرخ وتمرد، أحكم الشقيقان السيطرة فازداد الصراخ.. والشيخ أيضًا يصرخ ويركلها حيثما اتفق.

من الحارة، سمع «عضمة» السروجي الصوت فهرع نحوهم ودفع الباب. ظن رضوان وعاطف أنه جاء للمساعدة، ولكنه ما إن رأى حالة ماجدة حتى التف وتجمد وعوى عواءً حلقيًا غامضًا، تشنج وغارت عيناه ثم أقبل على الشيخ مطبقًا بكلتا يديه على رقبته، كاد الشيخ يلفظ أنفاسه وهو يردد آية الكرسي.

احمرت عيناه وابيضت عينا «عضمة» فاستحال إلى هيئة غريبة. لم يكن بين الشيخ وبين الموت غير لحظة لولا أن الشقيقين أنقذاه تاركين ماجدة التي تكومت كالمشلولة وأخذت تصرخ بصوت غليظ.. عواء آتٍ من أعماقٍ خرافية: «سيبوه، ملكوش دعوى بيه».

استطاع «عضمة» على نحوله أن يفوقهم جميعًا، كانت قوته عاصفةً، كاد يفتك بهم لولا أن آخرين صعدوا من الحارة، ضمنهم حورية، ضربه أحدهم بخشبة فوق رأسه من الخلف فسقط على الأرض، تخشب جسده ورعد كوحش حبيس، امتلأ فمه برغاءٍ وزبدٍ ثم سكن كمن راح في نوم بعيد، وما زالت ماجدة تصرخ وتنشج نشيجًا غريبًا وقد تكومت في الأرض عارية الفخذين.

لم تكن قادرةً على الحركة فأخرج الشيخ -الذي أراد استرجاع هيبته- كوفيةً من كيسه واستدار خلفها وخنقها بها، شد الخنق حتى احمر وجهها ثم ازرق فألقاها على الأرض كالخرقة.

صرخت فيه حورية: «خلاص يا خويا، انت بتعالجها ولا بتخلص عليها؟ استري نفسك يا حبيبتي».

جثت على ركبتيها تحتضنها، غطتها بشالها الوردي، لكنهم ازدروها متجاهلين كأن لم يسمعوها.

طلب الشيخ منهم أن يطفئوا النور فقام عاطف بينما سيطر رضوان على الذراع التي تركها أخوه، أخرج في الظلام شيئًا من جيبه، ردد ترانيم غريبة اللغة وماجدة تئن من ألم الضرب وإحكام شد الشقيقين على يديها، نادت اسميهما في وهن بصوتها العادي.

عذُب عاطف الشعور والتساؤل الغامض، أيقسو في شد الوثاق على الجن المارد أم يحنو على أخته الهزيلة ذات الصوت الناعم؟

لمع في الظلام وميضٌ كالبرق فجأةً، أذهلهم جميعًا هذا الرعب المضيء.. هذه ليلة الجّان والهلع. وجمت حورية وأخذت تهذي بما لا تحفظ من قرآن ودعاء.. ألقى الشيخ البخور في قصعة النار وارتمى مرهقًا وهو يكبر ويقول: «الحمد لله.. الله أكبر».

ردد الحاضرون التكبير وقال الشيخ المرهق: «خلاص خرج».

سادت الغرفة رائحة نتنة جدًا، اخترقت أنوفهم جميعًا، فرّ معظمهم من نتن الرائحة.

سكنت ماجدة من شدة الألم وما زال «عضمة» ينتفض، تجنب الشيخ أن يقربه أو ينظر إليه.

أخرج من كيسه حفنةً من الشيح وماء النبق ووضعه على الماء، قرأ عليه كلامًا ثم أوصاهم أن تشرب من هذا الماء ثلاثًا بعد صلاة العشاء ثم تستحم بسبعة لترات من الماء على كل لتر حفنة ملح ملء اليد، وتتركه ينشف على الجسم ثم تستحم عشية اليوم التالي.

نتف ريش البطة السوداء ونثره حولها في دائرة وطالبهم بإجبارها على المكوث فيها بلا حراك حتى تستحم في اليوم التالي.

حذرهم مرتين أن تخرج من الدائرة، بدأ في جمع أدواته في حقيبة مستعدًا للرحيل وهو يلهث كمن صعد الجبال يحمل أثقالًا.

قال عاطف وهو يشير إلى «عضمة»: «وده؟»

رد الشيخ: «دا شديد.. لا شأن لي به».

لم يَرد أي منهم أن يستفهم، خوفًا من سطوة الإجابة بعد أن ألقى الشيخ إجابته بسحر

غامض.

هدأوا قليلًا، وقام الشيخ ليلم عدته وهم يحمدون الله أن أذهب عنها البأس. غمرهم جميعًا الهدوء، كعائدين من معركة يسترجعون بطولاتهم. جلسوا يتسامرون قليلًا، سطعت هالةٌ من العلم والتقدير فوق رأس الشيخ، سألوه عن تفسير اسم الشيخ الفلواتي صاحب الحارة فقال كأنه يقرأ من كتاب: «كان كافرًا في الزمن الغابر أراد أن يرجع الناس إلى عبادة اللات فسمي الفلواتي انتسابًا للات. سخّر له الشيطان أتباعًا منحوه بعض الحيل والأعاجيب التي ظنها الناس كرامات فصدقه المهرطقون والزنادقة. شرب يومًا من ماء النيل في لحظة مقدسة في الزمان يتوقف فيها النهر عن الجريان فمنحه ذلك القوة والسحر والحظوة. كان يمسك جمر النار الملتهب بيده، اختفى من الأرض فظنوه مخفيًا داخل هذا المقام حيث عاش وحيث مات».

كان صوت الشيخ الشاب مقنعًا والفًا من أثره على مستمعيه. وكلامه مرتبًا أنيق اللغة، مخارج ألفاظه تدل على ثقافته واطلاعه وتكسبه قدرةً على الإقناع.

خرج رضوان مع الشيخ. ظل عاطف باقيًا مع أخته موجوع الروح من قسوتهم عليها ومن أثر الضرب على وجهها وجسدها المنهك. تمزقت ملابسها وانتشرت كدمات على بشرتها. شغلته فكرة قبضت على قلبه. إذ كيف يسمح بتعريها هكذا في وجود كل هؤلاء الغرباء.

عاد رضوان فوجدهم قد ذهبوا بـ«عضمة» ووجد ماجدة ملقاة على كرسيها كالخرقة البالية.

- الشيخ دا نضاب.. عاوز مبتين جنبه، خد مبة بالعافيه، وعلبتين سجاير.

- نصاب ازاي؟ انت ما شفتش عمل ايه؟

- كلهم بيعملوا كده، بيحضروه ويضربوها ويمشوا.

- طب والنور، دا العفريت طلع، انت مشمتش الريحه؟

«هنشوف، خليها مع الكداب لحد باب الدار.

اكتشفوا أنه أخذ البطة معه.»

***

شدّ الملح جسمها شدًا قاسيًا، كاد جلدها يتشقق. ألم جاف حارق لم تشهده من قبل. ظلت الليلة التالية مشدودةً يابسةً وقد افترشت مرتبةً على الأرض في الدائرة المرسومة بريش

البطة كأنما وُضعت في الجبس حول سياج إسمنتي تتجنب الحركة.

بالت حيث نامت، خشيت أن تفتح فمها خشية أن تتشقق بشرتها، تصلبت كالوتر، سقطت فوق خدها دموع، خافت أن تمسحها لئلا تكشط جلدها بأصابعها. تبادل عاطف ورضوان السهر والمراقبة من على كرسي قريب، كلما نظرت بجانب عينيها إلى أحدهما توعدها بصيحة فارتدت عيناها.. وكعادتهم، باركوا ألمها أملًا في الشفاء.

***

مرت ليلتان ثم خَرَقَ الليلَ عواءٌ وصراخٌ لم يدرِ أحدٌ مصدره، قالوا إن كهرمانة جاءت تبحث عن عوف الليبي وزجّع الظلام الصدى فرددت ماجدة صراخًا متقطعًا...

وفي بيته البعيد كان «عضمة» متشنجًا ملسوعًا.

***

أخذها أبوها إلى إحدى الكنائس مترامية الأطراف في الحوامدية، وصلا إليها بعد مشوار عصيب أرهق الأب الطاعن في السن والفتاة النحيلة، ركبا المترو ثم ميكروباص ثم عربة نصف نقل.

وجدا كثيرًا من الممسوسين والمجذومين والصرعى هناك من كافة الملل والطبقات، كلهم على الأرض، ساوى بينهم المرض والأمل، بينهم وجوه هادئة لكن العيون ليست كالعيون، يشرف عليهم جميعًا مدونو الحالات ومرتبوها حسب بكور القدوم وصعوبة الحالة.. وغالبًا حسب الاعتقاد أو التعارف القديم، لا يخلو الترتيب من بعض الأسئلة، في النهاية تم وضعهم مرصوصين صفًا صفًا.

في جلالٍ، خرج الأب مكاريوس. مرّ أمام النساء الجالسات وبيده الصليب. رشّ عليهن ماءً مباركًا معطرًا بترانيم لم يفهمها عم عبده فارتمين جميعًا على الأرض يتلوين كالأفاعي ثم ردد ترانيم أخرى فسكنّ جميعًا، واختلى بماجدة ساعةً ثم خرجت كالمخدرة.

سأله الأب مكاريوس ذو اللحية البيضاء المرسلة عن فتى اسمه شادي فأجاب عم عبده أنه شابٌ تقدم للزواج منها منذ عام لكنها رفضته. قال الأب مكاريوس إن شادي هذا قد عمل لها عملًا سفليًا نجسًا أخفاه في بطن سمكة ودفنها عند جبل الطور بصحراء جنوب سيناء، وقد ألِفَ خادم السحر، من طول سكناه بالجسد، الجسد.. وأنه -الأب مكاريوس- قد استطاع -باسم المسيح- فكّ العمل وأن ماجدة شُفيت.

سأل عم عبده الأب مكاريوس عن الشيخ الفلواتي فقال: «كان قديسًا كثير الفلتات فسقاه

الناس الفلواني.. قابل بين الأرض والسحاب من تسمونه أنتم الخضر ونسميه نحن أبا السيوف، انتهت إليه أسرار الأولياء ومذ الرب بسلاح الرهبة في قلوب أعدائه حتى أبادهم بعروة كلمته».

عاد عم عبده سعيدًا ضاحك الوجه بعد طول عناء، لم يكن شيء يمتعه كبذل نفسه من أجل أبنائه. لكنها منذ خرجت من الكنيسة كئيبةٌ غامضةٌ لازم الحزن والهزيمة عينيها.. لعلها كانت أسعد في الذهاب من الرجوع.

سألها عما بها. لم تشأ أن تكدر فرحته فقالت: «لا شيء».

ثم سألته: «بابا، هو ربنا اللي بيشفي ولا سيدنا المسيح؟»

فقال: «ربنا طبعًا يا بنتي، بس أنا لو قالولي إن شفاكِ عند إبليس هاروح له».

استأنف وقد غلبته دموعه: «أستغفر الله العظيم.. سامحني يا رب».

إرث عائلي قديم مترسب في قلبه عن غضب الأسياد. زوجته المرحومة الحاجة أم هاشم كانت ترفل في ثياب بيضاء وتبدو كالملائكة وهي «تفقر» في الزار خلف أبي الغيط على نقر الدفوف الصاخب حتى يسقطها الإعياء، زاز بعد زارٍ لترضية الأسياد حتى رزقها الله بخلفة الذكور.

بعد أسبوع، رددت ماجدة الصراخ أكثر من ذي قبل. حاولت أن تلقي بنفسها من النافذة. شيخان وقسيسان والأمور كما هي، تهدأ لأيام ثم تعود أسوأ مما كانت فيضربونها بقسوة بكل ما استطاعوا من قوة، وكاد يقضي عاطف عليها خنقًا لولا أنها رددت: «أنا ماجدة أختك.. أنا ماجدة».

اتفقوا جميعًا على شيء واحد، الهروب من «عضمة». لم يقربوه بتاتًا، ينظر الواحد منهم في عينيه قليلًا ثم يردد نفس الجملة: «اللي عليه خطير».

الشخص الوحيد الذي كان «عضمة» يطمئن له ويلين في يديه ويذهب معه حيث شاء هو سوكة.. فسّر البعض ذلك بأن «الواد طالع لخاله عوف الليبي.. مخاوي» وفسر البعض ذلك بصداقتهما القديمة، لكن الحاج مصطفى والد «عضمة» لم يكن يعنيه أن يبحث عن تفسير، يعرف أن ابنه يحبه، كلما أتته «النوبة» كان سوكة أول من يلجأ إليه فيستنيم «عضمة» لوجوده ويهدأ في حضنه حتى ينام.

جز شكل

يكره أباه منذ وعي، لم ينس أن مرارة الحبس الأولى كانت على يديه. أخذه بيديه إلى قسم الشرطة وبكى مدعيًا أنه يسرقه ويضربه. اجتمع الرجال عليه، كلهم منحازون ضد عائل أبيه. أشدهم سطوةً وقبضًا عليه كان صفوت ابن العمدة، شبه كث عريض، وعضلاته حاسمة، لطمه وركله في الطريق، أسقطته على الأرض صفعة على قفاه. رجل واحد فقط من كل أهل الحارة دافع عنه، لكن بكل وهن، عم جرجس بائع العصير، لم يزد عن طلبه أن يتركوه لديه، «أما تراهم أيها المقدس يعصرونني كلبشة القصب.. لماذا وقوفك صامتًا؟»

أما أغلبهم فقد كانوا عليه شهودًا.. بكل قوة.. خضعوا جميعًا لصرخة الأب: «الحقوني، سلامة عاوز يضربني، الحقوني».

لم تدهشه قسوة اجتماعهم عليه واقتياده بهذه الهمة العالية إلى القسم، لكن ما أذهله هو قدرة أبيه على الادعاء، ظن أنه سيرحمه في النهاية، كان مطمئنًا للخدعة فظنوه مستهترًا، ظل مسددًا لأبيه تلك النظرة الحائرة بين التحدي والتراخي والرجاء والعنفوان، استفزت نظرته الضابط أيضًا: «مش قادر عليه يا ابني، قلت أجيبه للحكومة تربيه.. ربيه انت يا ابني».

قال للضابط «يا ابني»، أما هو فكان المجرم.. تفنن الضابط المتعاطف مع الأب المسكين في إرهاب الصبي ثم أدخله الزنزانة، استقر به الأمر في مكان رهيب.. ذهبوا جميعًا وبات أسبوعًا كاملًا فيها.

نظرة سيد الزنزانة «عوفية» قديمة. عرفها منذ الهمسة الأولى، سافرة وحاسمة، ليست الهيئة نفسها ولا الطريقة نفسها لكنها النظرة نفسها، لا تدعي الحنان هذه المرة، لكنه التهديد والصدمة. اعتاد المحبوسون الخضوع له. قابلها هو بكل تحدٍ.. ارتكب جريمته الأولى.. فقأ عين عوف الليبي الجديد.

ثلاث سنوات قضاها في الإصلاحية.. تعلم الصمت والحذر والنهش والافتراس.. زُرِيَ في قاعٍ مظلم بلا رفقة. لم يأنس لصاحب ولم يأنس صاحبٌ له، قلّما تكلم. استيأس الجميع من رفقته. تطورت أدوات لعبته القديمة التي تلقن تعاليمها من الصبيان الأكبر في الحارة حين كان صغيرًا «جز شكل»..

يقف أضعفهم فيتصيد أي مارٍ بالطريق فيذهب «ليشنكله» أو يشتمه، ليسترهبه أو يستفزه، يدفعه للعراك بأي شكل: بعرقلة القدم، خبطة مواجهة، بصقة.. أي شيء، المهم أن يشتبكا فيطلع الرفاق من مخابئهم كخفافيش الظلام لينقضوا على هذا العابر فيأذونه بأي شكل.

ولعبة أخرى هي حرب الحارات، حارة تغير على حارة فتنتصر إحدى الحارات ويعود فرسانها بالغنائم: فِزد الكاوتش والبلي والكازوز ونوى المشمش، والإغارة ليلًا على سيارات الزفاف المزينة بالبالونات وخطوط الزينة. أكفأهم من يفوز بأكبر عدد ويجري متفاديًا سيارات الطريق.. أما المتعلمون في الشارع فقد علموه جملتين يقولهما لكل سائح يمر ذاهبًا لزيارة القلعة: «جيف ماني.. وات كلر كلوت ماذر».

قلبٌ لم يملأه غير فتات الطين وحصى الأرض والأذى..

«نور النهار وضجيج الحياة لم يجازفا بزيارة هذا القبر»(2).

البهجة الوحيدة التي كانت تزور صباه في الأعياد كانت «الأراجوز».. مسرح يُنصب وأحداث تدور. تسلل بإخوته كثيرًا كي يراه، لم يكن يدفع «التعريفة» ثمن التذكرة.. دائمًا تصحبه منى.

تطل من على المسرح دُمى لرجلين وامرأة، يحركهم الساحر بيديه من أسفل.. يكتشف الذكر دائمًا خيانة الأنثى قبل النهاية فيضربها بعصاه بكل قسوة. بجوار المسرح كان الطبال، يقرع طبلته برتابة.. في عينيه رأى خاله.. يدّعي ملاطفة العيال، لكنه كلبي العينين.. وحده كان يعرف هذه النظرة، سندها غير مرة لها، سند له نظرةً أشد مقتًا حين أحس بإدراكه، قذفه بحجر في رأسه، تفجرت دماؤه فوق الطبلة.. أخذ منى وانطلق عدوًا.

أكثر ما افتقده بين جدران الإصلاحية لم يكن الحرية، بل المطر، صوت التقاء الماء بالأرض في المساء، خيوط من ماء في الليل تخزُ على رأسه وبدنه.. يدور ويدور ويجري، تغوص قدماه في الوحل ويسمع لهطول الأمطار نغمًا يخفق له قلبه.. يتذكر وجه منى المبتل، خصلات شعرها السمراء، وجهها الحزين وقد نظفته زخات المطر.. عين كان فيها ما يزعمون عن روعة الملائكة.

عندما خرج احتضنه أبوه على باب الإصلاحية.. استكمل نفس النظرة حين رآه، ظل السؤال معلقًا في عينيه ثلاث سنوات وقدم حمودة لحظة استقباله إجابة خجلى: «شفت؟ إنت بقيت راجل، بقيت خشن.. أنا كان قصدي يوم واحد».

خرج من الإصلاحية على غير ما دخل، فتى غامضًا غاضبًا قد طرق أبواب الرجولة، طويلًا نحيلًا بادي العضل لم تخل ملامحه السمراء من وسامة، لكن نفسه مرتابة ومريبة مخيفة وخائفة، أبى الاندماج وعشق الوحدة، أما الثقة بالناس فقد ماتت قبل أن يدخل الإصلاحية بكثير.

البيت كما هو، والحارة كما هي، لكن العيون شديدة الحذر.. اللص عاد.. يصله اللقب وهم لا ينطقونه.. الحبيس عاد.. كهرمان سيحرق وسيفتك وسيهتك، سلام أيديهم يحمل الشك والريبة، أحضانهم تخلو من الضم الحقيقي. عيونهم هاربة.. هذا قيدني وهذا دفعني، وهذا ارتاح من وجودي ثلاث سنوات. الحقد في كل العيون وإن أبدت سلامًا.. ليس في هذا المكان حبيب، لشد ما تاق للنوم في مقام الفلواتي.

«ما يسقط من الروح يتعذر جمعه ويترك -رغم ذلك- الكثير من الندب»(3).

أصبح شيئًا آخر لا يعرفه هو نفسه، ظنينًا لا يعرف الاطمئنان، لا شيء يتقيه، بئر بفضاء غائرة القاع.. البطش وسيلة مثلى لنيل كل شيء. تروي أساطير المستذئبين أن الإنسان يتحول إلى ذئب إذا ذاق لحم إنسان آخر ممتزجًا بلحم القرابين، أكلته المساجين في الإصلاحية وأكلهم.. كلهم كانوا قرابين إله ظالم غشوم يرتوي من وحدة البشر.

قال عم جرجس العصار لحمودة الأفيونجي: «أنت من جعل منه وحشًا».

لم تزره أمه نجية مرةً واحدةً بطعام أو شراب، كان يعرف حجة غيابها ويسمع ذريعة قسوتها رغم البعد والأسوار: «هو لاقي ياكل ويشرب وينام، الدور والباقي ع اللي بره».

تعزف هناك الجوع الخرافي، لا تدركه الكلمات ولا يعرفه إلا من عاناه.. متعدد بعدد من مر به وهو واحد.. هوة سحيقة في البطن تمضغ الفراغ، يوشك به صاحبه أن يأكل الزلط وتموت به الكرامة وعزائم الرفض، جوع يقتل الضمير ويقتل المروءة ويستبيح الحل والحرام.. خواء لا نور بداخله، كل المخلوقات طعمة لنصاله، جوع يهزأ بالعتاب والخوف والمقدس، ويتوعد كل ما يمر في الطريق. وأسلمه ذلك الجوع إلى جوع آخر أشد بعدًا وإيغالًا، أسطوري كالفلواتي، خرج به إلى طور الحيوان والأوغاد، جعله يلعق الجدران، يشتهيها ويكاد يخرقها، اشتعل باشتعال جسده، نار تتلظى داخله ولا تجد لها متنفسًا في ذلك الحبس والفراغ، جوع جعله كالمارد الذي ظل حبيس القمقم قرونًا بعد قرون لا ينقذه أحد فأقسم أن يفتك بمن ينقذه، وكانت هي.

خرج المارد من القمقم فوجدها.. أكلتها ناره أول ما أكلت ثم ماتت بغير أن تمنحه السماح.. بالتهديد أو بالاعتياد. استسلامها مثل صدها لم يكن مجديًا.. غضبه لم يكن ليُحتمل، ولم تعد هي تفعل في الحياة إلا ما يرضي غيرها.. قادته شهوة مجنونة مرةً ورغبة في كسر جدار الغلط والممنوع مرات. كانت تشعر بالموت، ضربها بقسوة، توقفت عن الرفض والقبول.. لم تكن تشعر أنها كائن يمكنه أن يرفض أو يختار. تردت قبل خروجه بقليل، دربتها الأم على الانصياع دومًا، وقديما دربها الخال أن تتجنب أن تصير بُرضا، ثم أرتها الحياة عجائب الذل

مدفوع الثمن من كل قطرة في روحها.

متعةٌ مُرّةُ المذاق لكنها ذات لذة، مقيتة كطعم العلقم.. شهية بطعم الدفء القديم، غائرة في زمن مضى ونظرة عين محمومةٍ لجسد ضخم على كرسي خفي يزوم ثم يطير في السحاب، يزومان نفس الزومة عند ارتقاء القمة، ويذهبان إلى ذاك الزمان، ويفقس بيض الحمام ثم يطير في المدى، وفجأةً. يحطّان فوق أرض قاحلة، يلفظها وتلفظه في النهاية بكل مقت، وجهان ممتقعان هاربان.

- لماذا لم ترفضي؟

- لماذا لم تقاوم؟

حاول كثيرًا أن يضع حدًا لهذا النزق المُر لكنه دائمًا، كان يستسلم لأول طرقات رغبته.. خرق أسوار العيبِ والحرام. يرهقه حزنها لكنه لا يستجلب لها رحمته. هزيمتها ككومة بلا مشاعر لا تمنع استمراءه، ألم نكن معًا هناك؟ ساقطين تحت قدمي عوف الليبي، بعد السقوط الأول، وبعد الوعي بما كان، أصبحت كل أعذار العفاف ادعاء. لم تعد تطيق البيت. عندما يتشظى القلب، لا سبيل لجمع نبضاته مرةً أخرى، تنظر إليه نظرة يكسوها السقم، يشعر بالخزي أيضًا، تغادر كعنزة ذاقت الذبح ولم تزل حيةً.

بضياعها، أحس أنه فقد كل شيء، ليته يموت بنفس القسوة. لماذا لم يختره الموت؟

لا يدري، وقد أوشكت ألف لماذا أن تقتله، لماذا هي وليس سواها؟ لماذا لم يستطع أن يرتدع عنها؟ وكيف احتمل تلك النظرة الكابية الحزينة في عينيها كلما فرغ منها؟ لماذا لم يستطع الله أن يشبعه بغيرها ولماذا منحه كل هذا الرضا بها؟ ولماذا ماتت هي وتركته ينوء بالسر وحده، تراه كل العيون وتشم رائحته النتنة وتستقذره الأماكن؟ ويهمس صوت خافت بداخله متمنيًا أن يرحمها الإله.. إذا كان موجودًا.

وأكثر من لماذا أخرى سألها لنفسه مرهقًا في طريق العودة، عاتب القدر وجزَّ على أسنانه في العتاب.. لماذا لم يكن ابنًا لعم عبده الخردواتي، ذلك الجار الفريد الساكن بالطابق الأعلى؟

منذ ماتت زوجته وهو لأبنائه الأب والأم معًا.. يطبخ ويكنس ويدلل ويعلم.. عندما شاهدهم بعد خروجه من السجن امتلأ قلبه لهم بالإكبار والحقد الأسود.. شكلهم المحترم، ملابسهم، أناقتهم وأسلوب حديثهم، طريقة مشيهم، تدرجهم في مسالك التعليم، حتى صمتهم له مذاق.. أثر العلام بادٍ عليهم.. هل يمكن أن يحبس هؤلاء أبوهم؟ هل كوى باطن أقدامهم يومًا بسكين محمى؟ أذاقوا يومًا لسعة خرطوم الحمام الأحمر؟ هل تحول مسكنهم يومًا لغرزة يتناوب فيها الأغراب الحشيش والنساء؟ هل قطعت أسنانهم قطع المزاج

ورضوها فوق رؤوس المعسل؟

***

لا أحد يفهم كيف تتلاقى الخطوط في الحياة ولا أحد يستطيع تفسير عجائبها، ما الذي وضع هذا الرجل في طريق منى أو من الذي وضعها في طريقه؟ المسافة والسنين بينهما كافية لاستحالة التواصل. الدور الأرضي المنخفض والسطح! كيف واتتها الجرأة أن تصعد حيث هذا اللهب الغشوم والقلب الصلد؟ أألقتها بذاك الطابق الأعلى حاجتها إليه أم حاجة نجية؟ تقطن في جحر بيدروم البيت الثاني وهو بأعلى سطح بالحارة في البيت الثالث. أألقاها في هذا العبث ما كانت تلقاه منه بعد خروجه من السجن؟ هل صارت بالفعل طعمة لكل جائع؟ قنيصة لكل ضار وأليف..

في عصر يوم حار بعد خروجه من السجن بعام، كان يرقد خاملًا جائفا يستجدي الوقت أن يمر حين اشتبه عليه صوت صراخ منى فخرج يستجلي الأمر، وجدها تخرج من بيت الساعاتي محمرة الوجه شعثاء الشعر متهدلة الملابس، بالسطح كان صفوت يصرخ، مشتعلا كاللهب، يسحب ريقه بين شتمة بالعهر وأخرى بالقذارة. لم يسأل عما بها، لم يستوقفها ليستوضح الأمر.

عدا نحو عرين الوحش الذي يتحاشاه الجميع. في ثانية واحدة كان عنده، قطع السلالم كلها وثبًا. تلاقيا في باحة السطح الواسعة كأقبح مخلوقين في الحارة وبينهما من العمر ما يزيد عن الخمسة والعشرين عامًا وفي الجسم ما بين وحيد القرن والغزال، تنازعا قرب السماء.. شيطانان تلاقيا قرب السحب، كأنما ليعلما من سيخترق الجحيم أولًا ومن آخرًا.

التقاه سلامة بوثبة دافع بكلتا قدميه، لو لم يصادفها صدر صفوت لوثب سلامة من السطح. سقطا معًا لكن سلامة كان أسرع انتصابًا وغضبًا، ركله بقدمه مرة أخرى في وجهه فكسر أنفه من لحظته، ركلة أخرى أصابت الهدف، استسلم صفوت لجرعة حارة كلها انتقام. أذهلته جرأة المواجهة في البداية، ثم تفوق هذا الفتى المتوحش بضراوة النصر.. كلما تلاشاه لحقه.. كالكلب المسعور، كلما اتقاه في ركن التقطه.

أضمر الحنق عليه منذ قاده مقيدًا مصفوعًا بيده الحديدية للضابط. منى.. الجدارة التي انداحت أمام عينيها، رجولته التي مزقها الخال قبل أن تنشأ.. «منى، ذبيحتي وهواني»، فرصة أتاحتها الحياة للدفاع عنها؛ لإثبات الجدارة أمامها.. الجدارة التي انداحت أمام عينيها.

رجولته التي مزقها الخال قبل أن تنشأ.. «منى، الشاهدة على الذبح القديم.. ومذبوحتي

التي تقطع شراييني.. فليعلم الطائز الحائز أن أحدًا أحبه.

خرج يعدو من البيت متسقطًا على السلالم ممزق الملامح، لم يصدق كل من رآه أن هذا صفوت، القوة الغاشمة.. ومن فوق السطح كان الغزال الصغير قد تحول إلى فهد وحشي يرقب فريسته الهاربة تتعثر في أوهى أتربة الحارة...

واختفى صفوت من الحارة مكللًا بأحقاد الناس ولعناتهم.. لكن ليس إلى الأبد.

---

(2) قصة المصيف (إميل زولا).

(3) إيناس شلول (أديبة أردنية).

العشة

لم يعد طريق إبراهيم المكوجي إلى حورية سهلًا كذي قبل...

عاد علي النجار من العراق خائبًا كسيرًا مفلسًا، رغم أنه ذهب موفور الصحة كالحصان. سبعة أعوام في الغربة تبدلت خلالها أحوال كثيرة: سقط عنه الحكم الغيابي في جرائم سرقة بالإكراه، لكنه سقط هناك في براثن جريمة أشد وعقاب أخزى، انتهك حرمة بيت عراقي في أثناء حرب الثمانية أعوام مع إيران ولما عاد المقاتل وجد له أبناء تخطى أحدهم أربع سنوات.

لم يقتله العراقي لكنه أخصاه، جرده من كل ماله وممتلكاته، وأجبر الزوجة على الانتحار ثم صار هو نفسه أفيونجي آخر في العراق. صارت عائلة الأفيونجي في العراق تماثل عائلة الأفيونجي في مصر. الفارق الوحيد أن العراقي يخزن القات اليمني أيضًا.

ربض علي النجار بالبيت فارغًا مهزولًا شليل النطق والحركة. أحرجته مواجهتها في الليلة الأولى، قص عليها قصة الحرب والموت والدمار الذي لحق بكل شيء في العراق. استمعت إليه باهتمام، شبكت يديها على صدرها مستأنية، صبرت على قصته حتى استوفاها، ادعت التثاؤب لتمنحه المسافة. كلماته أشبه بالهمهمة، لا تخرج كاملة.

قضى معظم النهار التالي في قرار، بينهما شيء معلق. في الليلة الثانية ادعى انشغاله بالشوق إلى روحها، لا جسدها، بكى بين يديها بكاءً هزّا يقرب العويل. كانت تدرك أنه لم يعد طبيعيًا.. وتشعر، مع اختلاف سحنته ولكنته وطريقة مشيه، أنه لم يعد علي النجار «بتاع زمان»، الفحل الذي كان يرضيها حتى الجفاف والضجر والذي كان يحمي مبرده ومنشاره بماء النار ويدق المسمار الصلب الشديد بالشاكوش، فتين فيسكن في الخشب، ويسكن الخشب.

أخبرها أبوها المؤذن أن الجمال لنخ وأن الجمال ستكون يومًا واهنة كقطن منفوش. قالت بعد أن أنهى قصته «طب قوم والنبي يا خويا بيت الفراخ عشان مش قادره. ظهري بيوجعني وخايفه استهوى»

أصبح مسئولًا منذ هذه الليلة عن كل ما يتعلق بالفراخ. بدءًا من لوطنة القش ووقوقة الصباح ونثر الذرة العويجة والمدشوشة حتى مبيتهم في العشة الخشبية أول الليل. تلك العشة التي هدمها قديمًا بيديه فأعاد بناءها بين البيت وضريح الفلواتي. فواصل الأخشاب كانت بحاجة إلى التثبيت وبعض الأخشاب ذائبة والمسامير صدئة. اجتهد في ترميم العشة

قضى وقتًا طويلًا محنيًا داخل العشة غير عابئ بروث الأرض ولا قذارة الزائحة، كان مُجِدًا ليثبت بعض الفائدة من وجوده، فاستعملته في شراء كل حوائج البيت، وأحيانًا في الطبخ والتنظيف.. كان يمارس تلك الأعمال بحماسة بالغة.. يشعر بحاجة لإظهار أهمية ما.. إلا الملابس، كانت تعشق الغسيل بصفة خاصة وتذهب هي بها إلى إبراهيم المكوجي...

وقفت أمامه وهو يرفع المكواة من فوق مصطلى المكواة.. تبادلا نظرةً جائعةً.. بلْ إصبعه ثم جسّ سطح المكواة ليتأكد من سخونتها، سحب ريقه بفحيح معبرًا عن اللسعة ثم وضع المكواة على القماش المندى فحال بينهما البخار وسمعت هسيس المكواة يضطرم..

قال لها: «وبعدين يا حورية.. المكواه سخنت والهدوم هتشيط».

قالت بعد أن هدأ البخار: «اتقل.. متبقاش خفيف».

وتلبستها الجن في الليل.

***

تهلّل وجه إبراهيم المكوجي وهو ذاهب إلى عم عبده يزف إليه البشرى.

- عندي ليك يا عم عبده هديه فيها الشفا، وهتدعيلي.. واحد اسمه الشيخ صمويل سره باتع.

- عارفه.. ابن عمك جرجس بتاع العصير، بس يابني.. هو شيخ ولا صمويل؟

- سيبك م الشكليات.. خليه بس يشوف ماجدة وسيب الباقي على ربنا.

وصل صمويل وإبراهيم بصحبة عم عبده المكلوم بابنته في غيبة رضوان وعاطف، لم ينس أن يحضر معه عصًا غليظةً وبعض البخور وزجاجةً مليئةً بعصير قصب مثلج.

أحضرا ماجدة. لم يعد أحد يعبأ باعتراضاتها وصار الوهن والذهول سمةً دائمةً في عينيها.

حدثها صمويل قليلًا فلم يتغير مظهرها ولا انطواؤها ولا حركت ساكنًا، كان معنى جديدٌ ورجاء في عينيها حاضرًا هذه المرة: «لا تبدأ بالله عليك لعبة تمتعك وتنهكني».

طلب إبراهيم المكوجي من أبيها أن يخرج معه وسدد نظرةً لصمويل مفادها أن يفعل ما اتفقا عليه. سقاه كوب عصير وعرض كوبًا على ماجدة فأبت. أصرّ عليها أبوها قبل أن يخرج فشربته مرغمةً. أخبره صمويل أن هذا الكوب مشمول ببركة القديسين ودعاء الشيوخ وطلاسم الأدواء.

لم يتفير صوت ماجدة ولم تعبأ عيناها بالمعالج الجديد، ظلت واهنةً على كرسيها صامتةً كمن لا ينتظر سوى العبث، أرخت يدها بكوب العصير منتظرةً بدء العذاب والهرج.. رجت أباها أن ينتظر، لكنه خرج.. ثم علا صراخها من أثر الضرب بالعصا.. حاول العبث بجسدها لكنها سددت من قلب الوهن نظرةً مرعبةً ردته. وصل لعم عبده الصوت، أراد أن يدخل لنجدتها فأوعز إليه إبراهيم متظاهرًا بالألم أن ينتظر.

كان صوت ارتطام السوط بالجسد واضحًا، وأنّات الفتاة واضحةً.. لكن حيرة الأب ألجمته بالأرض. كان أشد ألمًا رغم اضطرابها، علل نفسه بضرورة الألم للوصول إلى شفاء. لم ينجدها من قسوة الضرب غير وصول أخيها عاطف فتوقف الشيخ صمويل عن الضرب قائلًا بلهجة حائرة: «جلسه واحدة مش كفايه.. هات ربع كيلو شيح وكيلو ملح تستحمى بيهم في العشا، ميكونش ساعة العصاري وتلم المياه وترشها تاني يوم في الشقه بعيد عن الحمام، خلّلي بالك بعيد عن الحمام. الحمام مكان نجس. وأنا هاجيب لها معايا عصير مقري عليه».

وخرج الشيخ صمويل وإبراهيم متباطئين في الحارة، كان من المفترض أن يتجها لآخرها جهة الخروج لكنهما اتجها عكس ذلك.

انتابت حالةٌ هياج حورية في لحظة خروجهما، وأخذت تتلوى وتهذي فاستنجد بهما علي العراقي، «كما أسماه الناس». خرج من باب العشة الضيق بهيكله المتداعي.. طالبهما، كما أوصته، بمحاولة إخراج الأرواح الشريرة من جسدها فوافق الشيخ بعد إلحاح ودخل عليها ومعه إبراهيم بينما انتظر زوجها علي بالخارج لئلا تتلبسه العفاريت الخارجة منها كما أنبأه شيخ صمويل الذي لم يدخل بعصاته الخشبية، ولم ينس أن يُخرج من شنطته زجاجة عصير أخرى لعلي.. رغم اسوداد العصير لطول المدة التي قضاها بعد عصره فقد تقبله علي وعلى وجهه ابتسامة خرقاء.

كانت الحارة في سكون ما بين العصر والمغرب، وكانت الفراخ قد سكنت، حتى الديوك دائمة النقار والصياح لم تعد تصيح... بركت فاردةً أجنحتها وتدلت طبقة بيضاء فغطت الجفن في وَسَن... وكانت الممسوسة تتلوى على سريرها في قميص أرجواني قصير عار وقد تهدل شعرها الناعم... جهزت للعلاج شريطًا موسيقيًا راقصًا... ولم يسمع علي النجار الواقف على الباب صراخًا ولا أصواتًا خشنةً، بل أنينًا غامضًا متصاعدًا تئنه ثلاثة عفاريت، خلفهم موسيقا صاخبة.

صوتٌ آخر سمعه يهذي بالخارج، بعيدًا عن العشّة وقريبًا من مقام الفلواتي، شبح زري الهيئة، متسخ الملابس يغطيه الطين، ملبّد الشعر من طين وقذر، مرسل اللحية كجدائل

فمه، يغني أغنية عبد المطلب: «اعمل معروف يابو عود ملفوف ياللي خدودك بنور مشطوف».

اقترب من الشبح.. يعرفه.. هذا العملاق ليس غريبًا، طالبه الشبح الأخرق بالغناء معه فقال: «حبك على فين». أراد منه أن يجاريه فردد معه «على فين.. هيوديني».

إنه هو، ليس غيره.. ابن العمدة.. صفوت المفتري.

***

قرب صلاة العشاء، خرج إبراهيم وصمويل فوجداهما جالسين على تلك الحالة، جمعهما أنس وصفو.. اقتربا، شاركاهما الغناء.. ثم تحول المشهد إلى سيرك غنائي..

رددوا جميعًا أغنية عبد المطلب: «اعمل معروف يابو عود ملفوف ياللي خدودك بنور مشطوف، حبك على فين؟ على فين.. هيوديني».

أطلّت حورية من الشباك بوجه ريان تسطو على ملامحه خصلات شعرها الذهبية. رنّت ضحكتها اللاهية تقرع المكان فتملأ الموقف غموضًا وسعادةً وألفةً. تعرفت صفوت بغير جهد.. لم يدهشها مظهره.. الذي أدهشها أن عامين فقط قد مزا بين اختفائه وعودته على هذه الشاكلة، وأن زوجها الذي صار اسمه علي العراقي يقف مرةً أخرى بجوار صفوت الذي كان اسمه المفتري.. والذي زاد ضحكها صدخا هو تلك الألفة التي عادت سريعًا بينهما..

جبابرة الأمس.. كلاهما لعبة بين يدي المكوجي وصمويل، أطربها تلاعب إبراهيم بهما.. بارع في ملاعبة عفاريت الإنس كبراعته منذ قليل في ملاعبة عفاريت الجن.. توجت ضحكتها الكبيرة الموقف بالعنوان الصاخب وهي تردد: «اتلم المتعوس على خايب الرجا».

سرّ الدين الفلواتي

أرسله الله في الوقت المناسب.. لم يتقاض أجرًا ولم يلجأ لضرب. احتواها بحنان. ذهب بها إلى الأطباء النفسيين وقرأ عليها ما تيسر. شخّص الطبيب مرضها بأنه «اضطراب ثنائي القطبية».

شرح لهم تفاصيله كما بسطها له الطبيب.. اضطراب يجعل المريض متعدد الشخصيات يفعل كل ما لا يخطر على البال مهما كان تناقض الأفعال، ليس له علاج شامل حتى الآن مع الأسف، لكن لبعض الأقراص القدرة على تهدئة المريض وتقييده بدرجة ما بالالتزام الانفعالي.. لم ينكر أسرار الروح والغيب رغم ذلك.

«التفسير الحقيقي لما يحدث ليس موجودًا، لكن أكيد الرحمة تصلح أشياءً كثيرة».

شرح لهم خدعة الفلاش الفضيء:

«تستطيع أن تشتريه بسهولة من أي محل كاميرات».

سطعت ابتسامته الصافية وهو يشرح لهم أن الرائحة النتنة لم تكن من موت العفريت، لكنها نوعٌ من البخور والعطارة يعرفه الدجالون... سأله عم عبده عن السحر فأجابه بغير تفلسف: «إن السحر حق ولكنه ضعيف».

واستشهد بآيتي: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، و ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

لم يكن يعرف شيئًا عن الشيخ الفلواتي صاحب الحارة، قال إنه لم يسمع به أساسًا في السابقين والتابعين ولا يعرف بهذا الاسم سوى عالم جليل معاصر اسمه «المفضل الفلواتي»، كان يُعلّم الناس الفقه والحديث بأرض فاس بالمغرب الحبيب، من المستحيل أن يكون هو المقصود؛ لأن الحارة أقدم منه بكثير.. وقبيلة شديدة العراقة والقدم في العرب اسمها فلاتة، لكنها أيضًا بعيدة جدًا في الزمان والمكان، فسّر لهم الاسم تفسيرًا لغويًا بأنه ربما نُسب إلى الآية ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، حيث لن ينجو متأخرو التوبة من العذاب يوم القيامة، وهذا تفسير عسير يلوي عنقَ الكلمات ليًا. ثم ابتسم نفس الابتسامة الصافية وهو يقول «وربما كان عازفًا لآلة الفلوت».

لم يسفر العلاج عن كبير نتائج غير أنها هدأت. يزداد هدوؤها كلما رأته. ترددت معه إلى المساجد وأصبح يزورها بعد كل صلاة عشاء. وأصبحا ينتظران ميعاد اللقاء.

استمع لها وشعر بألمها، لمست نفسه نفسها التلقائية العذبة، راقت معه ضحكتها الناعمة وقلبها الفض البريء. أعلن في لحظة مقدسة رغبته أن يلازمها إلى الأبد، رأى فيها ما لم يره

في سواها.

راقها ذاك الشعور الذي يسكنها ويفعم روحها حين تراه، لم يكن دعيًا أنيق الصوت والكلمات كذلك الزائف الذي نثر ريش البط حولها، لم تكن على وجهه تلك الدُغة المصطنعة على وجه الأب مكاريوس وسيطرته التي يبسطها على مريديه مأخوذين بسطوة المكان، بل كان شيئًا آخر من لحم ودم ونُبل. صمته أيضًا يمنحها الراحة.. لا تذكر كلماته حين تحاول أن تسترجعها في غيابه.. لكنها تسترجع شعورها بالراحة والسكينة معه.

طلب يدها من رضوان. أدهشه الطلب وعرضه على أبيه ففضب غضبًا شديدًا قلّما انتابه.. كظمه وقال لابنه: «قل له ألا يعاود هذا الطلب».

لولا أنه وجد تقدمًا في حالة ابنته لاستغنى عن خدماته في اللقاء التالي.

***

كان أخشى ما يخشاه أن يذهبوا إلى ذلك الظن.. للأمر وجهٌ آخر، لماذا لم يتطرقوا إليه؟

عالج ترددهم بنفس الحكمة التي عالجها بها، ناقش الأمر بتعقل وروية، أبدى أسبابًا صادقةً. ذهب إلى رضوان مرةً أخرى في عمله بالمدرسة حيث يعمل مدرسًا للغة العربية وكلّم عاطف، أقسم لهم أن ماجدة هي الفتاة التي كان يبحث عنها عمره، وأن الله قد شرح صدره منذ رآها، استغل رضوان تقدم حالتها فعرض الأمر مرةً أخرى على أبيه، وصل صوته لأذن الشيخ واضحًا..

«ابنتنا ليست في حال يسمح لها بالزواج، أيظن أنا قد عيينا بابنتنا؟ طلبنا لديه العلاج ولم نطلب أن يتقرب إلى الله بها، قل له إن ابنتنا لا تفتقد الرحمة وأن الصدقة لا تجوز على أمثالنا».

كعادته، قلما أحجم عما رآه صحيحًا، توجّه نحوه مباشرةً وقال: «أنا كمان عاوز أكون ابنك يا عم عبده».

انهارت صلابة الرجل في لحظة. قال له في جلسة خاصة بينهما: «اوعى يا نبيل يا ابني تفكر إن بنتنا معيوبة، دي الجوهرة اللي ف البيت كله».

رد عليه بقوله: «جوهرتك في عيوني يا حاج عبده».

ساد صمت شجي أتبعته قبلات وأحضان ودموع، تذكرت الحارة عظمة عائلة اللورد مراد.

زُفّت إليه في شقته الجميلة القريبة واحتفى بها احتفاء أمير بأميرته. لم يعد يراها أحدٌ إلا

في أسلم حالاتها، يحدد لهم مواعيد زيارتها فيرونها في أبهى صورة، لم تشف لكنها لم تعد تتكشف عاريةً أمام الناس ولم يعد يمسسها خرطوم ولا عصا.

عالجها بالقرآن حينًا وبالبهجة حينًا وبقرص يومي كتبه الطبيب وأمر أن تستمر عليه إلى الأبد، أبعدها عن كل ما يمكن أن يكدرها. ظهرت ملامحها الحقيقية ناعمةً كالصباح، صافيةً كالأطفال، مشرقة الضحكة كالوليد.. إذا ضحكت اهتز جسمها كله وملأت المكان سعادةً.. ورأى أبوها وشقيقاها ابتسامتها التي غابت عنهم لسنوات.. ثم رزقه الله منها ولذا أسماه عبد الله...

أما «عضمة»، فلم يدر أحدٌ لماذا كان يغشى عليه كلما مرّ بجواره الشيخ نبيل.

***

خرج الشيخ صمويل وإبراهيم المكوجي من عند علي العراقي فقابلهما الأسطى مصطفى وهو خارج من صلاة الفجر. خشيا افتضاح أمرهما. ناداهما بصوت عال.. عندما اقترب تعلقت عيناه بهما كالمستغيث، رجاهما أن يأتيا ليعالجا ابنه «عضمة».

نائم منذ سبعة أيام، يهذي بكلام غير مفهوم، يُخدّث من لا نرى، عاف الطعام والشراب ونفر من كل الخلائق. لم يعد يعرف سوكة، نظرته غامضة ومسافرة ومرعبة، تنتابه نوبات صرع ونوبات اكتئاب ونوبات ضحك ولا ينام الليل إلا لمامًا، إذا نام يقرض أنيابه كذئب ويصرخ ويبكي ويضحك. يقوم خائفًا مما لا ندري. يصرخ أن أشياءً تتحرك بداخله، مرهق طوال النهار لا يتحرك من موضعه... يخلع ملابسه كلها ويداعب عورته عاريًا أمام والده، أدمى صوت عم مصطفى بكاءً وحزنًا وهو يستنجد بهما: «ابني خلاص بقى مجنون رسمي، ابني ضاع، ابني قطع المصحف اللي في البيت».

كان مرتعبًا مما رآه بنفسه في الليلة السابقة:

انقطع النور فأوقد الأسطى مصطفى شمعةً ظلت مشتعلةً طوال الليل ولم ينقص منها شيء. ولما عاد النور ذهب الرجل لإطفائها. لم يُفِذ نفخه عشرات المرات شيئًا، استعان «بعصا الغلية» المبللة ليطفئها فاشتعلت العصا وكادت النيران تصل إلى كمه وتلتهمه، فتح «عضمة» عينيه وسددهما نحو النار فانطفأت.

- واحنا هنعالجه ازاي يا عم مصطفى؟

ارتبك إبراهيم واستدرك قائلًا:

- الشيخ صمويل يقصد إن اللي عليه خطير، كلهم قالوا كده.

- يعني انتوا اللي خليتوا عفريت حورية يرقص ويغني ع المزيكا مش عايزين تعالجوا ابني؟

لم يجدا مخرجًا.. خافا افتضاح أمرهما فذهبا معه إلى البيت. تعللا بالتوقف قليلًا للتبرك بضريح سر الدين الفلواتي. همس إبراهيم في أذن صمويل:

- هنروح ازاي واحنا نجسين؟

- يا عم.. كله بيعدي.. ربك بيفوت كتير.

كانت الشمس على وشك الإشراق. نور الغرفة مغلق والبيت في ظلام غامض. شقة ضيقة في الدور الأرضي، خانقة الحرارة راكدة. تعترا في بعض الأخشاب الملقاة والقماش المحترق، جدرانها بلا لون، تكاد تكون خالية من الأثاث. كل النوافذ مغلقة. تعطنت الرائحة فيها كقبرٍ لم يُفتح منذ عام.

في أحد الأركان، كان «عضمة» جالسًا على الأرض في إعياء وقد ثنى ركبتيه أمامه وتهدلت ذراعاه، مرتديًا «تيشيرت» رماديًا مبلل الصدر والرقبة والرأس. كان شعره الأشعث مبللًا أيضًا وقد نما بطريقة قذرة. من الواضح أن أباه الحاج مصطفى قد حاول إفاقته عن طريق سكب الماء فوق رأسه.

الزبد يسيل من جانبي فمه. تحته ارتسمت بقعة مائية عفنة الرائحة من ماء بوله. رائحة الصنان خانقة. نحل جسده ووجهه وضمرت وجنتاه. بدا عرق نافر بطول جبهته يوشك أن ينفجر، وانتفض عرقان أزرقان قصيران تحت عينيه. أما عيناه فكانتا غائرتين تسبحان في مائهما في جانبي المكان، يفتحهما ببطء رافعًا جفنين ثقيلين كجناحين متكسرين لطائر كسيح. ينظر إليهما بين حين وآخر مسددًا نظرةً مراوغةً بلا هدف.

أدخلهما الأب وذهب يبحث لهما عن طعام للضيافة. جلس الشيخ صمويل وإبراهيم أمامه، لا يدريان كيف يبدأن. ما زالا منتشيين من بهجة عفريت حورية «ودلعه».

لم ينظر «عضمة» إليهما.. سند رأسه في بطء إلى الأرض ورفع عينين كسولتين واهنتين.. لم يكن في عينيهما أكثر من خرقة ملقاة.. ازداد زبد فمه.. بدا واضحًا إعياؤه ووهنه.

بدأ الشيخ صمويل في إنشاد تراتيم بلا معنى. طلب إبراهيم المكوجي من عم مصطفى أن يتركهم وحدهم لئلا تتلبسه المردة الخارجة من جسم «عضمة».

نظر إلى صاحبه نفس النظرة التي نظرها له يوم عالج ماجدة.. عصا أو خرطوم كفيلان بطرد الخبث من جسده. أخرج صمويل من كمه بقايا عصير قصب في زجاجة. كان متوثا

كالهباب، دس الفوهة في فم «عضمة»، لم يبلعه فانسال معظم السائل من بين شفتيه.

هم الأب بمسح ثوبه فأوقفه إبراهيم، أشار له بالخروج مطمئنًا، خرج الأسطى مصطفى وكله أمل أن يعود فيجد ولده شافيًا.

أرادا أن يتخلصا من الأمر بسرعة. أخرج الشيخ صمويل كيسًا من جيبه، استخدم إبراهيم يديه، ضرباه، لم يقاوم، لم يفعل غير أن اتقى بوجهه بعض ضرباتهما ولكماتهما، لم يكن باديًا أنه يشعر بالضرب، كأنهما يجلدان الفراغ، أرهقهما الضرب فتوقفا، جلسا صامتين أمامه وهو ملقى أمامهما ككومة من قش يابس. أشعلا سيجارتين وتبادلا نظرةً هازئةً فانتابتهما نوبة ضحك هستيري، تبادلا حديثًا تافهًا.. بدآ في ترديد الأغنية: «اعمل معروف يابو عود ملفوف ياللي خدودك بنور مشطوف.. حبك على فين؟ على فين؟ هيوديني».

ولم يعودا يشعران بوجوده...

قام واهنًا كالموتى. اتكأ على الحوائط ثم أخذت خطاه تقوى ويستوي عوده وهو يقارب الحمام. تبادلا النظر، كان في عينيهما أوهن من أن يعتبرا وجوده، بحث الشيخ صمويل عن عصا أو خرطوم ينهي به المهمة حتى وجد عصا صغيرة فاجتباها بجواره.

خرج من الحمام ثم دلف إلى المطبخ وعاد إليهما صامتًا لكنه جديد القوى مستقيم الجسد منتشر النشاط.. انتصب قائمًا كالحديد حين صار أمامهما. قاما من جلستيهما دهشين.. ليس هذا من تركهما منذ وقت قليل؛ الرهبة التي يبعثها حضوره تقزم كل شيء سواه.. لم يستطيعا أن يتبادلا نظرةً أو ينطقا حرفًا..

غموض ساحر هيمن على المكان، سكنا أمام سطوة عينيه.. أصبح ثابتًا شديد الحياة، ظهر على وجهه امتعاض أليم أخذ يزداد شيئًا فشيئًا ثم بدأ يزوم زومًا جفّد أعصابهما، صوتًا لم يسمعاه من قبل.. تشممهما بأنفه فتذكر إبراهيم نجاسته.. اقترب بأنفه أكثر، كاد يدس أنفه في فمه.. باعد جسده عنه.. التوى أعلى جسده للخلف فتتبعه نصف جسد «عضمة».. كادت عيونهم تلتصق.

في لحظة خاطفة غرز سكينًا في قلب الشيخ صمويل.. ظل ممسكًا بها يدسها في قلبه دسًا إلى أن أقعده وما زالت عيناه ثابتتين على عينيه.. توجه مسددًا نظرةً شلّت إبراهيم ووضع السكين في قلبه.. ظلّ ممسكًا بها حتى سقط صريعًا بجوار صاحبه.

الصباح رباح

لم ينتبهوا لوجودها إلا حين ماتت، تعودوا غيابها وحضورها بغير مواعيد، تخرج نهارًا وتعود ليلًا أو تغيب أشهرًا فلا يذكرها أحد، ثم تعود بالمال والهدايا. لم تكن في أعينهم غير ما تجلب. الانشغال المؤقت بالبحث عن قاتلها وبشاعة القتلة شغلهما عن شخصها، حتى وهي ميتة.. غائبة حين ماتت كما كانت غائبة عنهم وهي حية. أمام المغسلة بعد انتهاء التشريح وإفراج النيابة عن الجثة، تمثلت مرةً أخرى في أعينهم.. تذكروا الابنة والشقيقة.

بكى الأفيونجي سوء حظه أكثر مما بكاها.. «يا قلة البخت يا أفيونجي، ضاع المزاج العالي وأفيون الكبار».

قرر أن يدخر حزنه عليها خشية ألا تكون من ضلبه فلا ينوبه غير وجع القلب، «سوف أستوضح هذا الأمر من الله يوم القيامة ثم أنظر هل سأحزن أم أسامح».

الموت بالأساس لم يكن يمس مشاعره.. عسير على رجل عاشر الحرب ومرّ بين الجثث وقلّبها على جانبيها أن يتأثر بموت بغي لم تُظهر طاعتها وكرامة بنوتها إلا في عاميها الأخيرين.. بقطع حشيش مسروقة.

وقف سوكة أمام المشرحة.. كلّل السخط حياته المليئة بالاضطراب واتهامات العيون.. السؤال كيف ماتت يحرجه، النميمة الخافتة عن فتاة رخيصة في العشرين من عمرها قتلها عاشق في بيت عشيق آخر تحرجه. الخزي والفراق، لا رجحان لأحدهما على الآخر.. حياتها وموتها جراح.. الحياة مخزية والموت أشد خزيًا ووطأةً.. جسدها المهترئ الممزق.. الوجه الذي غابت ملامحه.. كتلك الحياة، مسفوحة من كل جانب.. قبحٌ بلا غطاءٍ يخفيه، عرضٌ مشاعٌ على الملأ، وفوق ذلك فجيعة الفقد.. هل يمكن محو كل هذا ببداية جديدة؟ الميلاد بعد موت.. النسيان في أرض جديدة.

أما هو، سلامة، فقد ارتعب من فكرة الموت وأن تلقى ذلك المجهول بما كان بينهما.. ظل صامتًا، عيناه لا تغمضان، تملؤه مشاعر متناقضة غريبة، يريد أن يصرخ، صرخة تملأ الدنيا، يخشى أن تبين جريمته على أمواج صرخته..

زجاج مدبب الحواف يمزق أحشاءه وقلبه، ارتسم على وجهه الذعر والغضب حدّ أن الجميع خشي أن يعزيه، هو نفسه لا يدري، هل يحق له أن يحزن؟ أم ينضم لصف قاتليها؟ وفوق كل هذا.. لا يليق بالفراق أن يكون هكذا.. بلا سماح.. ليظل أبدي العذاب.

الذي بكاها بحرقة هو الصغير ذو الاثني عشر عامًا، «ميكا». لم يزل يذكر كلماتها الأخيرة

ورائحتها الزكية وطعم الحنان الذي لم يذقه إلا منها.. ظل باقي عمره ذاكرًا حضنها الأخير وبكاءها وهو بين يديها ووصيتها التي لم يدرك معناها إلا بعد وفاتها بكثير.

طالت فترة الغسل، منعت الفضوليتان دخول غرباء عليها تحشفا للجثة المهترئة، أكملتا الغسل ومسدتا الجسد بالكافور والحنوط ثم دعتا الأم لتلقي على ابنتها نظرةً أخيرةً، لكن نجية جفلت حين قاربتها.. هزت رأسها بلا معنى ثم تراجعت للخلف.

عادت داكنةً صامتةً، اتّبعت أوامر فرج في كل الإجراءات، لا يدري أحد أشقية هي أم لا تعي، ليس من جديد عليها إلا الصمت المطبق الذي لا يعرف أحد ما بداخله.. عصبت المنديل على جبهتها بصرامة، تكوّمت عيناها في مساحة ضيقة.. لعلها، كعادتها، تنظر إلى الظروف كلها، الموت والحياة والصحة والمرض، كأحوال تمر بالبشر لا يمكن أن يغيرها حزن أو سرور.

وعلى أحد الحوائط، وقف أشرف النوبي يغالب دموعه وأمله القديم. وأشرَفَ، رغم صعوبة حركته، على تجهيز سيارة نقل الموتى وتجهيز الخشبة.

وتحت أقدامهم، كانت طفلة حافية تلطخ وجهها بالمخاط تحبو. لا يدري أحد كيف ومتى أنجبتها نجية وقد تخطت الخمسين.

وجَفوا جميعًا عند خروج الجثة محمولةً في الكفن الأبيض. صدقوا الموت.. هذا أول خبرتهم برعب الفراق. شعروا بحقيقة الرحيل عندما وُضعت في الصندوق وانطلقت السيارة تعدو بها ثم وأدوها، ميتةً هذه المرة، في التراب.

ظل سلامة جامدًا في مكانه كأن على رأسه الطير تأكل جسده المصلوب.

وناح المغني «نجيب» خلف أنين الناي: «مبروك عليك التراب يا نازل التربة».

***

تقبع شقتهم في حارة الفلواتي، المسماة بذلك نسبة إلى الضريح الذي يحتوي جسد الشيخ سر الدين الفلواتي بالركن الشمالي الغربي من الحارة أمام بيت الساعاتي. فسّر كل واحد اسم الشيخ الفلواتي تفسيرًا مختلفًا، بعضهم قال إنه سُمّي بذلك لكثرة تنسكه وعزلته في الفلوات ومعاناة الظلام والوحدة، وفسره الخال عوف الليبي قديمًا بأنه الفلواتي الذي نال كل ما اشتهى، وغَبّ من كل الشهوات والعذابات حتى انتقل من حال الحال إلى المحال.. ووجد الحب في نهاية الطريق...

ساعدته الزعيمة ساكنة الممالك، وفتحت له المسالك. ولكن البشر لم يفهموه فطاردوه ولم يستطع بينهم حياةً. وآخرون قالوا إنه آبق تخطى خمسة مقامات حتى عاد لروحه.. هي الذل

والخنا والحبس والزنا، ثم غسله المطر يوم لطخته الدماء فاستحق الولاية.

***

ويُطلق على مسكنهم مجازًا اسم شقة: صندوق صدئ يبدأ بالحمام وبئر السلم وينتهي بالشباك المطل على المنشر. يسدي الراحل عن أي مكان خدمةً جليلةً للماكثين. غرفة واحدة لا تدخلها الشمس وتتناثر على أرضيتها مُزق من سجاد وخرق وفرو خراف مدبوغة زخمة الرائحة...

سمح سقف الحجرة العالي بتبرع إبراهيم الكاشف بسرير من دورين، استأثر سلامة بصفته الأقوى بأعلاهما واتخذت منى قبل موتها الأسفل...

المطبخ ليس سوى ركن عشوائي يحتوي «وابور جاز» وحلتين مسودتي القعر، ومجموعةً متنافرةً من الأطباق وطبليةً «ونمليةً» خشبيةً خضراء معلقةً على الحائط، وضيقًا في إحدى الزوايا...

تحت بئر سلم، انزوى «كبنيه» بلدي صغير... فتحةٌ دائرية في الأرض مسيّجة الجانبين ببلاطتي موزايكو لموضع القدمين، بجوارها صنبور صغير يتدلى منه خرطوم أحمر، تحته «البَستله»: سطل ممتلئ دائمًا من الماء المنقط، ويعلو سطح البستلة غطاء فوقه «كوز» صدئ لزوم الاستحمام، وبالأعلى «سيفون» حديدي صدئ تحيطه كل أنواع الحشرات. خلف القاعد لقضاء حاجته يسري خيط هوائي ونور من شباك صغير بالخلف، حيث يطل «الكبنيه» على منور يؤدي بدوره إلى شارع المستشفى...

الحوائط تملؤها الشقوق. تجوّف بيض الصراصير في كل شقوقها، وعلى أحدها استند «طست» الغسيل وصفيحة الغلية. في الجهة الأخرى للغرفة «حوش» بطول الغرفة، يستخدمه كل أهل الحارة كمنشر للغسيل، تطل عليه الشقة من شباك صغير منخفض...

maktabbah.blogspot.com

ضوء الغرفة خافت كما تسمح فتحة شباك صغيرة مطلة على المطبخ، ولمبة «قلاووظ» هزيلة كلما احترقت بقي المكان أشهرًا مظلمًا، يتقي كل فرد أن يكون الفارم ثمنها حتى تضجر منى حين تعود فتشتري واحدةً وتردد الكلام نفسه في كل مرة: «هو انتوا مبتزهقوش م الضلام؟ لو النور ولع مش هتعرفوا شكل بعض».

يتشاحنون كثيرًا ويتآلفون قليلًا، المشاحنات حول كل شيء، وبالأخص الطعام، وأخص الطعام الفتة، ونفحات الجيران في المواسم، ليس للواحد منهم همّ عندها إلا أن يسبق أخاه، لا يأكلون من أجل الشبع ولكن حرصًا على ألا يجوعوا مرةً أخرى. كان الجوع عدوًا يحاربونه وساكنًا مقيمًا في أحشائهم بشكل دائم.. إذا وُجدت اللحمة فلا بد أن يُدخر «المناب» للحظة

الأخيرة، ليبقى مذاقها هو المذاق الأخير الباقي. ذات مساء، ضبط سلامة ميكا متلبسًا بأكل ثلاث بيضات مسلوقة، يزدردها بغير خبز، فوثب عليه واستنقذ منه واحدة.

وعند المطر، يتآلفون ويتألفون.. يتحول البؤس إلى هناء.. حفاة عراة لكنهم يضحكون ويصرخون إلى أبعد مدى، يحتضن الطين أقدامهم العارية.. تسيل خطوط الماء من رؤوسهم لتشاركهم الفرحة.

غير ذلك، لا يعرف أحدهم شيئًا عن الآخر. يطلع النهار فيتدرج كل منهم في الاستيقاظ ثم يخرج، يعالج اليوم كيفما يشاء ثم يعود ليلًا فينام حيثما اتفق. غاب سلامة ثلاثة أعوام كاملة في الإصلاحية ثم عاد، لولا تجنبهم لبطشه لما شعروا بغيابه. الوحيدة التي كانت تجمعهم أحيانًا بالعطايا والوجبات الشهية كانت منى. من خلالها عرف ميكا الكفتة ومذاقها ورائحتها التي ظلت تذكره بها بقية عمره.. ومن خلالها عرف حمودة أنواع المزاج الراقية.

قد يأتي ضباط القسم في طلب أحدهم للاشتباه في سرقة أو تحرش أو خطف سلسلة من على صدر أنثى أو كسر زجاج سيارة وسرقة ما فيها فيذهب حيث يذهب ثم يعود حين يعود فيمارس نفس الحياة المضطربة التي صار اضطرابها نظامًا يخضع له الجميع.

غابت منى قبل أن تموت ستة أشهر كاملة ثم عادت كأنها كانت بينهم بالأمس. ليلة أخيرة ثم اختفت للأبد. كانت في تلك الزيارة أشد سخاءً من كل مرة. صارت أكثر أناقةً وأزكى رائحةً، لكن عينيها حزينتان شاردتان. أعطتهم مالًا كثيرًا وألافًا كبيرةً. وصدرت معظم احتقارها لأمها نجية في الصباح. حاولت أن تتحدث إليها في آخر الليل طلبًا لنصيحة لكن نجية كانت تغالب النوم فغلبها.

مر النهار والليل دون أن تجد أذنًا تسمعها. ضاق البراح عليها وأوشكت أن تختنق، لكن نجية تبقى كما هي، لم تسمع لمشكلة أحدهم يومًا.. تتدخل فقط حين تحتدم الأمور في اللحظة الأخيرة، «من أدراك أنك ستكونين بجواري في اللحظة الأخيرة؟ كيف تعرضين هكذا وأنا أحدثك من على حافة الضياع؟»

هزت نجية رأسها بتلك الطريقة الساخرة المستفزة ثم قالت: «نامي نامي، الصباح رباح».

عندما يطبق الليل ينهد الجميع.. لا يسمع في الغرفة إلا تنافس شخيرهم وضيعة أجسادهم المرهقة. ظلت منى مؤرقةً تفكر وترجو الليل أن يطول وأن يتوه الصباح إلى أن غلبها النوم والإجهاد.

وفي الصباح انطلقت نجية نحو فرج.. قبل أن تصحو منى.

طائر

في يوم حلّق طائر ألقاه الحظ العاثر

في حضن الريح، لكن..

هل يأمن حضن الريح

طيرٌ مقصوص الريش جريح

حتى.. والريح رخية.(4)

يبدو أنه ضل الطريق، أو ألقاه الحظ العاثر في هذه الشقة. دخل طائر صغير ملون الريش في صباح أحد أيام الربيع من الشباك الصغير المطل على المنشر. مخلوق لم يعرف سوى البراح، زَسا به الحال في حجرة الضيق والعفن.. لمع كالبرق الخاطف ثم استبانت طبيعته وحيرته بين الحوائط الباردة التنة. توقف، راقب المكان مليًا، مع تلك الحيرة والهلع يستحيل الخروج من المأزق. كانت نجية قد خرجت لتوها لفؤرد الجرائد وحمودة نائم لم يفق بعد من جرعة الأمس.

ساد هرج ومرج؛ كل من يرى الطائر الصغير يصيح.. جرى سوكة نحو الباب يفتحه ليريه طريق الخروج، لكن يبدو أن الطائر أعمى أو مذعور أو أن الباب العاجز عن إدخال بصيص من أمل. لم يتبد له مخرج. دار ودار تحت السقف العالي وبدت حيرته واضحة جدًا.

تنقر له سلامة بين الحوائط ممسكًا بشبشب يريد أن يترصد له بضربة صائد، قفزت منى على يديه تمنعه.. لم تكن تستطيع منعه، حتى عن فتك روحها.. استطاع أن يفلت منها كأنها ليست هنا، قذفه مرتين متتاليتين، لكنه لم يصبه.. قفزت إلى الأرض.. جثمت فوق الشبشب، تصارعا ودارا مقا، دورة أو دورتين، رأى في عينيها نظرة استعطاف ورجاء «لا تقتله أيضًا».

أثناء تدافعهما كان ميكا متربضا بغطاء ملاءة مهترئ، سحبه من فوق أبيه النائم، يريد أن يلقيه عليه ليصيده حيًا.. كل هذا الصخب والجري والصراخ لم يوقظ حمودة، لم يتقلّب حتى في فراشه على الأرض.

حاولوا جميعًا، كلٌ حسب رغبته، لكنهم لم يستطيعوا حيال الطائر اليائس المناضل شيئًا، لم ينقذه إلا إعياؤهم، ظل ساكنًا حائرًا على طرف بارز بأعلى الحائط.

تأملته منى طويلًا، أشفقت عليه، اليأس يحيطه من كل جانب، لا يجد بابًا للفرار، تمنت أن يمنحها الفرصة لتحنو عليه، أن ينام على يديها ما أراد، أن تخرج روحه من أسر هذه النظرة

الآسفة التي تبدت في عينيه، أن يرى أملًا واحدًا في هذا العالم الضيق المملوء بالخطيئة منذ الخال، أن يشعر أنهم ليسوا جميعًا ضده، أن يدرك قبل الرحيل أن أحدًا في هذا العالم يحنو عليه، أن تخبره فقط أنها ليست الشيء الذي تخافه الطيور.

بدا لسوكة كالأمل الذي عفّ الوجود بينهم.. يئس من محاولة توجيهه نحو الباب، أعرض عنه وعن الباب وقبع واضعًا ذراعيه حول ركبتيه، شعر برغبة في النوم..

قرر أن ينام حتى يقضي القدر في الطائر أمره. وظل سلامة طوال الوقت كامنًا دقيق العينين يهتز كالأفعى، متحينًا فرصة غفلته وغفلتهم ليصوب الشبشب على هدفه بدقة، ويفكر ميكا في طريقة لصيده دون قتله، ويقيم ثمنه في سوق الحمام...

توصل الطائر أخيرًا للخروج من الطريق نفسه الذي سلكه في الدخول فطار.

وما كان له أن يفز منه إلا إذا تغافلوا عنه لدنو الشباك من الأرض.

ذهب وترك لهم إحدى الذكريات القليلة التي لم تفارقهم.

---

(4) صلاح عبد الصبور

الأستاذ

مدسوس في الحارة كعائلة الأفيونجي، عتيق كرائحة البول على أحجار السبيل، بقعة دنست الأثر، غامض كالضريح، ساد الناس بالمال والمكانة والمظهر الأنيق. يجلّه الجميع.. عدا نجية.

***

أعطت منى حزمة من جرائد وأرسلتها إلى الأستاذ عاكف، المحامي القاطن بجوار المقهى. أوصتها أن تنظف له شقته وتنظر ما يريد.. كان ذلك بعد شهر واحد من حبس سلامة.

استقبلها بقطعة شوكولاتة لم تذق مثلها، علبة خرافية ومذاق بلا مثيل، سألها برقة عن اسمها وعمرها، تركها تجول بالشقة وانصرف إلى عمله. كان الأستاذ أنيقًا شامخ القامة معتدًا بنفسه وملابسه وشقته، وقورًا تهابه العين، كما يليق برجل قانون في منتصف الثلاثينيات. لكنه كان كث الشارب بشكل مزعج مبالغ فيه.

شقة أنيقة واسعة يسكنها وحده. تجولت تنظفها كالمسحورة، مجموعة من الغرف والفرش النظيف، فتحت الشبابيك فأذهلها دخول نور الشمس من النوافذ. تحتوي حمامين تصميمهما عجيب، زُينت حوائطهما ببلاط مزخرف، لا يوجد شق واحد فيها، ليس في أركانها عناكب، وفي منتصف أحدهما «دش» يقف المرء تحته ساكنًا فينساب الماء فوق رأسه وجسده، وصابونة زكية الرائحة ومناشف متعددة الألوان، وعلى الأرض ثُبتت قاعدة بيضاء مجوفة ذات غطاء، يُخرج المرء ما في جوفه جالسًا فوق مقعد مريح بارد الملمس ثم ينظف نفسه بغير معاناة الخرطوم وإهانة «التشطيف».. يُغلق المكان بإحكام؛ فلا خيط هواء بالخلف ولا احتمال أن يدفع أحدهم الباب مخطئًا.. كانت في حمام العجائب.

أجزل لها الأستاذ العطاء، وتركت لها نجية قسمًا كبيرًا من المال لتستمع به، وأرسلتها إليه مرات ومرات. اختلف مستوى حنانه في كل مرة، وبدأت أحجية الجرائد المرسلة من عند نجية في التفسير. اقترب شارب العنكبوت حد الملامسة، أبان مسرعًا عن حقيقته، لماذا ينتظر وكل ما حوله آمن. عاد الخال من قبره المطمور وما زالت تسانده نجية.

«صرح أيها الوغد بحاجتك، تعلمت في المهد الكثير، أنا في الشوارع منذ ولدت، أمي نجية، عمري ألف عام. افتتح المزاد الخال وجاء دورك في المزايدة».

انفرد بها عوف الليبي كثيرًا، بعيدًا عن سلامة، زادها عنه رؤيته عاريًا قبيحًا كالوحوش، تعلمت كتم أسرار تنوء بحملها الجبال..

«لو أبلغت أو عارضت ستصيرين برضا يضربه الناس بالشباشب.. ولو أطعتني، رحمتك كهرمانة، لا تخبري سلامة نفسه. هذا بيني وبينك وكهرمانة».

***

تتابعها في الطريق عيون أشرف النوبي، صبي المقهى، تبطيء خطاها لتوافق خطواته، تعشق عرجته العطوف التي تحاول دائمًا أن تكون بجانبها، لحظة في حياتها شعرت فيها بالإخلاص، الوحيد الذي لم يقضم قطعةً من لحمها، يعرض المساعدة بلا مقابل، لكن خطو الليالي واسع وخطوه وئيد.

تفكرت دهشة من التناقض بين طيبته وشراسة العالم.. «هل في هذه الدنيا شيء بلا مقابل يا أشرف؟ ألم تر الأم التي ترسل ابنتها فوق صينية من جرائد ليتجول في صفحاتها الكبار؟ ألم تر الأب الذي يأكل العار والحشيش؟ ألم تسمع أساطير الخال؟ تعال وضع يديك في ذاك المكان الدافئ وانظر إلى عينيه حين يزوم».

يعرض عليها كل مرة أن يوصلها حتى البيت خوفًا عليها من ذئاب الطريق: «انتِ كبرتِ بقى على موضوع الجرايد ومسح الشقق والسلالم ده».

نظرت إليه وعلى جانب فمها رست ابتسامة ساخرة.. يخاف عليها من ذئاب الطريق!!

- عايزني أعمل ايه يا أشرف؟

- هو انتي لازم تعملي حاجه، اللي زيك لسه بدري عليه، وبعدين أستاذ عاكف دا راجل مش مظبوط. دا بيشتري الناس بفلوسه.. مش بارتاح له، أنتِ مش عارفه موضوع بدرية؟

- الظاهر إن أمي بس اللي بترتاح له، لكن السؤال الأهم هو: أتعرف أنت موضوعي؟

- استنيني.. هانت قوي.. سنتين كمان وابقى قهوجي وآجي أطلب القرب.

- أنا الذي هنت يا أشرف...

- أبويا عامل ايه في القهوة؟

- والله عم حمودة مش عاجبني، نفسي يفوق لنفسه ويحس باللي حواليه، مكانه ف خطر.

نحن نشترك في أمنية واحدة إذًا، لكنه يا عزيزي يعي، ويدعي أنه لا يعي. همست:

- الخطر الوحيد هو إنك عاوز تحل مشاكل مش ممكن تتحل.

- بتقولي إيه؟

- لا ولا حاجه، ارجع انت بقى لحسن أمي تعمل لك مشكلة.

في العامين اللذين حرص فيهما أشرف أن يصحبها في طريق الرجوع، منذ أرسلتها نجية بالجرائد أول مرة، مرّت أحداث وتغيرت أنفس، كان الأستاذ قد شبع تصفحًا وقراءةً.

لم يكن الأستاذ حظرًا رغم ذلك بالنسبة إلى جسدها، بل إلى روحها، بدأت معرفة الكبار، تخطّت باب المغارة السوداء إلى عالم أشد ضيقًا رغم سعته وأشد سوادًا في رحلة انتهت من وجه بهي -رغم أحزانه- إلى وجه بلا معالم.

رفيقتان

طريقه إلى بدرية كان مختلفًا وأقل وضوحًا وصراحة، كان في تردد البدايات لم يزل...

كانت تكبر منى بعام واحد، وسبقتها إليه بعامين. في كل خطواته كان يعتمد على سخائه واحتياج الآخرين. لم يكن حول منى ما يدعوه للحذر، أما بدرية فكان حولها وهمّ من المحافظة والأبوة. لم يكن أبوها سعد الصاوي يتحصل في نهاية كل يوم من بيع الجرجير إلا على أربعة أو خمسة جنيهات فكانت العشرة جنيهات دفعة واحدة تعميه، وزوجته هنية تدعو للأستاذ ذهابًا وإيابًا.

أرسلوها إليه بالجرجير في المرة الأولى فقبلها بحنان أبوي وتحسسها بمشاعر فياضة وأعطاها قطعة شوكولاتة فاخرة وأرسل لأبيها الجنيهات العشرة وخضها هي بجنيه كامل.

ألفت بعد ذلك المكوث عنده قليلًا لتشاهد أفلام الكارتون وعالم الحيوان المدهش في الجهاز العجيب. جلس بجوارها وشرح لها التفاصيل وحكى لها القصص. أحبت تلك الأرائك الوثيرة والفرش الناعمة وطعم البسكويت ورائحته الزكية، تجول يداه حانيتين على جسمها مهدهدةً ومحتضنةً...

لم يعد يحلو لها أن تشاهد الكارتون وتلعب ألعاب الفيديو إلا وهي جالسة على حجره، علمها مبادئ القراءة والكتابة، كافأها ولسانها يحبو في قراءة القصص الصغيرة بقطع من الشوكولاتة، كانت أطعم بكثير من الجرجير الحارق. وجدت عنده حينها ذلك المذاق والحنان الذي كانت رحلتها في الحياة بحثًا عنهما.

ينتشي متلصصًا بينما تستمتع هي بأفلام الكارتون. لا تجد تفسيرًا مناسبًا لتسارع أنفاسه وشدة قربه وتلاحق ضماته، نكهة العصائر الساحرة والأيسكريم العجيب. لم تكن تدري أترفض أم تقبل، ما دام هذا التلاصق يرضيه فلا اعتراض. ابتسامة متكلفة حائرة جالت وجهها الصغير ثم صار عبثه منوالًا مألوفًا. دعاها للنوم في حضنه، قص عليها قصة الجميلة والوحش وقصص الأنبياء وأغدق عليها بأنصاف جنيهات كثيرة.

كثيرًا ما تركها نائمة على سريره ونزل للصلاة في المسجد مارًا من أمام سعد وهنية فيطمئن كلاهما على بدرية.

انتابت الغيرة نجية. ألقت عليه كلمات كالشم في عودته من المسجد: «واتدحرج واجري يا رمان، وتعالى على حجري يا رمان، لو كانت النار بتشبع كان بتاع العيال شبع».

توجه إليها واشترى من كل الجراند وأعطاها مبلغًا ماليًا وقال: «اللي بينا كتير.. عيب».

صارت حزمة الجرجير الواحدة تكلفه عشرة جنيهات لعم علي وعشرة لنجية.

نجية، لسان النار، أولى تجاربه وأخرها بتلك الحارة.. آخر عهده بتجربة ناضجة في مواجهة مباشرة، أكثر من تعرف خيبته، أوجعته بلسانها في تلك الليلة غامقة السواد. اختارها لفقرها ففتح على نفسه أبواب الشياطين وألسنة اللهب.. عندما يلتهب الوابور فإن كل أعواد الكبريت لديه بطيئة الاشتعال سريعة العطب..

«قال بره فرشت لك وجوه فرشت لك وانت مايل ايه يعدلك، من بره هالله هالله ومن جوه يعلم الله».

ذاب أمام خذلانه الفارق الوهمي بين ضآلتها وسمو مركزه، بدا الفارق الحقيقي بين نهمها وقحله.. رأس دبوس غرق في كومة قش، ضحكت مجلجلة، كاد يجثو أمامها، رحمته كربّة عهر ترأف بفاسق مكدود، أعادت الصياغة.. تحولت العلاقة بعد ذلك إلى ما يشبه تجارة الرقيق.

***

كالنار، لم يشبع من متعة ظاهرية سكتت عنها الصبية فقرر في اللحظة المناسبة الذهاب للمدى. وضع في طريقها شرائط، دسّها كالمصادفة، أغلق الشاشة ونزل للصلاة ولما عاد وجدها متلبسةً بالجُرم. كانت وجلةً بعيدةً عن الجهاز لكنه -كمحام- يعرف كيف يحيط بالجناة، تظاهره براعة عنكبوتية في تمييز نظرة العين الدهشة عن نظرة العين التي مبعثها الخجل، وتحويلهما إلى نظرة الخوف الذي يستفحل فيؤدي فوزًا إلى السقوط. ويعرف الوقت المناسب لإنشاب المخالب وتثبيت الفرائس.

أرعبها ولامها، أخبرته أنها لم تدر كيف تغلق الجهاز فأغلقت الشاشة: «حاجات قلة أدب»، طمأنها بغير أن يمنحها السلام: «دعينا نرى»، «قلة شأن الفرائس لا تستدعي جهد الذئاب.. الأرانب لا تملك نابًا أو مخلبًا، وفوق هذا ضئيلة الحجم». أطعمها الآيسكريم بيده في فمها، لم تكن تريد أن تُغضبه، وعدها ألا يخبر أباها. أراد لها أن تفهم وتشارك، أوصاها بالتكتم. ومن جهته، طمأنها بكتمان جريمتها، عوّضها بألعاب وقطع أكثر من الشوكولاتة.

لم يخف على «هنية» ما صارت ابنتها تعانيه من كوابيس وخوف وعزلة، التردد وارتباك عينيها كلما حان وقت الذهاب إلى الأستاذ، انكماشها وهروب عينيها، ضمور الصبا وشكتى المرارة بالعينين، عزوفها عن استعمال الحمام، تبرزها على السرير ليلًا، وما تجد في سراويلها من ألغاز.

سألتها وضيّقت عليها فأخبرتها. مادت الأرض واسودت الدنيا.. العار والشيخ والفضيحة.

ضربتها وعضّتها وكادت تخلع فروة رأسها بيديها. ذهبت إلى نجية تستغيث بها، فطلبت نجية أن تترك الأمر لها. توجهت من فورها إلى الأستاذ في مكتبه، لم تعد من عنده إلا وخطة الهجوم كاملة قبل استفاقة الخصم، وبكيسها ألف جنيه.. أكبر مبلغ منحه عاكف دفعةً واحدةً منذ عرفته.

شرق من شقة الأستاذ في هذه الليلة مبلغٌ مالي وساعة يد وخاتم ذهبي. داهمت قوة من البوليس بيتًا واحدًا في الحارة. بات عم سعد ليلته في القسم فداءً لابنته التي سرقت شقة الأستاذ عاكف من خلال معارف الأستاذ، قضى سعد الصاوي ليلة عذاب لم يكن يظن أن مثلها موجود في الحياة، ذهبت نجية تُكذّب كل ما ادّعت هنية وابنتها وتسألها أن تبحث عن الجاني الحقيقي بدلًا من اتهام الناس الأكابر.

«دا راجل محترم وعنده عربيه.. حيبص لعيله؟ تلاقيه الواد أشرف الأعرج».

دشت لها الاسم كطوق نجاة، بديلًا لا تعبأ به الحياة لضحية بلا أهمية.. اتُهِمَ أشرف في اليوم الثاني بسرقة شقة الأستاذ عاكف.. أصبحت تلك الجريمة حائرةً بين متهمين اثنين فقط؛ سعد الصاوي وأشرف النوبي.. عُذِّبَ كلاهما لكشف مرتكب الجريمة، جريمة السرقة التي قلّت أمام هولها اتهامات هنية. قرر الصاوي وهنية الرضوخ والصمت تجنبًا للحبس والفضيحة..

«هو الواد أشرف لاعرج مفيش غيره».

ونظرًا لرحمة الأستاذ وبرّه بأهل المنطقة وسعيه الدائم لنيل ثقتهم، ونظرًا لثقة نجية وشهادة حمودة الأفيونجي بنزاهة الرجل، رضي الأستاذ عاكف أن يتنازل عن القضية رأفةً بالرجل الكبير سعد الصاوي. وضُربت بدرية في ذلك اليوم ضربًا شديدًا، جُلدت بالخرطوم وأُحرقت بالنار.. وصارت غير مبرأة إلى الأبد.

توقف الأستاذ عن عطاياه الجرجيرية وعطاياه الشهرية.. ثم طلب حزمةً بعد ثلاثة أشهر.

أرسلوها مع بدرية.. وسألوها حين عادت سؤالًا هامًا ووحيدًا: «كم أعطاك؟»

***

بيت واحد في هذا العالم كانت تشعر فيه بالحنان، بيت الحاج حامد وزوجه العطوف «الست رقية»، الاتساع والهدوء والشاي بالحليب. كل من يدخل هذا البيت يأكل ويشرب كوب شاي بالحليب ويجد صدرًا حانيًا. هادئان كواحة خضراء بين أمواج متلاطمة ويمنحان بلا مقابل.

فرصه.. «We are disposal».

كانت مبهرة ولامعة أبهرت عينيهما.. صيرتاها القالد.

كانت رشا مرجان في السابعة حين انفصل أبواها بعد قصة حب وزواج كبيرة قتلها العناد، تحول العشق الكبير بينهما إلى صراع يومي مبتذل ومهين، كان الخلاف على أتفه الأسباب يثير أعظم الزوابع فاستحالت العشرة بينهما وأراد كل واحد منهما أن يبدأ من جديد.

تزوجت الأم فور انتهاء عدتها. أدهشها أن الأم كانت أشد انصياغا وتحملًا وولاءً للزوج الجديد رغم قلة الحب. وتزوج أبوها وكان أشد احترامًا وتحملًا لزوجته الجديدة.. صارت «رشا» العبء الذي ينوء بحمله الطرفان. تركاها لدى خالتها، الصديق المشترك. سافر الأب إلى الكويت وهاجرت الأم مع زوجها إلى أميركا. كلاهما عوّض غيابه بإرسال مبلغ تنافسي بالدينار والدولار للخالة كل شهر.

تركت لها الخالة الحرية المطلقة، لم تقابلها يوما بلوم أو عتاب أو وجه صارم، بل متعة مطلقة، المهم أن تخبر أبويها باستمرار أنها سعيدة في كنفها فيزداد الدخل، والداخلون.

كانت فوق جرأتها أشدهم رفضًا للظلم. تعشق الانتقام وتحتفظ بجراحها «green»، كما تقول، تجيد أخذ الحق باليد واللسان وأكثر ما تؤمن به هو ذلك المثل الإنجليزي الذي علمها إياه الأستاذ: «الانتقام وجبة، يفضل طهيها بروية وتقديمها باردة، وبهدوء»، كانوا يعشقون لكنتها حين ترطنه: «Revenge is a dish, best served cold».

اختارها المدرس «صاحب خالتو» الذي درس لها اللغة الإنجليزية وهي بالصف السادس الابتدائي لتكون ذريعته في الدخول والخروج. ما بينهما لم يكن غامضًا حتى لطفلة في عمرها. كرهت استهتارهما ومروقهما عبرها فكمنت لهما بهدوء. وبهدوء، بعد المراجعة النهائية قبل الامتحان النهائي في نهاية العام الدراسي فتحت باب الشقة.. وخطت في المقدمة بهدوء، خلفها كانت تخطو زوجةٌ متشحة بالتربص ورداء محكم.. ثم فتحت بابًا آخر لتدخل الزوجة إلى غرفة النوم فتضبط زوجها المدرس في أحضان الخالة.

***

ثلاثتهن أيضًا يعشقن المطر، ويعشقن تلك العادة القديمة، الجري والدوران في الليالي المطيرة. حتى بعد أن فرّقت بينهن السبل ظل ماء المطر –سرّ السماء– رسالة تذكير دائمة تجمعهن على البعد..

بهجة الأرض عند المطر، صوته الحثيث الوقور، هذا السكون الغافي الذي يطفى على

الأرض بعد المطر.. تستريح من عصف الريح وسطوع الشمس ودورات القمر. يهدأ كل شيء مستسلمًا لذكرى لا تعلمها إلا الأرض.. يتلاشى التراب بلا أثر. يصبح هناك أملٌ.

سوكة

في الثانية من ظهر كل يوم، يخرج الطفل الصغير من الحارة، يجلس على الرصيف أمام المستشفى، ينتظر موعد خروج المدارس. يرقب السيارات ويردد بصوت عالٍ مشيرًا بيديه كلما مرت سيارة أعجبته: هذه لي، وهذه ما سأمتلكه. يتسلى بمشاهدة السيارات حتى يخرج التلاميذ مبهجين في ملابسهم الموحدة وشنطهم المدرسية المختلفة.. يسمحون له أحيانًا بمشاركتهم لعب الكرة لكن معظمهم ينبذونه لأنه دونهم، ممن متعلم.

يذهبون إلى منازلهم متعللين بعمل الواجب.. لو أعطاه أستاذ واجبًا يكتبه لأفنى نفسه فيه عشقًا.

يظل بالشارع حتى يكاد ضوء النهار يذهب، وتعود أسراب الحمام إلى غيات أصحابها فوق الأسطح. يعشق مراوغة أسراب الحمام عن بعد. يدور الحمام في دوائر، تختلف أشكال دوائرها، لا يخطئ في عد أفراد أسرابها أبدًا.. تلك متعته القصوى؟

يستطيع متابعة فرد الحمام الذي يغير مساره عند الدوران فلا يعده مرة ثانية. تبقى عيناه معلقتين فينسى قدميه الحافيتين ووخز الأحجار. يضاحكهم على البعد أنهم لن يخدعوه، يحسد الحمام أن سينام في صحبة مؤتلفة، ويكره أن سيظله الليل في وكر يكره الحياة فيه منذ عاد الخال عوف الليبي.

أما المطر، فكان العشق بلا حدود. كيف اختزن السحاب كل هذا الماء! وكيف أذن له بالهطول! وتمد الأرض ذراعيها تحاول أن تحتويه في شوق. لا بد أن الله موجود وأنه عظيم. أعجب بصوت صديقه الصغير إيهاب في المقرأة وهو يقرأ من آيات القرآن عن المطر: (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)(١).

تلخصت حياته في البحث عن لحظة صفاء، حتى إذا وجدها ومد إليها يدًا تعذر عليه أن يستمتع بها.. لحظة كانت أقسى ما مر به.. وأجمل ما مر به أنه رآها رأي العين. أعجب ما في المطر أنك لا تستطيع أن تمسكه بيديك. هذه القطرات أحيانًا.. تشبه البكاء.

طبيعته مختلفة عنهم منذ وعى. يميل طبعه إلى الهدوء، ينكر تصرفاتهم لكنه لا يستطيع حيالها شيئًا. متزن رضي النفس، لا تبلغ أقصى درجات عصبيته أن يتخطى صوته حدود سامعه. كلما ازداد غضبًا ازداد هدوءًا وسكونًا إلى نفسه. حريص على ترضية البشر وبقلبه حنان يسع العالم كله.

ربما كانت الحياة أكثر قدرة على الاحتمال حتى ظهر هذا الخال العائد من الغربة مسكونًا

بالغدر والجنية والسلوك المضطرب.

سافر قبل أن يولد وعاد وهو في الثامنة من عمره، نشأ بينهما جدار من الكراهية وعدم القبول، ادعت جنيته إنه ابنُ «بزاوي» مشؤوم.. أما أخته التي تصغره بعامين وأخوه الذي يصغره بثلاثة أعوام، فهما في عين الخال ابنا الحنان وحسن الطالع.

سرت نبوءته بينهم كقانون سماوي مُنزّل. اجتنبه الجميع فازداد هدوءًا وانفصالًا، كانت نبوءة الخال جدارًا فاصلًا عزله عن الجميع. نبذه أبوه، كان هذا الأب يتحين أي فرصة لنزع الأواصر والنجاة من أية مسؤولية.. لعله كافأ عوف الليبي على نبوءته تلك.

***

أحب أصدقائه إليه كان «جمال» الذي اشتهر بين الناس باسم «عضمة» لشدة نحوله وبروز عظامه. كان قويًا شديد البأس رغم ذلك، نحوله هذا هو الذي جعله سباحًا ماهرًا، يسبقه دائمًا كلما عاما في «الكابرتاج». وكذلك كان لاعب كرة ماهرًا رغم طموحه أن يلعب البوكس، لم يكن يلعب إلا حافي القدمين. طرقًا أبواب الصبا والشباب معًا، كلاهما يميل إلى الهدوء وإحباط الرضا بالفقر. الحاجة كانت صديقًا ثالثًا دائمًا..

يستبدلان الكرة بثمرة دوم جافة ملقاة يقضيان بها النهار ركلًا وعدوًا.. ويستبدلان الدراجة بغطاءي زجاجاتي مياه غازية، يدقانها على طرف العصا ويدفعانها ويستبقان.. تعلّما العيش على المتاح والرضا بأتفه الإمكانيات.. حافيين مرة ومرتديين مزقًا من أحذية مرات.. أسرًا البحث في المزابل عن لعبة وفتات طعام..

لوحت الشمس بشرتيهما بنفس الدرجة واكتست عيناهما نفس الود الممزوج بالجوع الذي قلما عرف الشبع، حتى الذباب الذي يحوم حول وجهيهما كانا يقتسمانه، ويقتسمان أيضًا شيئًا آخر: أن الضحكة دائمًا عذبة ومن القلب.. لم يكن سوكة يجد هذا الصفاء الذي كان يبحث عنه إلا معه، يميل مثله إلى الهدوء والعزلة.

لهما صديق ثالث وادع وحالم اسمه إيهاب، جميل الأصل والطبع والطباع، هادئ كالنسيم. كان أبوه معلمًا، يعلم الناس في كل لحظة.. في سيره وجلوسه. حين يتحدث وحين يتصرف، يعلمهم كيف ينطقون الكلمات وكيف يحسنون التصرف وكيف يرفقون بالكلاب والقطط.. أنشأ ابنه إيهاب كدرس ألقاه للعالم.. كفه دقيق ناعم، في صحبتهما كان يردهما دائمًا إلى الصواب ويرأب الصدع ويند الشطط في مهده..

عندما كان يستدرجهما العيال إلى لعبة جز الشكل كان دائمًا يتخذ صف الغريب.. يجيره ويحميه ويدفع عنه حتى يفر من ظلام الأشرار، أدهشهما دائمًا بصبره على العلم وبمبرته

الهادئة. لم يكمل معهما مرحلة الشباب، أخذه الدرس والتعلم لكنه ظل الركن المطاع اللطيف في عالم صاخب.. وكان الحاج مصطفى العامل السروجي يعامل سوكة كما يعامل ابنه. ضمه إلى صف صبيان الورشة فعمل مع ابنه، فاقه سوكة كثيرًا في تعلّم الصنعة، كان كل شيء عاديًا وطفوليًا.. حتى بدأت أحوال جمال تسوء؛ أصبح مرهقًا دائمًا رغم صبوة شبابه ثم أصابته أعراض غريبة تغير على إثرها كل شيء.

بدأ بالحمى والهذيان ووجع البطن، ازداد نحولًا فوق نحوله، اسود ما تحت جفنيه وجحظت عيناه، شرد واعتزل الناس وأدمن الوحدة والنظر إلى سقف الحجرة ثم أصبح يرى نفسه يلامس السحاب ويستظل به دون الناس وتجالسه الملائكة. ادعى أنه يرى ما لا يراه الناس، وتحيطه بالحجرة مخلوقات تعد بالآلاف كلهم على شاكلته وملامحه لكنهم يختلفون في حجم الرؤوس، فبعضهم كبير الرأس، ورأس بعضهم كرأس الدبوس، ومستطيل الرأس ومنحوتها ورفيعها وسميكها لكنهم جميعًا الوجه نفسه، والشخص نفسه: هو...

طاف به أبوه الحاج مصطفى على «الأطبة» والمشايخ والكنائس حتى أعيته الحيل. اضطر لبيع كل ما يملك لتنفيذ طلبات المشايخ والأسياد.. ثم باع الورشة، ثم أعياه هو نفسه المرض والحزن على ابنه الوحيد.

ذهب سوكة للعمل لدى إبراهيم المكوجي لكنه توقف بعد أسبوع واحد لأن الأطفال توقفوا عن مناداته باسمه الحقيقي أحمد أو اسمه الدارج «سوكة»، أصبحوا جميعًا يطلقون عليه اسمًا واحدًا يغيظه جدًا: «مكواه».. ولأنه اكتشف أن مهمته الأساسية لم تكن أن يتعلم كي الملابس، وإنما كانت أن يحرس المحل حتى يعود الأسطى إبراهيم من بيت على العراقي حيث يعالج زوجته حورية التي تنزّلت عليها الشياطين.

***

لشد ما آلمه حبس أخيه الذي يصغره بثلاثة أعوام. حاول أن يجد طريقة للمساعدة، لكنه كلما التحق بعمل كانت نجية الأسبق بالاتفاق مع صاحب العمل على أن تقبض هي «الأجرة الأسبوعية»؛ متعللة بالجري على العيال والإنفاق على سجين الإصلاحية.

دائمًا تستأثر بالأجر من مصدره، حولتهم جميعًا إلى منتجي «فلوس». واستأثرت وحدها بمنى. تقضي معها اليوم كله، كانت أكثر من افتقده من إخوته، باعتهم بالتجزئة وباعت فنى جملةً. لم تمهله أن يصحبها فترة أطول، ولما خرجت من حجرها تاهت في زحمة الحياة، «العصفور الذي لم نستطع أن نحتويه». لم يكن يعني الأم والأب حينها إلا أنها تعود محملة بأي شيء دون السؤال عن ثمن، حتى الصغير ميكا، باركا عمله مع أخطر الناس في الشارع،

تاجر الحشيش المعلم أبو سالم.

تمرّس على مهنة القهوجي في مقاهٍ شتى، تدرج فيها من صبي كل دوره الكنس والتنظيف ولم العِدّة «جرار» ثم مساعد أرضية يساهم في توصيل المشاريب ورص الشيش، تساعده خبرة قديمة اكتسبها من خدمة الحشاشين في شقتهم الخانقة في الزمن الغابر ثم وقف على النصبة.

أنبأه أشرف بصعوبة أن يحتفظ أبوه بمكانه في المقهى بعد أن أصبحت تختلف عليه المشاريب والزبائن، وعن «توهانه» الدائم وافتضاح أمر المكيفات واستهزاء الزبائن، وعن نفاد صبر الكاشف فاستنفره ذلك كله؛ قرر أن يطلب من المعلم أن يعمل في المقهى مساعدًا لأبيه من دون أن يكلف ذلك المعلم الكاشف جنيهًا واحدًا فوق أجرة أبيه.

حاول كثيرًا أن يجعل أباه يدرك أنه لم يأتِ ليأخذ مكانه، لكنه، كعادته في كل شيء، كان قد حبس نفسه داخل فكرة ولم يرد أن يخرج منها.

سرّ به المعلم الكاشف وشجعه، جعل له يومية مستقلة وأبقى على أبيه إكرامًا له، الشيء الوحيد الذي كان يغضبه منه هو وقفته تلك ناظرًا إلى السماء حين يخبو ضوء النهار ليعد أفراد أسراب الحمام، فيصيح مازحًا: «أنا قلت كتير، عمر الهبلة ما تجيب دكتور.. دي عِيله كلها مخابيل».

---

(5) سورة الحج، الآية 5.

سلامة

تُلقي بعضُ مخلوقات البحر بيضها في الرمال، ليكون عليها بعد الفقس أن تجتاز رحلةً قاسيةً نحو الماء. في الطريق تنهشها القوارض والضواري والزواحف.. لا يصل إلا من يجتاز الموت وهو يرى الحياة.

شرّحت الرمال بطنه وهو يزحف نحو البحر.. وصل فأكلت ملوحة المياه صباه.. شوّهت جدران السجن بقايا آدميته.. تتكيف الروح غالبًا مع الشقاء بآلية غريبة، ويفرض المسار وجوده.. تتحقق الحياة في حالة واحدة، أن تنتبه النفس لرغبة وجودها أكثر من انتباهها لأسباب الشقاء.. أما هو.. فرغم وعورة الطريق وخشونة الرمال وتربص الوحوش لم يغفل عن ضجره وظلام مصيره.. ظل روحًا أبدية الحقد، تقف دائمًا عند أسباب العذاب خصمًا من رغبة الوجود.

مضطرب شديد الانطواء منذ خطت قدماه الأرض، كتومٌ بعيدٌ تصعب معرفته، ظنينٌ لا يطمئن لأحد. يشعر أنه محطّ أنظار الناس.. يريدون أن يكشفوا سره، يقرض أظافره بنهم. يرعبه البراح ويعشق الضريح. كل من رآه لاحظ أن جسمه الفتي يفوق عمره، ورغم أنه يكره تشبيهه بالخال، إلا أن كل من عاصر عوف الليبي من أهل الحارة قال إنه قوي مثله. يشعر أنهم ينابزونه به، فسِرّ كراهيته لهذا التشبيه أنه لا يريد أن يموت عاريًا. أما كراهيته لأبيه فلا يحتاج أحد للبحث في أسبابها.

منذ كان في الثامنة، كان كل من في الحارة يتضجرون منه، إما لضرب طفل أو تبجح في وجه كبير أو لضياع شيء كان هو آخر من رآه. لم تكن مشاكله تقف عند حد.. أي شيء مهما كان تافهًا يدعوه إلى الشجار والصياح، لم يكن يتهيب الكبار أيضًا.. يلتقط حجرًا أو حديدةً كيفما اتفق، ويقذف به أيًا كان. لا يسمح للغضب أن يتراكم داخل نفسه والويل لمن يحول بينه وبين خصمه.

قضاؤه على ابن العمدة كان أسطورة الحارة التي لا تقل عن أساطير الفلواتي. أضجرت الشكاوي أباه ففكر في كيفية الخلاص من هذه المسئولية، اعتمد منهج الضرب والطرد من البيت، صاحب الليل ورفاق الظلام منذ هذا العمر.

انطوى قلبه على كره كل ما هو جميل ومثالي، أيّ كمال ليس سوى ادعاء. واجه مخاوفه وحده. اقتحم الوجوه المرعبة. الضوء وهم والعالم لا يكتنف سوى الظلام.. قبل أن تطرقه الوحدة يذهب للمبيت في ضريح الفلواتي، لم يكن يواتيه النوم العميق إلا بالضريح، سرٌ خفي كان يعزله هناك عن العالم ويشمل نفسه بالطمأنينة.

تأمل كثيرًا مقامه المتواضع باحثًا عن سر القدسية المتماهي مع الشموع التي تشعلها العواقر والعوانس حول الضريح؛ فلم يمنحه الصمت أي إجابة. كثيرًا ما نام منتظرًا هدايا المقدس، لكنه لم يكن يُمنح غير نوم مطمئن لا يجده في غير الضريح.

نشب بينهما الصراع ذات ليلة حين هاج حمودة لسبب لم يدركه سلامة في وقته، لم يجد حمودة قطعة حشيش كان قد دسها بجوف المخدة. في جنون بحثه، ظل سلامة ساكنًا لا يعبأ به، انهال عليه أبوه بالخرطوم فجأة، أخذ يضرب ويضرب حتى أنهكت قواه، لم يتحرك ولم يدافع عن نفسه، لم يهرب، لم يبك ولم ترمش عيناه، لم يسرقها ولا يعرف شيئًا عنها.. لماذا لم يسأله؟

في هذه اللحظة، شعر حمودة الأفيونجي أن الزمام قد أفلت من يديه إلى الأبد. ملأه الرعب، نظرة عينيه أخافته. وقف ساكنًا أمامه لبرهة يلتقط أنفاسه، تلاقت عيناهما، صرخ مستنجدًا بأهل الحي أن ينجدوه من جبروت صمته. زعم لهم أن ابنه سلامة يريد أن يقتله فاقتادوه إلى قسم الشرطة. كانت حميتهم مدهشة وحماسهم متأججًا.. لم يدافع عنه منهم سوى عم جرجس العطار لكنه كان دائمًا واهن الرأي مخفي الأثر.

ادّعى الأب أنه يؤدبه وأنه لم يكن يقصد إلا أن يرهبه بسلطان لا يستطيع رده. أتقن التمثيل في ذلك اليوم. كادت عينا الضابط تدمعان من هذا الصبي المارق الذي يعقّ أباه؛ حبسه وأوصى المساجين أن يُرهبوه فضاع في غياهب السجن ثلاث سنوات.. نسوه خلالها ونسيهم، كانت وشائج القربى والأبوة أوهن من أن تحتمل ثلاث سنوات من الفراق.

maktabbah.blogspot.com

لم يكن في السجن مختلفًا عنه خارجه، ظل منطويًا وساكنًا. لكن إذا مسّه القلق تحول إلى كائن قاسي انتقام متحجر قلب لا يردعه شيء.

كثيرًا ما شعر أن بداخله كهرمانًا، لكنه لا يفصح عن نفسه إلا ساعة الغضب. كل مجالس التأديب والعقاب كانت تزيده سوادًا وحقدًا، سلب منه كهرمان الإحساس بالألم وكل أنواع المشاعر الإنسانية ولم يُبقِ إلا البغض، لكن ما يدهشه في نفسه إلى حد العجب أنه إذا أضواه الليل يبكي كالأطفال نادمًا على كل ما فعل.

خرج مارِدًا من بغض، بداخله مرارٌ يحتوي العالم كله، لم ينجُ من بطشه كبير أو صغير حتى صار أشد من في الحارة رهبًا واجتنابًا. تستفزه أهون الأشياء وتستثيره التفاهات فيثور ويضرب بكل قسوة، ثم يعود منطويًا على نفسه يلومها بكل قسوة، وكلما تمر الأيام قلّ اختلاطه بالناس وزادت مساحة البعد بينه وبين الحياة خارج نفسه.

خرج فوجدها أمامه، تكبره بعام، الحياة التي لطختها بالوحدة لطختها في الزحام. كلاهما

امتلأ بعشرات التجارب. كم ودّ أن يخبرها عما حدث له، كم صار سيئًا أكثر، أن يسألها عما حدث أثناء الغياب. بينها وبينه سقف سرير والليل يأكله، لذة الخدر من لمس الأيادي، شوق فطري تطور عمدًا بين سجين هارب وهاربة سجينة. كل ما مرا به في الحياة كان المقدس فيه هزيلًا، رادع الأب والأم متهتك منذ وعيا.. فسقطا.

قذارة السقوط سرّ مكتوم بينهما. كلما أراد أن يتوقف عنها راودته نفسه إليها فأطاع. لم يفلح اعتياده السري كل ليلة في ريه. كل ما عداها فراغ، لم يكن يُطفئ ناره التي تريد أن تحرق العالم حقدًا وغضبًا سواها، كانت كهرمانته.. لذته وعذابه وخطيئته القديمة التي لا تموت، سره الذي لا يتوق أن يفشيه.. وحين يقتله الإثم ويستوحش نظرة عينيها، يعدو بالذنب والظلام إلى مقام الفلواتي فلا يجد سوى الصمت والفراغ وشموع العواقر.

***

انفرد عوده واتسع ما بين كتفيه، زادته التيشيرتات الضيقة -وارد العراق التي أعطته إياها حورية الساعاتي- فتوةً وجمالًا، شعره الأسود الفاحم وعيناه الواسعتان السوداوان وأهدابه الفاحمة المسدلة أضفت عليه، مع خجله ونظرته الدائمة إلى الأرض، غموضًا وسحرًا، راق حورية أن تتحسس صدره وظهره وذراعيه المفتولين حينما كانت تهندم عليه التيشيرتات. وعلى عينيه لمعت بهجة اللبس الجديد؛ فلما ارتدى شيئًا وكان أول من ارتداه، لم يخز يومًا إلا ما يضيق على أبناء الجيران وما يتصدق به السأمان من ملابسه.

لفخته يتلصص عليها في عصر اليوم التالي من شق صغير وهي تلم غسيلًا وتنشر غيره في «الحوش». «كبرت إلى هذا الحد أيها الصبي الذي كنت أحممه منذ سنوات؟»

تفننت في التثني بين أحبال الغسيل لما رأته.. تراكمت قطع الغسيل رخيةً نديةً، كانت في مواجهته وهي تلتقط القطع.. تنتني فيتسع صدر الجلابية، تشرق كالبرق مساحة ناصعة تتخطى النديين إلى البطن والوركين، ثم تنفرد قائمةً لنشر قطعة أخرى موليةً إياه ردفها اللدن في الثوب الساتان. اشتد حبل المنشر. تعود إلى الطبق مرةً أخرى..

كلما التقطت قطعةً استغرقت وقتًا في تصفيتها في طبق الغسيل الواسع فيتدلى نهداها كالضرع الظمآن. دق قلبه بعنف. انتشر وتصلّب، كاد يخرق الجدار. سيبقى هذا البرق الناعم في ذهنه إلى الأبد. رفعت عيناها نحوه وثبتتها للحظة، وجم ساكنًا، خاف أن يتحرك، لا شك أنها تراه، خواره كاد يبلغ السماء، اتجهت نحو الشقة وعلى وجهها نظرة جامدة، دقت على الباب فارتعب، توقف كل شيء صامتًا عند دخولها.

«تعا يا واد يا سلامة شيل طبق الغسيل عشان ظهري بيوجعني».

فاجأه الطلب فاختل ذهنه للحظة؛ كان يتوقع سبابًا ولطمًا...

صارت أمامه واهنة الخطو مرخاة الزمام، جادةً تدّعي الغفلة. مشى خلفها متأججًا مستعرًا، منتصبًا كالرمح، دقات قلبه توشك أن تتقافز خارجه. احتدمت النار ولم يعد شيء قادرًا على إخمادها. تسكن في آخر بيت بالحارة، شقة مليئة بالغرف، مرصوصة كقوالب الدومينو...

على الحائط صورة قديمة لأبيها حسن الساعاتي مرتديًا ملابس الإحرام وخلفه صورة الكعبة، صورة مأخوذة في محل مصور فقير الحيلة، بدا واضحًا أنها مُرَكّبة، هل يقبل الله صور الحج المركبة في محلات التصوير؟ المتبركون بالمقام يتبادلون العري والقبل، لقد ألقاهم ربهم في الحياة ثم لم يعبأ بغير ذهابهم إلى المساجد.

في أي غرفة من هذه الغرف استهلّ علي النجار فتوحاته الأولى؟ في أي مكان يشعل إبراهيم مكواته، أين يلقي الشيخ صمويل تعاويذه؟ هل يشفيانك معًا أم واحدًا تلو الآخر؟

شملته رغبة فاحشة أن يضمها، وضع طبق الغسيل على منضدة بجوار الباب، اشتملها من الخلف باندفاع غشيم، ضم عجيزتها إلى قُبله وأنشب كفيه في ثدييها، استشعر طراوتها واستشعرت صلابته، انفلتت منه في وهنٍ مثير فأوقعت طبق الغسيل، استدارت ولطمته، لمعت في عينيها نظرة ذليلة، توقفا لبرهة.. ركلها برجله في بطنها بلا رحمة فسقطت بعيدًا.

خطا فوقها واستسلمت تنتظر، جذبها من شعرها بيد واحدة صلبة. اندعت المقاومة، جرّها نحو غرفة مغلقة وهي متعلقة بيده تئن بانكسار، خفف حمل جسدها تعلقها بيده. مر بجسدها فوق قطع الغسيل.. ارتخت.. ألقت رأسها للخلف، التقت عيناها العطشى بعينيه الصلبتين.. وسمحت للشبشب الوردي أن ينخلع.

***

اتخذه أصحابه عونًا لهم في المعارك، ويلومه أصحاب آخرون فيرد بقوله:

- أنا ف صف اللي يدفع أكتر.

- طب وحق ربنا؟

- روح اسأل عليه ربنا.

استقطبه الأستاذ عاكف عبيد بعين خبيرة واستخلصه لنفسه، استطاع إدارته بذكاء. صار محاميًا لكبراء الناس، توسعت أعماله ويحتاج إلى مثله، يجتذبه دائمًا بالعطايا ويستعمله في مهام خاصة. يحافظ دائمًا على المسافة التي تجعله لا يتخطى حدود الخادم، قد يستعمله في أرقى المهام وأخصها، أروع ما فيه أنه لا يسأل، وهو نار محرقة يوجهها حيث يشاء..

سيحتاجها يومًا، يرسله لجلب الخمر أو الحشيش وتسليك الشيشة وإعدادها ورض النار والمعسل لكنه لا يسمح له أن يشاركه التدخين.

وكما استخدم أباه حمودة الأفيونجي وعلمه، سيجد لسلامة المهنة التي سيجيدها بقية عمره والتي أسسته الحياة لها منذ البداية.

أول مؤهلات مهنته الجديدة أن يكون بلا قلب وثانيهما أن يكون طيفًا كالكلب. ليس من السهل ترويض ذلك الذئب البري، لكن من السهل إشباعه وشكم شراسته، بل واستخدامها للنبح والصيد حيث نريد، والرضا بما يُلقى إليه من عظام. والشرط الثالث والأهم أن يوافق على التوقيع على «ورق الضد». وكما برع حمودة الأفيونجي كشاهد زور لأنه بلا ضمير برع سلامة في مهنة «الكَحُول» لأنه فقد ما هو أكثر من القلب في رحلة الحياة.

***

سارت به الحياة وسار فيها بغير رغبة، لكنه كان ينجح في كل المهام. يتحمّس قليلًا في البدايات ثم سرعان ما يدركه السّقم منهم جميعًا. اكتشف مبكرًا سر الجدارة، لولا لين المظلومين بعد الضربة الأولى لما تجبّر الظالمون. لو استقووا قليلًا عليه لوقع تحت أقدامهم طالبًا نحره. عجب هو نفسه من يسر مسالكه وكثرة مشارب رزقه رغم كل ما بدر منه ويعجب من صحته وبطشه، لم يتوقف يومًا واحدًا عن تمني الموت في أي معركة.

لم يوسع على نفسه إلا في طعامه، أما السكنى والمبيت فلم يكن يظن أنه قادر على ترك تلك الشقة وذاك الضريح. يناسب سواد سقفها قلبه ويشعر بالدفء بين حوائطها الكابية، وتتفق قذارتها مع ماضيه وحاضره، يدمن رائحتها العفنة، يربطه بها الذنب والخطيئة، ضيقها يناسبه، يكره اتساع الدنيا بالخارج ويشعر بشيء ما يربطه برباط خفي بالضريح..

فليبقَ هنا ما حيا بجوار كهرمانة وكهرمان والفلواتي والصمت الذي يمنحه النوم العميق، أما السر الذي يتحرج أن يعرفه إنسان فهو أنه لا يستطيع أن يقضي حاجته إلا في هذا «الكبنيه»، على هذه «القاعدة البلدي»، مع صوت انسياب الماء من هذا الخرطوم وبيده السيجارة.. وخلفه، لا يني عن تسريب الهواء ثقبُ شباك المنور.

ميكا

«وتينة غضة الأفنان باسقة

قالت لأترابها والصيف يحتضز

لأحبسن على نفسي عوارفها

فلا يبين لها في غيرها أثز

إني مفصلة ظلي على جسدي

فلا يكون بها طول ولا قصز

ولست مثمرةً إلا على ثقة

أن ليس يطرقني طير ولا بشز»(6)

يفقس بيض التماسيح فيبحث الوليد الصغير عن صيد منذ اللحظة الأولى، إن لم يقتنصه هو نفسه قانص. يزحف نحو الماء بالفطرة والضرورة ويشمله النهر الكبير بالحياة والرزق. قد تحمل الأم أبناءها في فمها الواسع حتى البحر.. أما هذا، فقد تركته نجية منذ اللحظة الأولى لتصاريف الحياة.

كزرعة نشأت بلا ري منتظم، ونبتة اختلست القليل من ضوء الشمس لتعيش.. منذ وُلد، والجوع معركة نضاله.. لعل هذا هو التفسير الأنسب أن جعل الطعام والثراء هدفا حياته. أرضعته نجية قليلًا ثم تركته للطريق والحياة، يأكل ما اتفق، ويشرب ما اتفق، ويلبس ما اتفق أو يسير عاريًا.

كانت أكيدة من رعاية كهرمانة لنبوءة أخيها الغالي وكانت تؤمن دائمًا أن الله الذي خلق الأطفال كتب لهم رزقهم وحياتهم وموتهم حين أتموا اليوم الأربعين في بطون أمهاتهم. هذا ما أخبرها به فرج بناءً على فتوى الشيخ الذي كان يخرج من صلاة الفجر فيأكل سندوتشي الفول وفحل البصل ويأبى فرج أخذ الحساب منه تبركًا، فأصبح يأكل أربعةً ويعلمه شيئًا من الدين، هذا ما فعلته مع سوكة وسلامة ومنى..

والذي خلق الأسنان خلق ما تمضغه.. هذا أيضًا ما علمها المرحوم حسن الساعاتي مؤذن المسجد حين راحت تشكو إليه ضيق الرزق وكثرة العيال، ففتح فمه فجأة ومدّ فكه الأسفل للأمام فأدهشها تصرفه، أشار إلى ضروسه الكاملة رغم تخطيه الستين حينها وقال: «اللي

وأكثر ما يبعث على الاطمئنان، أن دكان عم عبده في نهاية الحارة على طرفها الأيمن. على بابه يجلس دائمًا، يرد أي طفل أوشك أن يخرج إلى التيه والبراح. وفي قلب الحارة قلبان نابضان لا يسمحان لطفلٍ أن يجوع أو يفوته طعم الشاي بالحليب: الحاج حامد والست رقية. ثم إن أخته منى قد أتمّت الثامنة، يمكنها الآن أن تفتح بيتًا ثم تكون أمًا بعد عام أو عامين.. ورقية الأخ المقدس حافظة.. أما الأهم الآن، فهو أن الكل لا بدّ أن يكون متنجًا.. حتى الصِغار مشاريع كبيرة، والله حفيظ.

عندما استطاع السير على قدميه كان حمودة الأفيونجي يصحبه معه إلى المقهى ليبهر الناس بسفالته الشديدة مقابل شلن. يشتم أي شخص مهما كان مركزه، وحمودة يضحك ويباهي. فإن أعطاه المشتوم شلنًا آخر يشتم الأول. أما البريزة، فبها لا يشتم فقط، بل يسب ويبصق وربما أخرج «البلبلة».

توجه إليه إبراهيم الكاشف حازمًا وسحبه من يديه بعنف فقال حمودة مازحًا: «ها.. عاوز شتيمه ولا بلبله؟»

«كده عيب.. عيب.. فاهم؟ إوعى تعمل كده تاني».

كانت عيناه مرعبتين..

ظلت نظرته في خياله إلى الأبد..

***

نما والقرش والشلن والبرايز هدفه الأول. خانة الجوع هي الفراغ الذي كرّس حياته كلها لملئها. استقطبه المعلم أبو سالم، فطحل تجارة الحشيش، لخدمته حين بلغ العاشرة، يفعل أي شيء من أجل المال. لا رقيب فوقه يخشاه، ثمنه إذا ضاع حفنة من الجنيهات يتهلل لها الأب والأم، أبعد الناس عن شك المباحث. وكلما زاد الخطر يزيد السعر فيزيد احتماله وإقدامه.

ظل ميكا شديد الحرص والبخل. لا يعرف أحد أين تذهب كل هذه الفتافيت ثم الألوف التي يجمعها، كثير الجمع قليل الصرف، كل الناس في عينيه مصادر دخل. الحياة لا تعبأ بغير الأغنياء، أما المعدم الفقير فيسلّي أبوه الناس به كالقرد المسلسل.

لم يخف على نجية امتلاء جيبه وصحبة المعلم له، قلّما غفلت عما يحدث حولها، لكنها تعشق التجاهل وتعرف متى يكون التدخل وكيف يكون. تضجر بالفعل من قليل منحه لها وقلة عطاياه، أقلهم فائدة لها وأكثرهم حذرًا أن تعرف مخابئه، تعلم أنه يكرهها، ينقلب وجهه

عند اللزوم لحيوان مرعب، دائمًا يذكرها بإهماله وتركه، فعلت معه ما فعلته معهم جميعًا، لكنه الوحيد الذي أوكلت حمايته لنبوءة كهرمانة.

تخاف أن تقربه، لكنها تستطيع أن تقرب المعلم أبو سالم، مرّ من أمامها فقالت بعهر: «معرفش أدق التوم، إلا بقميص النوم.. العين الفارغه ميملهاش غير التراب».

أقبل نحوها المعلم كالفحل.. أرهبها قربه فصمتت، كان لقاؤهما القديم أشبه بجبلين يصطدمان..

«جرى إيه يا مره يا عايبه؟ اوعي تنسي نفسك».

***

لم يكن للحنان في حياته سوى مصدر واحد، لكنه قليل الظهور شديد العناء: منى. تظهر مرةً أو مرتين في كل شهر محملةً بأطعمة ساحرة المذاق وحضن دافئ. يضنيه شعوره الغامض أن شيئًا فعله سلامة كرّه إليها البيت، ليته يفهم ما يبكيها أو ليته يستطيع لها علاجًا.

في الليلة الأخيرة، بقيت طوال الليل مسهدةً وهو مكوّم في حضنها كالقط، مسحت دمعها وأرسلته من حضنها فجأةً ثم قالت: «ميكا.. أنا عايزاك تتعلم حاجةً واحدةً في الدنيا، إنك تعرف تقول لأ، عايزاك تكبر وتتجوز ويبقى عندك عيله وعيال تفديهم بروحك، الخال والد يا ميكا، أحلى شقا هو الشقا ع العيال يا ميكا».

أما حمودة، فما زال يطير فرحًا به إلى السماء؛ فجيبه الآخر لا يخلو من بعض بقايا أصابع حشيش يختلسها أو يرسلها له المعلم أبو سالم، كلما زاد دوره زادت قطع الحشيش حتى وصلت إلى «صباع» كامل.. «آه لو يخبرني أين تذهب أمواله أو أين يخبئها، ولماذا هو غامض وبعيد ولماذا لا يصحب أباه أيضًا إلى محمود الكبابجي؟»

توسع نشاطه واستقل عن المعلم.. عرف السكك المؤدية إلى النجاح. الوقت قليل في هذا العالم، لا مجال فيه للخطو بل للوثب. احتاجت الأموال التي تزيد بلا حدود إلى نشاط يخفيها فعمل بالتجارة، أي تجارة، الملابس وكماليات السيارات وقطع غيار السيارات والسيارات والكمبيوتر. كلما نضج وكثر ماله نضجت تجارته، عوّض جهله بماله وبالاستعانة بالصبيان «المتنوره»، أو كما كان يسميهم: «العيال اللي أهلهم صرفوا عليهم، مش تربية الشوارع».

فكّر كثيرًا أن يوكّل لأحدهم مهمة تعليم أمل، يريد أن يراها بهذا الشكل وأن تتكلم بتلك الطريقة، وتستخدم تلك الإيماءات المدهشة المتعالية، وترطن بتلك اللغة الأجنبية، وتحرك

وجهها هكذا في حضارة، وتزم شفتها السفلى هكذا وهي تنكر تصرفًا أو معلومة.. ويا سلام لو استطاع أن يختار لها من بينهم زوجًا:

- عارفه يا أمل؟ انتي هتبقي صاحبة شركة.

- صاحبة شركة؟!

- هتشوفي.. مفيش حاجة بعيدة عن ربنا.

---

(6) إيليا أبو ماضي (قصيدة التينة الحمقاء).

شهادة ميلاد

ضربت له رشا مرجان موعدًا مبكرًا عند الباحة الواسعة في ميدان النافورة.. العابرون قليلون. يشرف مبنى قسم الشرطة على المكان من جهته الشرقية، القرب من القسم قد يمنحها فرصة الاحتماء. في الجهة الأخرى مستشفى الصدر منطقة آهلة بالبشر، لكنهم لا يستيقظون قبل الضحى، لم يكن أساشا ينام قبل هذا الموعد. هي أيضًا قضت ليلتها ساهرة تفكر.. ماذا لو لم يستوعب قصتها؟ ماذا لو تركوها تضيع أيضًا بلا ثمن؟ أتضعها بينهم في مكان آمن أم توحلها في نفس الماء الآسن؟ أيكون هذا القلب المتحجر أحن عليها من الأيام؟

أتت بها حين كانت «منى» خاضعةً لمرحلة تشريح امتدت خمسة أيام.. حددت لسلامة موعد ومكان اللقاء في الليلة السابقة. لم تشرح له أسباب اللقاء: «ستعرف حين نلتقي». منحت نفسها فرصةً أخيرةً للتفكير في تلك المهمة، ليست مقتنعةً بتنفيذ ما أضمرته.. ليسوا أهلًا في كوكبهم المظلم لاحتضان القمر.. لكنه قمرهم، وتلك هي الوصية.

أطاعها فور طلبها لقائه، مجرد مزاملتها لمنى في آخر العهد منحها قدسية الطاعة.. على الأقل والدم طازج لم يجف بعد، والحزن يطوي النفس في مرارة.

عندما اقتربت بها اندهش، ألقى السيجارة من يده وانتبه. سلّمته إياها بغير أن تنطق، من أول لمسة شعر أنه يعرفها، تفحصها قليلًا، انتابته رجفة مربكة حين لمسها. إحساسان متناقضان، أراد أن يرميها وأراد أن يحتضنها ويبكي؛ جائزة لا يحق له حملها بيديه التي دنستا منبعها الصافي. أراد أن يعتذر وأراد أن يهرب.. للحظة، ألحّت عليه فكرة قاتمة، ذاكر ملامحها والرعب يملؤه.

طمأنته رشا أنها ابنة «Bastard» آخر، استوضحها فقالت: «كلب تاني». تقبل الإهانة في صمت. بدأ الاستماع إليها صاغرًا، سمع قصة شقيقته كأسطورة خرافية يسمعها لأول مرة... أرادت لها أن تنشأ في بيئة مختلفة لكن القدر لم يمهلها وكان الموت أسبق. لم يكن شيء لديها في الحياة ذا قيمة ولم يكن لها بها رابط. ألقت نفسها حيث ألقتها الظروف، لم يكن هناك من تلجأ إليه. كانت تتبع كل ريح وترسو حيث ألقتها الأمواج.. لا همّ لها إلا أن يمر اليوم وتنتهي الليالي.. كلما التجأت لهذه الأم لم تمنحها سوى الفراغ..

بعض الأمهات حضنهن فراغ بارد... حاولت ذات ليلة أن تخبرها عن الخطر المحيط بها وعن تخبطها وحيرتها وحاجتها لمشورة الداعرة القديمة، لكن نجية استمعت إليها بين النوم واليقظة بتلك النظرة اللاهية، ثم هزت رأسها وقالت: «الصباح رباح».

تنازعها رجلان واستسلمت لكليهما. كانت تعرف أن الحياة انتزعت منها خاصية الرفض.

كانا يتنافسان عليها كدمية ولم يكن أحدهما ذا بال لديها.. حين تغشّاها حملها تغير كل شيء: في البداية أحزنها أن تُلقي ابنًا في هذا العالم، لكنها اتخذت قرارًا أن تصنع لوليدها حياةً جديدةً ليس فيها التهاء الأم وغيبوبة الأب ونهش الشقيق وخيال قديم من براثن خال...

«كل ما كانت تريده أن يكون لوليدها مكان وسقف.. وأن يشمله ذلك القانون الخفي الذي ضمن لهم المأوى في نهاية كل ليلة.. فكرت فيكم حين شعرت بالخطر. أتعرف أنها كانت تظن جحركم هذا الحقير مأوى! ادّخرت مالًا وأرادت مالًا أكثر.. يعرف من عاش عيشتها معنى أن يولد الطفل ثريًا».

أغدق عليها كلاهما، ليس حبًا ولكن لمجرد ألا يمتلكها الآخر؛ كانت أيقونة التحدي بينهما. كان المال بغيتها فلم تبال على أي شط ترسو السفينة. أنت لا تعلم ماذا يحدث حين يتنازع على أمثالنا نوو السلطان.. لسنا في أعينهم أكثر من قطعة أثاث، جورنًا يرتدونه قليلًا ثم يشمئزون من رائحته، حيوانات في قفص.. بل إنهم يعاملون قططهم وكلابهم بمودة أكثر.. أو اقتناءً مؤقتًا كأعقاب سجائر يلفظونه بحقارة بعد دفق مائهم..

خططت أن تذهب بابنتها بعيدًا وأن تشعرها بالدفء.. ازداد احتياجها للمال أكثر حين أنجبتها. اشتد الصراع بين المتنافسين عليها، بذخ وسطوة وسلطان بغير حدود.. قد يمنحان الملايين بجرة قلم في سبيل نزوة تافهة، لكنهما قد يقتلان أسيرهما من أجل رباط حذاء. قبل أن تتم ابنتها ثلاثة أشهر، علم أحدهما أنها لدى الآخر في شقته البعيدة فأوداها بطعنات ملأها الغل والغرور «أتتركيني أنا يا كلبة؟»

تمتع بعذابها قبل أن يقضي عليها.. لصق فمها بشريط لاصق. جذب كرسيًا بلا مسند، جلس أمامها بدم بارد، عاتبها كثيرًا، وفي نهاية كل جملة كان يشرط مزعة من لحمها بمدية.. أتاها باحتقار وهي تنزف.. لم يقض عليها إلا حين مل العتاب ودفق الدماء واتسعت الجراح، تقززت نفسه وغابت هي عن الوعي.. وتمزقت بشرتها بشكل لم يعد يطيقه.

فرّ الآخر.. لم يزعج نفسه بمجرد الدفاع عنها بكلمة واحدة.. لم يكن هناك ما يستحق أن يقف لأجله. كان حرصه الوحيد ألا يرد اسمه في التحقيقات.. إن كان هناك تحقيقات. وبالفعل، لم يُذكر اسم أيهما في التحقيقات واتُّهم بالقتل والاغتصاب عامل بناء فقير في المبنى المجاور.

كان أشد ما تخشاه أن تموت عاريةً. كانت تتعشم أن يمنحها الله لحظة توبة قبل النهاية؛ تدرك أن الله يعلم أنها لم تجد طريقًا آخر، وأن الله أرأف من كل أحكام البشر، وأنه سينظر لها في النهاية، سيشير إليها ويقول: «تعالي أيتها النفس التي لم يرفق بها أحد، أيتها الأنفس

التي حكم الجميع بأن النار مثوى لها، تعلقوا باسمي الرحيم واسكنوا في مساكن الذين ظلمهم الناس.. لقد خلقت الجنة والنار في النهاية حتى لا يكون كل هذا الشقاء عبثًا».

استمع إليها كالمسفود، كانت عيناه ثابتتين كالأصنام.. كل هذا الذي يسمعه يتوافق مع حقارة الحياة وقسوتها. دهمته عيون مُنى.. مُنى.. ملأه الغيظ والحنق والاستهتار.. كان ناقمًا على الله والدنيا والدفء والعائلة والأب والأم والروح القدس، وقف جامدًا كالرخام، ولما انتهت إلى حديث التوبة امتعض.

لماذا يفضل الله أن يظهر في المشهد الأخير؟ ألم يكن هناك حين كانا يمزقان لحمها؟ أنا لم أره ولم أشعر به حين عرّانا الخال.. لم أشعر بدفء وجوده في غياهب السجن الباردة، ليته فقط قبل أن ينطق الحكم الأخير، إن كان هناك، يدلني على أماكن الأوغاد ثم يلقينا جميعًا في الجحيم...

استأنفت رشا: «وضعهما الاجتماعي العالي وحقارة القتيلة في عيون الناس كفلا لكليهما النفاد من العقاب».

خافت أن تخبره عن اسميهما، لكنها بعد إلحاح أنبأته أن أحدهما هشام مصلح «الهارب»، والآخر محسن عزت «قاتلها»، رجل أعمال وسياسي.

«ملاعب الكبار لا تقبل بنا إلا كمهرجين وخدم، أما أن تكون لنا حياة فلا».

التقط الطفلة بوجلٍ والخوف يملؤه.. ضمّها بشعور لم يسبق أن شعر به، أحس بالجلال والحقارة والضياع والأهمية في الوقت نفسه.. ربما ينتابه الخوف للمرة الأولى.. يشعر أنه أذى وأنها طهر خالص، أولى به أن يبتعد عنه. أراد أن يتخلص منها وأن يضمّها بقوة.. غالبته الدموع وتسابقت إلى روحه الضحكات، مات وحيا من ملمس البشرة الملساء..

maktabbah.blogspot.com

تململت في يديه فشعر بضعف لم يشعر به من قبل؛ يخشى أن يمتد الدنس الذي لطخ به أمها إليها.. لا يذكر أنه وضع عينيه في عيني منى مرة واحدة، لكن هاتين العينين آسرتان، احتضنت الصغيرة إصبعه بكفها الصغير.. لمع في قلبه نور غامض المصدر فجأة، رفع عينين كابيتين وقال لها بحزن: «ريحتها حلوه! ريحة بنت ناس! أخيرًا بقى ف حياتي هدف».

تركت له مالًا وبعض مصاغ كانت منى قد ادخرته لديها، وأسلمته شنطة فيها ملابس الصغيرة وأوصته أن ينفقه على «أمل».. هكذا أرادت لها أمها أن تُسمّى.. تمنت أن تراها يومًا في لبس المدارس وأن تحمل الكتب وترسم. أسلمته شنطة تحتوي رضعة الصغيرة وبعض ألبان وهاتف شقيقته المحمول..

«ربيها على نضافه يا سلامة!»

نظر إليها نظرةً مستهينةً: «وليه متربيهاش وسط عيالك؟ تلاقيك عندك دستة من كذا أب، ولا خايفة تضيعيها زي ما ضيعت أمها؟»

لم يكن في قلبه نبضة واحدة لا تضخ سوء ظن، حتى في هذه اللحظة التي تمور فيها روحه.

فاجأها كلامه وتوقيته وطريقته.. هو نفسه فُوجِئ بخيبة السؤال وتفاهته، شعر أن الأمر كبير وأنه خاوٍ فقال أي لغو.. هرب مما لن يستطيع أن يهرب منه منذ الآن.

أعادته نظرتها إلى حقيقته، سددت إليه نظرة جمعت كل احتقار وغضب العالم وقالت بحقد: «لعلمك.. انت أولى بالقتل من الكلبين التانيين.. عارف ليه؟ عشان انت جرحها الكبير.. مش محسن عزت، مش هشام، مش عوف الليبي.. انت اللي أكلت لحمها ني.. مغطيتهاش.. كلكم كلاب.. مفيش مره واحد فيكو خدها ف حضنه».

لطمها بقسوة فارتطمت بالأرض وكادت أمل تطيح من يديه.

ما إن نطقت باسم عوف حتى انتفض كالكلب العقور.. انفجرت الذكرى كلغم مطمور.. وأطلت يدٌ قاسية القبضة من ماضٍ سحيق تخنقه بلا رحمة، ليس سرًا إذًا.. اقترب ليركلها لكنه لم يستطع أن يصمد أمام قسوة نظرتها.. تذكر أنه بجوار القسم..

مضى مبتعدًا.. ظلت عينا الصغيرة أمل عالقة بعيني رشا حتى اختفت.

***

استخرج لها شهادة ميلاد بتاريخ 1/ 1/ 1996 وفي خانة الأب كتب اسم أبيه حمودة..

أمل حمودة.. بريق الاسم أعجبه، رغم أنه يحتوي اسم أبيه الكريه.

التقطتها نجية وألقتها بين السجاجيد ومحتويات الشقة: «تعيش زي ماحنا عايشين».

علّق حمودة تعليقًا مقتضبًا: «وماله، يعني هي جت عليها وحنقول لأ»

غوملت على إنها ابنة حمودة الأفيونجي ونجية العفش.. وردة في أرض عطنة سرعان ما علاها الطين وشملها ناموس العائلة. انشغل عنها سلامة من أول النهار لآخره.. انغمست في دورة حياتهم.. يطلع النهار فتخرج إلى الشارع حول البيت عاريةً أو حافيةً.. والأم تبيع الجرائد والأب يذهب إلى المقهى غير مرغوب في وجوده لكنه لا يبالي وكل الأشقاء يسرحون.

عندما بلغت السادسة ألحقها بمدرسة سر الدين الفلواتي التي لا تبتعد عن الحارة إلا مسير أقدام.. شقيت باسمه لأنه -كما نقشوا على رخام الضريح- «أنهى حياته والسيف في يده.. بعد أن حطم ممالك الطغاة».

استيقظوا جميعًا بعد عدة أعوام للاحتفال بها في الزي المدرسي.. أول تلميذة في عائلة الأفيونجي، حرص سلامة على اصطحابها في اليوم الأول، كانت بهجة رؤيتها في ملابس الدراسة أنقى في قلبه من أي شعور.

احتفلوا بها جميعًا، جهزت لها نجية السندوتشات وأعطاها حمودة جنيهًا كمصروف، تقمص كثيرًا دور الجد معها واشترى لها الكثير من البسكويت والحلوى، كان حريصًا أن يعدد أكياس الحلوى وهو يضعها واحدًا واحدًا في شنطة المدرسة.

في ذلك الصباح، تمنى سلامة أن تراها منى، أو أن تعرف إلام صارت الأحداث، شعر أنها في مكان ما حوله.. بطريقة لا يفهمها لكن اليقين بها يملؤه.. لعل ثقبًا في السماء أو في بطن الأرض قد أطلّ منه طيفها.

***

في الحارات المغلقة ذات الفتحة الواحدة، يتعايش الناس كأسرة واحدة. ورغم تجنب أهل الحارة لأفراد هذه العائلة، احتووا جميعًا أمل، فهذا يطعمها وهذا يرضيها بلعبة أو بقطعة بسكويت.. وحولها وعليها، يتخوف سلامة خوفًا إلى حد الجنون أن يكون بها ذئاب جدد يحكون أسطورة الفرخة والبيضة.

الظلام

«اقتلوني يا ثقاتي. إن في قتلي حياتي. وحياتي في مماتي. ومماتي في حياتي»(7).

لم يكن شيء يرهق نفسه مثل الظلام، عوف وكهرمانة وصراخ ماجدة الذي كان يشق الليل فتسري الرعدة في ظهره. برودة السجن ووحشة البعد عن أي رفيق، السكون والجنون والحبس الانفرادي، عزلة الذنب والحقارة التي تفرض الصمت وتكبّل الروح. يحاول أن يرهق نفسه طوال النهار حتى ينهد ليلًا، لكن النوم عصي.. يغفل لحظة أو لحظتين، لا يدري، ثم يبقى الليل كله يقظًا يقارب الجنون.

داهمت قوة من الشرطة شقتهم تبحث عن ميكا، انتفض سلامة من فوق سريره وثبًا إلى الأرض، كما كان يفعل أيام الإصلاحية، متصلبًا «وضع انتباه». لم يجد الضابط ميكا، لكنه لم يغفل هذه الوقفة التي وقفها سلامة. تشفم انضباطه فوجده إثر حبس، رفع الملابس عن عضده فوجد علامةً قديمةً لا تُمحى من أثر السجن فأخذه معه للبحث في صحيفته الجنائية.

في الطريق، لم تعطف عليه العيون؛ كلهم يعرفون جبروته، لم يكن هناك غير الشماتة. النهار جاف والشمس لاهبة وهمسهم يرى العدل في عذابه. تذكر يوم قيدوه وأخذوه للقسم تأييدًا لحمودة الأفيونجي. لم تبحث عيناه عن أبيه أو أمه بل كان محتاجًا لرؤية عم جرجس، لكن محل العصير كان مغلقًا.

ثلاث ليال قضاها داخل التخشيبة. لا يذكر أنه قضى لحظة منها جالسًا أو نائمًا، بل قلقًا يذرع الزنزانة جيئةً وذهابًا، لا يدري كيف احتمل السجن ثلاث سنوات سابقة! يكاد ينفجر فيحطم الجدران أو يصرخ صرخةً تبلغ الأرض والسماء والبحار والصحاري، أوشك على الجنون. الموت أهون من الحبس مرةً أخرى. ضرب الحوائط وصرخ: «مش هاتسجن تاني». وقبل الجنون أخرجه الأستاذ عاكف باتصالاته الواسعة.

أينما سار تلاحقه الريبة، لا يدري ماذا يجدون في وجهه من علامات. حتى في الأماكن البعيدة يشعر بامتهان العيون «وجر الشكل». عاد في إحدى الليالي متأخرًا من مهمة أرسله فيها الأستاذ عاكف فأوقفت لجنة مرور الميكروباص الذي ركبه، أنزله الضابط دون الباقين وفتشه تفتيشًا ذاتيًا متقنًا ومهينًا في الشارع. رغم أنه لم يجد شيئًا طلب منه أن ينتظر في سيارة البوكس، شعر أن الحياة تذكّره دائمًا بحقيقته.. حقير مريب تكتشفه العيون وتلفظه الأماكن. تملؤه الكآبة حين ينام وحين يصبح.

أنقذه اتصال تليفوني من الأستاذ عاكف أيضًا. أدرك بعد العديد من التجارب أنه ليس شرطًا أن يجدوا معه شيئًا ليستوقفوه، شيء ما في وجهه لا يروق للضباط وللحياة نفسها.

خرج يومًا على غير هدى، ففمت أنفه وعقله ذكرى سخونة كوب شاي بالحليب لا تتقنه غير «الست رقية»، ماما رقية كما كانت تحب أن ينادوها، عندما خلق الله أمًا كهذه، لم يعش لها أبناء.

تداهمه دائمًا رغبة قوية بلا تفسير في قتل الحاج حامد وزوجته «الست رقية»، نفس الحقد الذي يملؤه تجاه عم عبده وأبنائه، كلما دخل إليهما قابلاه بنفس الترحاب، معبد الدفء والحنان، كوب شاي بالحليب.. أبيض كنور الصبح تخالطه شمرة كامنة ولا تطغى عليه، وترقد آمنة على قمة الكوب قطعةٌ شاعريةٌ من القشدة، ودائمًا تشع منه المحبة.

كانت جالسة وحدها، بنفس هيئتها القديمة المطمئنة. تمر السنون وهي هي. كيف يواقعك الحاج حامد أيتها العجوز البدينة؟ إلام تذعنين الزهذ والعفاف؟ أي الأوضاع تريح ساقيك السمينتين؟ وكيف دوي تلاطم الأفخاذ؟ قل لي أيها الشيخ البعيد، أتسمح لي أن أواقع زوجتك أمامك، ألا تشتاق لسماع أنينها؟

رأت في عينيه نظرةً فاحشةً فاستوقفته بنظرة حادة أرعبته. خلفها، رأى صورة ابنها مهند. مات في مثل عمره الآن، شعر أنه صغير جدًا، أفاق على صحراء قاحلة.. مقفر الروح في فراغ متسع. ظلّت عيناها جامدة مرعبة كالصخر المدبب.. سحقه الصمت، خرج من بيتها صاغرًا كامدًا فارغ النفس مسحوب الحياة.

مشى مطأطئ الرأس كعادته، لكنه شعر أن كل العيون عليه، تحتقره وتعرف قبح نيته. ما أنت سوى دنس مطلق، عار على كل الأماكن، شر محيط بمن يقارب، حتى الزكية الطاهرة الثكلى أيها الكلب العقور.

لمحت عيناه على البعد أمل، كانت جالسةً فوق فخذ عم عبده الخردواتي، يطعمها بيديه قطعةً من شوكولاتة. هرع نحوه كالمسعور، التقت عيناه في الطريق بعين عوف الغائبة في تهاويمها، سواد سقف الغرفة وخلاء الوجود، حيرة الحبيبة والعجز عن التفسير. لم يفق إلا والرجل دامي الوجه والناس حوله يتعجبون من هذا الذي يضرب رجلًا في عمر أبيه.

وقف حائرًا لا يدري ما فعلت يداه. لم يجرؤ على التفسير. اكتشف أن الذي ضربه كان عم عبده، ليس رجل الأعمال ولا السياسي، ليس عوف الليبي ولا الأفيونجي، ليس من فقأ عينيه في الزنزانة، وليس هو نفسه، ليس الفراغ الذي احتواه فلم يعد هو هو. هرب إلى بيته يريد أن يحتويه أي مكان.

وصل ابنا عم عبده رضوان وعاطف متتابعين بفارق لحظات.. أحدهما خرج من المسجد والآخر عاد من المدرسة.. هالهما ما رأيا.. اقتحما الشقة وهجما عليه بكل قسوة.

ظلّ على سكونه.. لم يقاوم؛ أعجزته النظرة الجامدة كحد السكين وصورة مهند في هيئته الملائكية الصافية خلفها. عشق انهزامه وعطف على ضاربيه، شملته رغبة عارمة أن يبذل جسده لقسوتهم.. وذ أن يحتضنهما.

لم يكتفيا بضربه في شقته، سحباه إلى الشارع ليضرباه أمام نفس الناس، مضى في أيديهما صاغرًا كالأسير.

ما كان هذا ليرضي حمودة ونجية اللذين انضما للمعركة. صاحت نجية بصوتها الحيالي: «يا أحمد يا عمر.. سيبوا الواد يا عالم يا وسخه».

كانت هذه مقدمة الموشح، أفحشت بعدها باللفظ والإشارة، نشرت شبشبها في يدها كالسيف وبدأت الهجوم، عيّرتهما بماجدة. ووجد حمودة أخيرًا شيئًا يستغرقه، ادّعى فرج العقل والحكمة لما رأى كفة المعركة في غير صالحهم: «يا جماعه.. ميصحش كده».

انتهت الموقعة بهزيمتهم هزيمةً قاسيةً. تُرك سلامة على الأرض بلا رحمة. دخلت نجية وحمودة الشقة وحدهما. أخرج حمودة من جيبه عملةً معدنيةً وأشعل حولها نارًا بولاعته ثم كشفت له عن ظهر عار مقوس وراح يخط بالعملة فوق ظهرها خطوطًا كعلامات الكرابيج، ادّعت في القسم أن رضوان وعاطف حاولا اغتصاب أمل، واقتحما الشقة ليجبراها على تسليمها لهما؛ قاومت فجلداها.

كشفت ظهرها الممزق بفعل كرباج عاطف، بكت لفقدها في هذه المعركة قرطًا ذهبيًا أعطاها إياه المرحوم المبروك عوف الليبي شقيقها، وادّعى حمودة أنهم حطموا ضلوعه ولم يرحموا شيبته.

منظرهم البائس وعلامات المعركة على أجسادهم والسبق في تحرير المحضر جعل موقفهم القانوني في غاية القوة. وأسقط في يد عم عبده وابنيه الذين يوشك البوليس أن يداهمهم في أي لحظة. تدخّل كبراء الحي للصلح، ولم يرض حمودة أن يتنازل عن المحضر وصاح فيهم: «القول مقطوع والكلام خلصان، محدش ليه عندنا خاطر».

لم يشغلا بالهما في تلك الليلة بمبيت سلامة بالعناية المركزة بالمستشفى إلا بالقدر الذي يؤجج غضبهما ورفضهما للصلح. لم يشارك سوكة في الأمر منذ عرفه، ذهب للاطمئنان على أخيه في الليل ثم ذهب إلى عم عبده فوجد حوله رجال الحي، قابلوه بوجه مستهتر داهمه المعلم أبو سالم بكلمة صدمته مرارتها وكشفت قلة حيلته: «والله احنا مش عارفين لك لون..

ما دام مش هتمشي عليهم كلمه، يبقى جي ليه؟»

الشخص الوحيد الذي قُبلت وساطته لإنهاء النزاع كان نبيل، دخل ومعه زوجته ماجدة التي افتقد رؤيتها الجميع. اعتذرا بكلمات لطاف، أقنعا عم عبده بالاعتذار فوافق لقدرهما وخوفًا على ابنيه، ملأ ابنيه الغضب، لم يريهما أبوهما على الخنوع وقبول الظلم وحبس الحق داخل أفواههما.

كيف يُضرب؟ لكنهما استمعا لحكمة الشيخ نبيل وصوت العقل لما علقا أن الحبس قد ينتظر أباهما.

توجه عم عبده مع حشد من كبراء الحي ففاجأتهم نجية وسبقتهم بخطوة.. أغلقت دونهم الباب. ردد حمودة من خلف الباب جملة حفظها في المحاكم: «القانون لازم ياخد مجراه».

كَبُرَ في نفس المعلم أبو سالم تاجر الأخشاب تصغيره وغلق الباب بوجهه فأسمعها كلمة كادت تشعل معركة جديدة: «صحيح.. القحبة داديها والحرة عاديها».

سمعت، ولكنها رأت أن من الحكمة ألا تصطدم بمثل المعلم «أبو سالم».

لم يقبلا التنازل إلا بعد أن أخذا ثلاثة آلاف جنيه تعويضًا عن تلفيات أثاث الشقة وكسر ضلوعه وإهانة زوجته وضياع القرط المقدس.

وكانت البداية فاتحة الخير على حمودة الأفيونجي، اهتدى للمهنة التي أتقنها باقي عمره.. المحاضر.

---

(7) الحسين بن منصور الحلاج.

التجلي

اهتدت العائلة أخيرًا إلى ما يمكن أن يجمعها، وجدت النار المتأججة في صدورهم منذ خلقوا متنفسًا، اختلاق وتصعيد كل خلاف. براعة فطرية في الاقتحام والادعاء والبطش والغلو في الانفعال. كانت كل المؤهلات كامنةً فيهم والأرض خصبةً.

لا مانع من علقة أسبوعية توفر ألفًا أو ألفين.. خلفهم دائمًا الأستاذ عاكف، محام داهية، كهرمان، يعرف كيف يستل الشعرة من العجين. عرف كيف يستخدمهم، الجسر الفاصل للعبور بين ما هو قانوني وما هو غائبي، كثير من القضايا يمكن حسمها قبل الوصول إلى المنصة، الخوف سلاح ماض والجبناء يصنعون الطغاة ثم ينصاعون لهم.

تستطيع عائلة مثل هذه أن تكون أشد حسمًا من قاض ينظر الأوراق بدقة، الشيكات التي يراوغ أصحابها يمكن لبعض الإرهاب أن يقضي فيها بحكم مستعجل، والمستحقون العاجزون عن الوصول لغاصبيهم يتمنون التنازل عن بعض مستحقاتهم لنيل بعضها. البحار واسعة.. ولدي سباحون مهرة.

وبعد أن كانت حبيبة الكل، صارت أمل أكثر الأطفال نبذًا في الحارة التي يتحاب فيها كل السكان إلا عائلة الأفيونجي. لم تعد تفهم ما يحدث وماذا تبيع الآن، تتبدل الأشياء حولها وتتبدل نظرة الناس والأحوال، لكن نظرةً واحدةً تخيفها وتنشر الرعب والدهشة في مفاصلها كلما صادفتها: نظرة عاكف عبيد.

توسع النشاط، أصبحت المعارك حيثما اتفق، نضجت لعبة جر الشكل وأصبح لاعبوها محترفين يستطيعون ممارستها في كل وقت ومع أي شخص مهما كانت مكانته. أسلحتهم كفاءة حمودة واندفاعه وبأس سلامة ومعارف ميكا من الذين يجدون الشهامة كلها في الالتفاف حول الصاحب، حتى لو كان في الوحل.. أما السلاح الأشد مضاءً من كل هذا وأفتك، فهو لسان نجية الذي يفوق سمه الأفعى.

***

لم يشارك سوكة في كل ذلك لكنه لم يكن بعيدًا رغم ذلك، يشمله الناس في أحكامهم واحتقارهم وتجنبهم لعائلة الأفيونجي، غائص في الوحل إلى منتصفه لا يستطيع الولوج منه ولا الرجوع. لم يعد لومه الدائم نو الصوت الهادئ مقنعًا لهم، كان كالنغمة الساكنة في سيمفونية حادة الصخب، لكنه رغم ذلك، شاء أم أبى، جزء أصيل في صخب اللحن العام.

ضاق بهم وضاقوا به، يشعر بالاختناق كلما وصل البيت. لولا أنه العائل الحقيقي الوحيد،

رغم أنهم لا يشعرون بذلك، لقرر الرحيل. أعقوق أن يترك هذا الفناء؟ ذهب إلى المسجد، ظل قاعدًا بعد انقضاء الصلاة؛ أراد أن يستشير صديقه الشيخ إيهاب حسن فيما يمكنه أن يفعله ليبرأ من كل ما سبق، ليكون إنسانًا جديدًا.. قال له الشيخ بعد أن أنصت إليه جيدًا: «قالت العلماء: التخلي قبل التحلي».

- معلش.. فهمني أكترا

- لم يدرك موسى اليقين إلا بعد أن ألقى العصا.. تخلى فتحلّى، ولم ينفذ إسماعيل بالكبش إلا بعد أن هم أبوه بذبحه.. تخلي.. الرسول صلى الله عليه وسلم هاجر، ترك كل شيء وهاجر إلى ربه.. وصهيب تخلّى فربح البيع، من تقرب إلى الله ذراعًا تقرب الله إليه باعًا ومن أتاه يمشي أتاه -سبحانه- هرولةً.

- طب ممكن أطلب منك طلب يا شيخ إيهاب؟

ابتسم الشيخ الشاب لما رأى سوكة ينظر حوله متوجسًا أن يراه أحد ثم يسحب يده ويضعها على بطنه ويقول: «ادعيلي بالشفا».

- خير إن شاء الله.

- مش عارف، حاسس إني مش مظبوط.

- ربنا يسعد قلبك إن شاء الله.

قام خارجًا من المسجد وقد قلّ عزمه على قرار، وقال له الشيخ محفزًا قبل أن يصل إلى الباب: «يا أحمد.. إذا عزمت فامض».

***

فاجأهم بقراره الجديد: «أنا هأبدأ على نضافة.. هامشي من هنا خالص».

رد سلامة: «يابني مش بمزاجك، ربنا هو اللي عملنا كده: أوساخ».

- هاتجوز واعيش على نظافة.

- لا والنبي! كفاية عيلة واحدة.. احنا نخلص عيلتنا على خير، وكتر خير الدنيا انها استحملتنا.

ثم انكسرت نبرة صوته وهو يتمم جملته: «عاوز تخلف واد يطلع زيي ولا بنت زي مني».

لم يكن بحاجة للبحث عن إجابة، يشعر بينهم بالخمول، الرغبة في الرحيل والبكاء

واستغلال كل فرصة للهروب من تعبه ومن واقعه بالنوم، لعله إن ذهب من هذا الغثيان سيصحو. يكاد لا يشبع نومًا، يتابه الكسل وتأكله الكآبة، شعر أن في الرحيل شفاءً من كل هذا، جمع القليل من المتعلقات ورحل.

في قرارة نفسه، فرح لقرار أخيه. ليته يستطيع أيضًا أن يأخذ أمل ويبدآن على نظافة.. لكن ما يربطه بقذارة هذا المكان أشد غموضًا من أن يفهمه.

وبدأت نجية في إهمال فرشة الجرائد إخلاصًا للمهنة الجديدة؛ خاصة بعد أن قام فرج ذات صباح فلم يستطع أن يحرك شقه الأيسر واعوج فوه وبدا بعد شهر واحد منطفئًا كرغيف محترق.

أصبح سعيها الأساسي أن تتشمم في أي مكان عن معركة جديدة.. جددت الشقة ببعض الحلل واشترت كنبة جديدة «بصحارة»؛ تنام عليها بعينًا عن حمودة.

ووجد حمودة ضالته وشغل يومه.. فلتسقط المشاريب والزبائن والكاشف والخطاطون.. سينزل الفارس ساحة قتال أخرى.. لن ينتظر الموتى يتساقطون بل سيسقطهم بنفسه من فوق الدبابة.

لن أكون بحاجة إلى سماع أصواتكم منذ الآن فأنا الذي سأصيح وأنتم تسمعون.. سأهدم باب التكية وأقوّض الأحجار الكبيرة.. لن يبول العابرون على جسدها الأثري بعد اليوم.

أجاد الصياح والبطش وإلقاء نفسه في رحى المعارك، كما أجاد الانكسار والخنوع والهزيمة وأتقن إملاء المحاضر. انتقل نشاطه خارج الحارة المسدودة إلى الشارع الفسيح.. هذه هي الحياة التي خُلق لها، يسمع الصخب فيها رغم صممه.. تفننوا جميعًا في إتقان رمي البلاء على الناس، لا مانع من حرق باب شقتهم وانتقاء أحدهم لاتهامه بحرقها. لا يختلفون حول النسب التي تقوم نجية بتقسيمها بنفسها ولا ينسى سلامة أن يقتطع نسبة ويوصي أمه بادخارها لأمل، وش السعد. ولا مانع أن يذهب حمودة لتمضية أوقات فراغه في المحكمة ليشهد زورًا ضد أي شخص ولصالح أي شخص ما دام هناك مقابل. مهنة علمه عاكف عبيد المحامي مبادئها منذ زمن قديم ثم صار فيها حبرًا.

يحمد الله أنهم توقفوا عن لسع اليد اليمنى لشاهد الزور كما كانوا يفعلون قديمًا، يستطيع الآن أن يرفع يمناه ويقسم أغلظ الأيمان بكل جسارة.

ألقى بنفسه ذات مرة أمام سيارة الدكتور محمد عبد السميع، طبيب أمراض النساء المهذب. نقله الطبيب بنفسه إلى المستشفى وتكفل بتكاليف علاجه من كدمة بالركبة، لكنه خرج من المستشفى إلى القسم بعد أن خبط رأسه في أحد الحوائط. استلزم العلاج واحدًا

وعشرين يومًا، حرّر محضرًا جنائيًا موثقًا بتقرير «الحكيم» ضد الطبيب.

قرر الطبيب المثقف ألا يتخاذل أمام القبح والكذب، رفض ترضيته وذهب إلى المحكمة بكل ترفع وإباء بغير حتى أن يتخذ محاميًا، وكذلك فعل حمودة، لكن شتان بين دخول الطبيب المستند على علمه ورفعة مركزه على القاضي ودخول الأفيونجي..

خلع طاقم أسنانه وتوجه نحو العسكري كأنه لا يعرف من القاضي، وجّهه العسكري نحو القاضي.. دائمًا يردد سلامة: «أنا أبويا لو خلع الطقم ياكل أتخن قاضي».

تعطن وجهه وأطبق خداه وزم شفتيه وازداد انحناء وقال بفمه الأهتم الذي تحول في لحظة إلى وجه رجل عاد لتوه من القبر: «مالكش دعوه بيهم يا حضرة القاضي.. دي ناس واصله.. احكم عليا انا ليضيعوا مستقبلك».

لم يكن القاضي ساذجًا.. لم تنطلِ عليه تلك الحبكة الدرامية، أضمرت نفسه الخروج من ذلك المسرح الذي نصبه الشيخ الكبير، قرر أن يقبع في حصن الأحكام العادلة. لكن دهشة الطبيب وسبه لحمودة ووصفه إياه بالعفن البشري أحرج موقفه، وعندما ألقى حمودة محاضرة القتال في سيناء ومحنة رفاق الدم والنكبة...

أثر هذا الجزء الأخير في القاضي الذي تذكر أيامًا مجيدةً للوطن.. شقيقه مات فيها ولم يهتدوا لجثته.. الجثة الوحيدة المحتملة كانت مهترئةً بلا ملامح.. حتى الخاتم الفضي الذي كان يزين بنصره كان مفقودًا.. انتفض قلبه لكنه، كقاض رصين، تحكم في ملامحه.

وافق الأفيونجي في النهاية على تعويض خمسة آلاف جنيه ثمنًا للتصالح مع تكفُّل الطبيب بكل مصروفات الدعوى والعلاج.

أما أمل، فلم تعد تلك اللطيفة التي أطلّت عليه أول مرة وبها مسحة من رائحة طبقة أخرى «وناس تانيين». صارت في السابعة من عمرها بالصف الابتدائي الثاني، شديدة الذكاء بارعة في القراءة والحساب لكنها لا تطيق المدرسة والنظام والواجب، ملقاة بالشارع من طلوع النهار إلى آخره، قذرة تكره البيت ولا تعشق إلا الحرية التي تمنحها لها «ستو نجية».. احتواها نظام الجدة الأسطوري الذي لا يفهمه أحد، صارت مثلهم.. عفنًا بشريًا.

البصمة

موت فرج كان حدثًا محرجًا بالفعل.. فريدًا حد البلاهة...

لا شيء يوهن المكانة كالفقر والمرض.. كانوا يتناولون العشاء حول الطبلية.. شعر بألم في صدره، رقد ببطء وأخذ يشهق كالخروف المذبوح لساعة ثم أسلم الروح، همهم بكلمات لكنهم لم يتبينوا ما قال. سرى في البيت طيف الليلة الأخيرة في حياة الخال عوف الليبي وطيف كهرمانة.

وقفوا مدهوشين؛ كان لا بدّ أن يموت محترقًا. لم توافق ميتته نبوءة عوف الليبي وكهرمانة لكنها وافقت أمنيته.. أكمل سلامة طعامه ثابت القلب والعينين حتى شبع.. نظرت نجية نفس نظرتها اللاهية وهزت رأسها تلك الهزة اللامبالية.

قامت تلم الصحون وهي تقول: «اركنوه على جنب».

مارسوا حياتهم لوقت قصير بشكل عادي.. لو استثنينا ذهول أمل لكان الأمر أشبه بسكب قليل من الماء كان باقيًا في قعر كوب.. مجرد قطرات أُلقيت.

كان يتمنى أن يموت بين أفراد هذه العائلة وفي هذه الشقة.. لم يعرف أهلًا غيرهم منذ جاء من قريته البعيدة ولما يتخطى الخامسة والعشرين بعد.

طلق زوجته لعجزه عن الإنجاب، هاجر بسبب معايرة أهلها، في تلك البلاد البعيدة تنقص رجولة الرجل في عيون الناس إن لم يكن ينجب، صاروا هم أهله وأبناءه، اختلط بهم كالفول المحوج المخلوط بالزيت والملح والكمون والبصل..

لم يعد هناك فارق بين زوجة وصديق وزوج وأبناء وأب.. خليط من مذاقات مختلفة هُرست في قِدرٍ واحدةٍ.. الأصول والأعراف لم تكن ذات قيمة.. العيب والحرام.. يحتاجهم ويحتاجونه.. تعلم منهم ألا يضيق على نفسه بالأسئلة.

رست بجرائدها وأثقال عمرها على مرفئه.. وصارت اصطباحة الزبائن بأطباق الفول تتبعها مسيرتهم بالجرائد. يمكنك أن تأخذ أي شيء من حمودة مقابل إصبع حشيش. ينزل المقاتل من ميدان القتال ببضاعة من خواتم وساعات يرسلها الجنود ليستبدلوها بمال من أجل ذويهم، يعشق البط والحشيش والأفيون، مدهشون يمنحون أي شيء ما وجدوا المقابل، وليس هناك مقابل يعادل الدفء الذي منحوه.

- لماذا لا تستريح بالبيت قليلًا؟ خلي بالك من نجية.. خلي بالك من أحمد واخواته.

- هات بريزة يا عم فرج.. هات شلن.. «يكبرون قليلا»، هات خمسه جنيه يا فرج.

لم يمانعوه ولم يمنعوا عنه شيئا، لم تحرمه نجية متعة القيلولة ولا غنج النساء ولم تتح له الوقت للحزن بسبب الزوجة «قليلة الأصل ناكرة الجميل».

لم يخل طبعها رغم ذلك من خسة تظهر إن قل عطاؤه. لكنها أظهرت معدنًا نفيسًا حين أصابه الشلل. آوى إليهم كما يأوي الضب الجريح إلى جحره ليموت فيه، سمحت له بالبقاء بينهم. تحسنت معايشهم فلم تعد عطاياه هي المعين الوحيد فشمله أكلهم وشربهم ولم يتضجر أي من الأبناء...

أبان ميكا عن معدن جديد فاتخذ قرارات سريعة، أبلغ المستشفى واستعار من الجيران مروحتين ثبتهما على جسد فرج وانتظر حتى الصباح ليتمم إجراءات الغسل والدفن والجنازة، ثم غطى المكان سكون كامل، نظر الجميع إلى الجثة دون أن ينطقوا كلمة واحدة، بدا طيبًا جدًا في سكون الموت، تذكر كل واحد منهم فرج بهيئات متباينة.. التقت أفكارهم الصامتة في نقطة تماس واحدة، أنه كان طيبًا وموجودًا دائمًا...

توجهت نحو جثته نجية، خلف رأسه وقفت، لم تجفل ولم ترن. خلعت الإيشارب ولفته حول رأسه وفكه لتطبقه.. أطاعها الفكان في خفة، ارتفعت رأسه نحوها كأنما يريد أن يلقي عليها نظرة من الضفة الأخرى، لكنها أحكمت شد الوثاق؛ رافضة كعادتها تخطي الواقع؛ أدارت وجهها عن المجهول.. ثم تسربوا واحدًا بعد الآخر إلى حيث ينامون. ثم قطع السكون عزف الأنوف ودوى الشخير كمبارزة بالسيوف.

***

حلّ الظلام بكثافة وهجم العدو على الكتيبة المرابطة، وهبّ الرجال يواجهون الموت كالأساطير.. رؤوس تطير وأذرع تتناثر وصياح ودوي صاخب..

وتسلل من بين النيام شبح قصير مدكوك يحبو في ستر الليل.. نظر حوله مستوثقًا من الموقع.. زحف ببطء مستندًا على ساعديه.. مرّ من تحت أسلاك شائكة.. اتخذ الظلام ساترًا واحتمى بالذشم، تساقطت حوله فوارغ الرصاص وفغمت أنفه رائحة الدم والرمال.. ووصل إلى الجثة الملقاة..

لم يعد لها شأن بالدنيا.. بمَ يفيدها أن تلقى الله بهذا الخاتم، وهذه المحفظة، وهذا الطعام.. بل وهذه السن الذهبية. تحسس كل جيوبه وخلع خاتمه الفضي الكبير.. ونوّى صوت قنبلة فوق رأسه فتناثر الرفاق أشلاء.

- بتعمل إيه يا راجل يا ناقص؟

مسح وجهه بكفيه الضئيلتين من أثر البصقة واستدار نحوها ببطء وقال:

- أنا اللي ناقص! الناس تقول إيه لما تلاقيه ميت عندنا يا مره يا وسخه؟

- هيقولوا عليا ولا عليك؟

بديا في الظلام كنسرين عملاقين جارحين يتفاوضان بالمناقير والمخالب حول جيفة.. لم يكن وجهاهما وهيئتهما نفس الهيئة العجوز المنكسرة.. متحجران خاليان من المشاعر.

آثر النسر الذكر الانسحاب فبادرته: «هات الخاتم ده».

كانت أثناء الحديث تشير بيديها رغم أنه يفهمها بلا كلام.. أشارت إليه وقالت: «تعال هنا».

أقبل نحوها يحبو على أربع، يعرف هذا الوجه الجاد، ورغم أنه لا يسمعها، حين تدعوه بهذه الطريقة فهي تدبر لأمر ذي بال، أشارت إليه أن يقرب أذنه ففعل، فتح فمه ورفع حاجبيه وأصبح كله آذانًا صاغيةً تلتقط كل كلمة.

- روح لأي واحد من الأوساخ بتوعك.. بتوع المحكمة.. خليهم يكتبولك حالًا عقد بيع وشراء فرج البايع وانت المشتري. أقولك؟ روح لعاكف.. هو هيعمل العقد.. قل له بأمارة الجرجير.

- جرجير؟ انتي لسه فاكره؟

نظرت إليه نظرةً زاجرةً فسألها:

- طب هاشتري إيه؟

- المحل يا دغفل!

نهض واقفًا. ارتدى ملابسه وذهب ثم عاد بعد ساعة خائبًا فاشلًا. عرفت من مظهره سوء منقلبه... «على وشك بيان يا نداغ اللبان.. عملت إيه؟»

قال بغير أن يبدو أنه سمعها: «طردني».

أشارت إليه أن يصمت لئلا يوقظ النيام، تلفحت بعباءتها وخرجت وهو يتبعها.

اتسعت خطواتها وتسارعت. منذ هذه اللحظة حتى أنهت ما أضمرت كانت نافذة الخطى والقرارات، أبهج حمودة الظن أنها غاضبة من أجله.

صعدا معًا سلمًا حلزونيًا ودقت على باب عاكف عبيد فخرج إليهما متظاهرًا بالنوم، سدد نظرةً متقززةً لحمودة فنظر حمودة إلى زوجته.

دخلت بكل ثقة.. طلبت عقدَ بيع من نسختين.. استهان بالطلب فسددت إليه لهجةً آمرةً.. قال بغير اكتراث وهو يشعل سيجارته:

- انتي عايزه ايه بالظبط؟

- اعمل اللي قال لك عليه.

ادعى عدم الاهتمام وتثاءب بخمول فتوجهت نحوه كاللبؤة الشرسة: «باقولك إيه.. معنديش وقت.. إحنا دافنينه سوا.. لو معملتش زي ما باقولك هافضحك وأفرج الناس عليك. إنت نسيت ولا إيه؟ بتوع الجرجير كانوا هيحبسوك ويقطعوك حتت لو عرفوا.. إن كنت ناسي أفكرك.. اعمل العقد».

نظرت لحمودة وأشارت إليه أن يفتح الباب ففتحه فقالت له: «اخرج استنى بره».

عادت لعاكف عبيد، توجهت نحو المقعد الذي يجلس عليه وأحنت فرعها الملتهب فوق رأسه، قالت حاسمةً كل جدال:

- هاقلعلك ملط هنا والم الناس عليك واحكي القديم والجديد.. إنت هتعملهم عليا، تمثلية الشرف دي إحنا اللي مألفينها، مش دا حمودة اللي كنت بتحفظه يشهد إزاي في المحكمه ويورد لك الشهود؟ بقى يوم ما تنضف تنضف عليا أنا يا عاكف يا عبيد؟

- وطي صوتك.. ماتتكلميش معايا بالطريقه دي.

- تكونش بقيت راجل وانا معرفش؟

أشعل سيجارةً ثم تناول العقد صامتًا وكتبه بهدوء.. سألها مقايضًا: «أمل عامله إيه؟

ثبتت عينيها عليه وهو يكتب. شعر بنظرتها فلم يرفع عينيه عن الأوراق. قالت: «ملكش دعوه بيها».

فرغ من كتابة العقد ونادى زوجها وأشار إليه أين يبصم هو وأين يوقع فرج.

- استنى.. عملته بتاريخ كام؟

- النهار ده.

ردت بتخاذل ممزوج بلهجة آمرة:

- أنا عايزاه بتاريخ قديم.. من سنه فاتت.

خاف أن يستوضحها موفرًا كل كلمة يمكن أن تخرج من لسانها الأشبه بقاذفات المنجنيق، لن تحرق شقته فقط بل شقته وسمعته وشقق الجيران وتاريخًا قديمًا من التعاون بينه وبينها والأفيونجي.

قام كالمهزوم وجلب من درج مكتبه عقدين جديدين وملأهما من جديد.. يعلم أنها لا تستطيع القراءة، لكنه شعر أنها ستفهم لو خالف ما تريد بحرف واحد. سألته عن بهامة فأعطاها.. عادا معًا.. كانت متسارعة الخطى وكان حمودة خلفها يلهث ورغم ذلك لم يكن قادرًا أن يدركها فانتهرته: «شهّل شويه قبل ما يزرق».

توجها نحو جثة فرج وأحاطاه في ضوء شمعة ضعيف، تناولت إبهامه وبصمته حيث أشار عاكف عبيد وسحبت إبهام زوجها وأشارت إليه أين يبصم أيضًا.. فعلت ذلك بالعقدين.

استيقظت أمل فوجدت عيونهما الحمراء في ضوء اللهب الخافت تعبثان بالجسد الذي قالوا عنه ميتًا.. امتلأت الصبية رعبًا بينما كانا يتحركان من جسده إلى الطبلية يفرشان العقدين عليها وفرج ممسك بالشمعة كأنه الشيطان وظلهما على الحائط مهولًا ومرعبًا.. بهتت مشلولة من الرعب فانتبهت لها نجية.. صاحت فيها بكلمة واحدة: «نامي».

ألقت نفسها في حضن سلامة على الفور.

***

في الصباح التقت عينا نجية بعيني عاكف عبيد الذي كان ذاهبًا إلى عمله. نادت سعد الصاوي بائع الجرجير واستندت عليه فمضى عاكف عبيد في طريقه.

في جنازة فرج، التزمت عائلة الأفيونجي بكافة الإجراءات، كان ما في جيب القتيل يسمح بذلك وزيادة، تلقى حمودة عزاء المعزين عند المقبرة كما يتلقى الأخ عزاء أخيه. كان متأثرًا بالفعل، صادقًا في تأثره وحزنه، هذا شيء آخر. كحزنه الصادق على الرفاق أيام المعارك. سرت من عينيه دمعة هاربة وهو يتذكر فرج وأيامه وسخاءه الذي لا يُنسى. نظر إلى القبر الذي غطاه التراب نظرةً أخيرةً وهو يناجي صاحبه: «مع السلامة يا فرج».

***

بعد أسبوع واحد، تفاوض حمودة الأفيونجي -بأمر نجية- على بيع المحل لصاحب العقار المعلم أبو سالم بستة آلاف جنيه.

نجية

في الشتاء، تنشع الرطوبة من الجدران والبلاط القديم، يسطو البرد على الباب المتهالك الذي لا يستطيع أمام غزو الهواء شيئا. قديما، كانت الأغطية قليلة لدى الأطفال، يتقاسمونها بالتدثر والتلاحم... يغطُّ حمودة في النوم بمجرد أن يلقي نفسه فوق المرتبة.

أما نجية، فدائما في الشتاء تنام بطريقتها الخاصة.. لا سبيل إلى النوم في برد الشتاء بغير إشعال الوابور بجوار الكنبة وسماع وشيشه. لا يدري سوكة سر احمرار أذنيه وسخونتهما بمجرد سماع هذا الوشيش. لم يستطع أحد فهم قدرتها على النوم وقد غطت جسدها ومدت يدها فوق الكنبة رافعةً الغطاء فوقه.

دفء اجتماعهم حوله في ليالي البرد وصوت وئاته المتتابعة هما المذاق الذي احتفظوا به من ليالي الشتاء. كثيرًا ما ضحكوا صِغارًا للتنافس حول من يضع يديه فوق حثيث النار فيستغل الآخر وقت فركها ليضع يده هو. وإذا سقط المطر فتلك هي الفرحة الكبرى، تطرأ على قلوبهم المحبة ويخرجون جميعًا ثم يعودون فلا تُعرَف ملامحهم من الطين والبهجة.

أما شهور الصيف، فهي شهور اختناق وعرق، حيث المكان كالفرن يفر منه الجميع وتسرح في قذارته الصراصير والحشرات، الجرذان والحشرات أيضًا تهجُّ من قيظ الجحور. تطفى على قلوبهم الكراهية والنزوات والفحش. وكما يهرب المحرورون من البيت، يأوي إليه المستخفون بأسرارهم.. قديمًا كان هذا وقت اهتياج الخال في الركن القصي، ثم قيلولة فرج ونجية، ثم فترة العصاري الآثمة.

***

ما زال سقف حجرتهم يزداد سوادًا كالقطران ويرسم من الرطوبة والدخان صورًا مرعبةً بلا شكل محدد، لكن الخائفين في برد الليالي يرسمون بأخيلتهم ما يشاءون من صور، لعلها كهرمانة ما زالت تتلون وتظهر لهم بين الحين والآخر باحثة عن أثر الخال أو باحثة عن آخر تسحبه إلى باطن الأرض العميق، لعلها في الليل تجيء.. بسرها الغامض..

***

لا يعرفون أين وكيف تتبخر تعويضات المعارك، لكنهم صاروا لا يعرفون الجوع. لم يسأل سلامة لكرهه لأي نجاح في الحياة، ولم يتعود حمودة أن يسأل عن كيفية إدارة هذه الحياة. بعد قليل، تجنبهم الناس خوفًا من تجنيهم فقلت المحاضر والقضايا. مرت أيام وشهور هادئة مملة، أكلهم فيها الفراغ، لكن أثرها على وجوههم وأرواحهم كان شديد التسارع والوضوح.

استند حمودة على عصا. صار يذهب إلى المسجد بين الحين والآخر بغير انتظام ويزعج المصلين بصوته العالي أثناء الصلاة. تستند خطته مع الله على اتفاق ضمني قديم سمعه من أحد الشيوخ أن المرء إذا تاب في نهاية عمره جبّ ذلك كل ما مضى من ذنوب وعاد كيوم ولدته أمه. يذهب بعد صلاة العشاء إلى المقهى، يجلس مسمرًا على أحد الكراسي حتى يغلبه النوم على كرسيه.

لم يعد في ذاكرته غير ذكرى واحدة لم تخبُ ذكراها رغم اندثار كل ذكرى أخرى، يمسح وجهه بين الحين والآخر لكنها تظل ثابتة، لا الأفيون ولا الجنون نفسه قادرٌ على طمس هذه الذكرى الملطخة بالدم والرمال وجفاف الصحاري تحت الشمس المحرقة ودوي الموت...

رفيق يموت أمامه وآخر يحتضر: خاتمٌ وساعة، الأول مات مبتسمًا.. معصمه مزدان بساعة ووجهه راض.. الموت لم يزعجه، وهذا الرفيق الذي ينتظر الموت فخورًا به من أجل ذلك الذي اسمه وطن، كانوا يتحدثون عن هذا الشيء كثيرًا في تلك الأوقات، هل يعرف ذلك الوطن أن الناس تموت في الصحراء بلا قبور؟

هز رأسه بغير رغبة في الفهم وهو يسمع كلماته الأخيرة.. عبارات بلا نفع.. وصية وبنات.. كل ما كان يشغله هو جدوى الساعة التي في يده في العالم الآخر.. مؤكد هو لن يستفيد بها.. الدّم يساعد في جعل الأصابع زلقةً. خلع ساعة الذي مات.. حتى يموت ذو الخاتم الفضي.

انتتر من على كرسيه في المقهى وصرخ صرخةً مفاجئةً.. سبّ إبراهيم الكاشف بغير مقدمات.. «جرى إيه يا إبراهيم يا كاشف! اوعى تنسى الراديو.. أسقطنا طائرات العدو.. دبابات العدو. الأغاني الهجص».

امتلأ وجه إبراهيم بالخزي والاحتقان والألم.

رقد بعد أن وقع وهو يتوضأ للصلاة فتوقف عن الذهاب إلى المقهى والمسجد. انفصل عن العالم، انكمش جسده كورقة أطبقت ثم ألقيت بلا عناية. ذهبت الأسماء والمعالم من ذهنه وانمحت قدرات الحواس كلها، محتها نعال الأيام إلا قليلًا خافتًا كالهمس. مسّه الخرفُ همسًا ثم صار صراخًا واسعًا.. يصرخ كل ليلة بلا انقطاع.

أصابه نهمٌ غريب، بنزلا تمتلئ، لم يعد يفعل شيئًا طوال يومه غير أن يأكل ويأكل بلا شبع، ينتفض أحيانًا وينادي رفاق الحرب ويهذي بكلام لا يفهمه ولا يعبأ بفهمه أحد. مضغة لاكتها الأيام ثم ألقتها على الطريق بلا قيمة تنتظر الاندثار..

وتخطت نجية الستين بخمسة أعوام، نحل عودها أكثر لكنه بقي صامدًا. لم تعد تستطيع السير بغير أن تستند على كتفي أمل لضعف حاد في بصرها. تتسلمها منذ خروجها من

مدرستها ظهرًا ولا تعود بها إلا في الليل، منظر الكتب المدرسية وشنطة المدرسة مفيد جدًا ومربح لبائعة جائلة صغيرة.

تطابقت ملامح أمل كثيرًا بمعنى حد أن نجية كثيرًا ما نادتها باسمها. تذهب بها إلى الأماكن البعيدة ثم تقر على أي رصيف في مواجهة السيارات بينما تتجول أمل ذات الأحد عشر عامًا بين السيارات تبيع المناديل، محترفة طلقة اللسان رشيقة الحركة تعرف، بحس عبقري، الزبون الأنسب والسيارة التي لن تردها.

تعثرت خطاها المرهقة من قلة النوم بين السيارات وكادت تقع حين انفلت الطرف الأمامي من شبشبها «أبو صباع» وهي تعدو نحو سيارة، لم تستطع أن تصل إليها، حملت الشبشب في يدها.

مرّ أمامها قائد إحدى السيارات ببطء مرتكزًا بإحدى يديه على شباك سيارته وأكثر تركيزه على وجه أمل. سألته التي بجواره: «أتعرفها؟»

أجاب مقتضبًا: «لا».

حاولت إدخال الطرف الخارج في الفتحة المتسعة فانفلت مرةً أخرى، ذهبت إلى أمها «نجية» فأخذته منها وبحثت في الأرض عن مسمار صغير، لم يكن ممكنًا لبصرها الأعشى أن يدركه فجلبته أمل. باللمس، وصلت لموضع الثقب المتسع، أدخلت الطرف الصغير في الفتحة المنفرجة وثقبته من أسفل، ثم ثبتت المسمار تحته بالعرض فثبت الشبشب، ارتدته أمل دهشة من هذا الحل البسيط المدهش، دفعتها نجية لتكمل بيع المناديل... كانت تقدم دائمًا حلولًا بسيطةً وسريعةً...

يدخل سلامة مشجوج الرأس، فتكبس رأسه بحفنة ملء يديها من البُن وهي تتمتم للبُن كأنها كهرمانة: «اشرب الدم كالغراب.. اشرب الدم كالغراب».

ويأتي ضباط البوليس وأمناء الشرطة بحثًا عن تاجر الحشيش الصغير فتخلع ثيابها فورًا وتقف عاريةً في وسط الشقة، أيًا كان من فيها وتصرخ: «محدش يخش.. أنا عريانه.. جرى ايه يا حكومة! هوا معادش في خشا؟»

يرتج على الداخل فيهرب ميكا من شباك الكبنيه الصغير إلى المنور المؤدي لشارع المستشفى.

تقرقع ضحكةٌ لاهيةٌ كلما ادعى حمودة أنه كشفها فتفرض الألفة عليه، ليس ألفة عهرها فقط ولكن ألفة ادعائه التغافل؛ فيسكن الزوج ويطمئن الرفيق.

وتنشب نُذر نزاع بين سلامة وسوكة فتفض الصراع قبل أن يحتدم بشق ملابسها من عند صدرها نزولًا إلى باقي جسمها وتطلق صيحةً ممطوطةً أشد حسفًا من سارينة الإسعاف «يا اختاي».

تمد الحرف الأخير إلى أن تنقطع أنفاسها فتهدأ كل الأطراف المتنازعة. راعها يومًا شق جيبها لأن أحد الشيوخ حول عربة الفول أخبرها أن هذا خروج من الملة فاستدعت الشيخ حسبو للتوبة. طالبها أن تردد خلفه دعاء طويلًا بدأ بالاستغفار والصلاة على النبي ثم التعهد بعدم العودة لذلك مرةً أخرى ثم طالبها بالغسل والوضوء والإنابة وترديد بعض سورٍ من القرآن، لفظت ما استطاعت خلفه ثم نفرت من الأمر كله... «جرى إيه يا عم الشيخ، هو ربنا عاوز الكلام دا كله عشان جلابية؟».

حاولت أن تقدم حلًا لمنى في ليلتها الأخيرة، بدأته بالصبر والتجاهل حتى تزول الغمة.. لكنها لم تجد شيئًا، وكانت إذا غالبتها الهموم رقدت كالقتيلة.. استيقظت ومنى نائمة فلم تشأ أن توقظها.. خرجت بالهم والقلق، ولم تجدها حين عادت.

صار سلامة، ذو الثلاثين عامًا، رجلًا مرهوب الجانب وواصلًا ذا معارف. ثبتت على وجهه ملامح الغضب والنقمة وملامح رجولة ناضجة. تُقبل عليه الدنيا لكنه يكره كل لحظة يعيشها. أدمن صحبة الليل والسير في الأماكن البعيدة حتى تُرهق قدماه؛ يهذ كل قواه لكي يواتيه النوم، يسلمه التعب إلى مقام الفلواتي أحيانًا كثيرةً، مقفر القلب والروح، ينتابه الضجر كلما أصبح عليه الصباح.

وأصبح ميكا ثعلبًا شابًا وتاجرًا أريبًا يعرف كيف يستولد النقود. صاحب الليل والفرص البعيدة وتعامل في كل أنواع التجارة. صار رجلًا في الرابعة والعشرين، يفعل كل شيء بأجر، لولا أنه يخفي ثروته، لغدَ من كبار رجال الأعمال. لم يعد يزور الحارة إلا قليلًا.

يحرص في كل زيارة أن يصطحب أمل إلى محمود الكبابجي لتغرق في الكباب والكفتة. يأكل معها قليلًا ثم يتوقف عن الأكل ويستند إلى كرسيه مستمتعًا برؤيتها، يُصدِر صوتًا غريبًا كالأزيز وهو يسلك أسنانه، يشعل سيجارةً، يدفعها دفعًا لأكل ما تشاء، كلما رفعت عينيها إليه ابتسم. طلب منها أن تذهب معه وتعيش كالأميرة، رفضت متعللةً أنها لا تستطيع أن تترك ماما نجية فابتسم: «أعجب شيء في نجية.. تكرهها حتى الموت لكنك لا تطيق البعد عنها».

خرج بها من عند الكبابجي في إحدى المرات فرآقها أن رأت من بعيد قردًا مسلسلًا يدور به صاحبه على المقاهي، يرقص على نغم الطبلة، ينام كالأعزب ويرقص كالمبتهج، ثم يدور

الرجل ماذا يده وطبلته فيلقي له المارة ما تيسر لديهم من مال. أعجبها المشهد جدًا.. كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى وجهه ممتعضًا بهذا الشكل وهو يصيح بها في قسوة: «كفايه بقى».

اندهشت من قسوته، صمتت خائفةً.. ضمها إليه في حنان وقال: «أصل أنا كنت القرد دا وانا صغير».

مرّا على بائع أدوات موسيقية فوقفت أمام الباترينة دهشةً بما ترى، أراد أن يصالحها فطلب منها أن تختار آلة تحبها فاختارت آلة الفلوت دون أن تعرف ما هي وقالت: «مش عارفه ليه نفسي أشوف سلامة بيعزف عليه».

اشتراه لها، وحقق لها سلامة ما أرادت.. بلحن منفر.

***

اتخذ ميكا مسكنًا خاصًا في السادس من أكتوبر ولم يعد يزورهم إلا لمامًا. تأنقت ملابسه واختلف مظهره. يجلس قليلًا ثم يصطحب أمل ويخرج. عاد بها ذات يوم وبيده أعظم هداياه: لاب توب. ولمّا رأى فرحتها الطاغية عرض عليها أن تساعده في بعض تجارته. عشقت الكمبيوتر وألعابه وحفظت أسامي مكوناته وأنواعه، والأبعد من ذلك أنها صارت تنطقها بلغة سليمة. أقسم لها أنه سوف يجعلها أصغر صاحبة أكبر شركة كمبيوتر في البلد.

المأوى

في ليلة باردة من ليالي الشتاء، عاد سوكة بعد أن غاب ثلاثة أعوام كاملة، تكسو وجهه سمات الخجل والتردد والهزيمة. بدا مختلفًا هزيلًا منتفخ البطن. كان قد ترك المقهى منذ شهرين. خلفه دخلت بدرية الصاوي، تدفع أمامها بطنها المثقلة بحمل. بدا على ملامحها الإرهاق وعلامات الضنى والحزن، كانت ضامرة الوجه مائلة إلى السواد وبيدها صرة ملابس، وترتدي ثوبًا أسود كالحًا مفبرًا وقد غطت رأسها بإيشارب داكن ويحمل وجهها إرهاقًا ورغبة قاسية في البكاء... كانا قد تزوجا منذ عامين، أراد أن يطيب حياته بتطييب حياتها وأن يشفي جراحه بشفاء جراحها..

- بقى انت هتتجوز واحدة زيي.. دانت عارف كل حاجه.

- أنا بصراحه معرفش حد أوسخ مني.. لو وافقتي بيا يبقى كتر خيرك

احتواها بحنان وغفران يتجاوز خطايا البشر. رأى فيها جوهرًا كان خفيًا على العالم. ورأت فيه أبًا وعائلةً غفرت فيها للزمان كل شقاء السنين. مسح قدميها ومنحها الخلاص، ربتت على قلبه ومنحته الدفء. وجد كلاهما في الآخر نفس السر القديم الذي رآه الشيخ نبيل في ماجدة ورأته ماجدة في نبيل: السر الذي لا توجد كلمات لشرحه. الرابط الذي لا تراه العيون لكنه أوثق من الحديد، كان لها، كما كانت له، النصف المكمل للروح.

ألقاها أبواها منذ وُلدت في الشارع قابعةً فوق قفص الجرجير، لم يعبأ حين اغتصبها الجار المحامي ولم يصدقها أحد.. وشهدت نجية وشهد حمودة باستحالة ذلك.

- بقى الأستاذ عاكف عبيد يعمل كده.. بلاش افترا ع الناس، دا عنده عربية.

- كم قبضت مقابل شهادتك يا أم منى؟

هدأت الأمور كأن شيئًا لم يكن. ظل الأستاذ هو الوجيه المثقف الذي «مش ممكن يعمل كده». وصارت هي المتجنية التي تريد توريط الشرفاء.

وعادت له بحزم الجرجير مرة بعد مرة.. صار السقوط بعد ذلك مريعًا وسريعًا. تعدى الجرجير بكثير، ثم مات نووها بغير أن يدافعوا عنها. قال لها أبوها في نزعه الأخير: «أنا عارف ان احنا ظلمناكي.. سامحيني يا بدرية».

مضحك هذا الاعتراف حد الألم! أتتبرأ أمامي أم أمام الرب؟ وماذا يفيد الآن؟ قُتلت بدرية ألف مرة ولم يعد يجديها اعترافك أيها الأب الكاذب. أما الأبوة فهي وجود هذا الطاهر النبيل، أما السماح فهو من قلبه إليكم، سوكة الحبيب.

منذ ماتت منى توقفت عن بيع نفسها. احتملت قديمًا الجوع والقذارة والسندوتشات التي لا تحمل أيّ مذاقٍ سوى لسعة الجرجير. احتوتها جارتهم الطيبة رقية بعد وفاة زوجها الحاج حامد. استطاعت أن تعيش إلى أن جاء سوكة.. رجل ليس ككل الرجال، قادر على الغفران، يعاملها كبشر ويحيطها بحنان لم تره من قبل، كأنه جزاءٌ جميلٌ على عناء العمر.

- كل اللي فات من عمري كوم وانت في عمري كوم تاني.

- لو كل تعب عمري انت المكافأة عليه.. أنا مسامح.

صفعت «الست رقية» أن يُكتب الكتاب في بيتها. أولمت لهما في بيتها «حلة الاتفاق» وطبق ملوخية وختمت العشاء بكوبي شاي بالحليب. اعتذرت بعجزها عن إطلاق زغرودة تليق بفرحتها بهما: «كأني النهار ده بازف ابني مهند على حبيبته سيدة».

اتخذا شقةً بنظام الإيجار الجديد. عندما لمسها للمرة الأولى، عرفت معنى اللذة البكر، ذاقت طعمًا مختلفًا.. ولوج القلب في القلب، رقة طاغية وبطش ناعم، تحسّه الروح قبل الجسد، نوبًا ريانًا عذبًا لا يخلفه ترخص ولا ازدراء، بل ابتسامة رضا وحضن حميم دافئ وشبع العمر من حنان لم تذقه يومًا، وذاق معها أخيرًا طعم العائلة.

لكنها الأيام دومًا.. حبلى بكل غريب، كما قال الواعظ القديم: «إذا أقبلت أدبرت وإذا حلت أوحلت وإن كست أوكست». اكتشف إصابته بتليف في الكبد سرعان ما تطور إلى سرطان، قاوم حتى سقط ولم يعد شيء كافيًا، لا لإيجار ولا لطعام ولا لسكنى ولا لعلاج.. ليس شرطًا في هذه الحياة أن تشقى كل عمرك ثم تسرد لأبنائك من فوق كرسي وثير قصة نجاحك المبهرة.. قد تشقى وتضيع ثم تذوب في قلب الشقاء ولا يشعر بك أحد.. العقار الواحد يتخطى ثمنه ألفي جنيه.

تذكّر مثلًا ضربه لها أبوها سعد الصاوي يومًا وظلت ترى تحققه كلما وعت: «جال له رايح فين يا فقر؟ جال: رايح للناس اللي عارفهم. جال له: دول غاروا ماتوا. جال باجيه خلايفهم».

قال سوكة: «أنا قلت بدل ما نقعد في شقه إيجار جديد نعيش في وسطكم».

رد سلامة الذي أخذه الغضب لدرجة أنه لم يرحب بأخيه، وما زال دهشًا من اختياره وكلاهما يعلم الماضي بحذافيره الدقيقة المخزية: «وسطنا فين؟ هذا المكان لا يليق إلا بمن يحتويهم الآن.. الماء آسن.. فقر هذا البيت لا يليق إلا بفقر أرواح من فيه.. ألم تنجُ من هذا الروث؟»

لم يُجبه..

أوشك الصمت الثقيل أن يتحول إلى احتدام صراع، ألقت صرة الملابس على الأرض وانطرحت، فرضت وجودها على المكان. لم تكن تبالي بشيء غير أن يستريح سوكة، ولم تكن تبالي أن تقابل نظرة سلامة المحتقرة بنظرة متحدية، توقعت في حياتها الصراع دائمًا.

لم يجد سوكة ردًا مناسبًا على كلمات سلامة، لم يأت إليهم إلا بعد أن تأكد أنه أوشك أن يموت، كل ما يريده هو أن يكون لابنه أو لابنته مكان وسقف، وأن يجد ما يأكله حتى لو كان سقطات عظم يذوقها للمرة الأولى من بقايا الخال، وأن يشملهم ذلك القانون الخفي الذي ضمن لهم المأوى في نهاية كل ليلة.

لم يدر كيف نشأوا، لم يخططوا لأكلة واحدة مرتبة في هذا البيت، لكنهم كانوا يأكلون ويشربون ويمر بهم الليل والنهار ويجدهم الزمان أحياءً يُرزقون.

خذلته صحته في المقهى، كشفه شحوبه وقلة جهده، صارت المسافة بين النصبة وطاولات الزبائن كمسافة صحراوية شاسعة تطغى عليها شمس لاهبة، فضحه لونه الأصفر ونحوله المتتابع، سقطت من يديه المشاريب ونزف أنفه بلا توقف.

أخبرهم طبيب المستشفى بحالته من نظرة واحدة لصفرة جلده وعينه وهزاله، طالب بحجزه في المستشفى لإجراء تحاليل، رفض وذهب مستندًا على أشرف إلى البيت... «أنا باموت».

ارتجّت نجية وملأت أنحاءها هزة مفاجئة، جحظت عيناها وارتفع حاجباها، قاومت قشعريرة تصلّب لها ظهرها، هربت من قلبها بسرعة، انحنت منشغلة بكنس الأرض، قششتها دون أن تعرف ماذا تكشط. شعر سلامة نحوه بحنان عميق، عتمت عينيه غلالة من دمع لم يتسقط، أراد أن يحتضنه لكن صمتًا ألجمه، لم يتكلم كلمةً واحدةً..

لم يستوضحوا الأمر منه لكنهم يعرفون صدقه، إنه الشيء النقي في هذه الحجرة.. لم يجهر بشكوى طوال حياته، لولا تضجره من تصرفاتهم إزاء الناس لما شعروا بغضبه يومًا.

فكّت نجية الموقف حين قامت متكئة فوق المرتبة القطنية وقالت: «وما له؟ يعيشوا زي ماحنا عايشين».

أرادت أن تمنح نفسها فرصةً للاستيعاب، تمنت ألا يسأله أحد عما به الآن؛ تفر دائمًا من مواجهة المصائب في لحظتها الأولى، تستمهل الأيام قليلًا لعلها تنقشع. لم تنجح طريقتها هذه مع ابنتها منى في الليلة الأخيرة. لكنها ستنتظر سوكة في الصباح وستبذل كل غالي في

سبيله.

قامت فجهزت لهما السرير الأسفل ونادت بدرية وهي تدلدن:

- يا منجد علّي المرتبه واعمل حساب الشقلبه. تعالي يا حبيبتي ارتاحي هنا.. الصباح رباح.

- هو انت طول عمرك تقوليلنا الصباح رباح ولا ع عمرنا شفنا صباح ولا رباح.

ضحكوا جميعًا. كانت جملة ميكا بداية لتبادل ذكريات مضحكة عن قصص «الصباح رباح»، تذكروا عوف الليبي وفرج وليلة حبسهم جميعًا بعد إحدى المعارك.. ضحكوا كلهم حتى أدمعت عيونهم.

سلّكت نجية «فونية» الوابور وأعطته «نفسين» قويين فاندفع الجاز بداخله وتوالت دفقاته وتناثرت بعض قطرات حوله، علت وئاته وامتلأ المكان بالدخان ثم بالدفء. استوقفها مرضه مرةً أخرى، لم تنم بسهولة، ولم تستطع الثقة بالوقت كعادتها. احمرت أذنا سوكة كعهدهما القديم..

لاحظ ميكا فلم يترك الأمر يمر دون دعابة.. ثم تسربوا واحدًا بعد الآخر وناموا. نام سوكة وبدرية على سرير منى. وغطى المكان سكون تام لم يقطعه سوى عزف الأنوف ودوي الشخير كمبارزة بالدفوف.. عاد شخير سوكة الضخم المجهد وأضاف دوي شخير بدرية الرفيع نغمًا إلى الألحان الشائهة الشاذة، وسرى في الليل هواء أسطوري وحلموا جميعًا بكهرمانة.

***

اخترق الليل العميق صوت صراخ مرعب، امرأة تلتف داخل كتلة من النار، حاولوا إنقاذها لكنها كانت تدور في جنون متلفّعة باللهب وحمودة يصرخ ويثب من مكانه مطلقًا عواءً وهذيًا. جرى سلامة نحو سطل ماء، حاول سوكة إطفاءها بيديه، ألقى ميكا فوقها بطانية مهترئة.. لكنهم كانوا جميعًا متأخرين بلحظة، اللحظة التي قضوها حتى استوعبوا أنها ليست كهرمانة، بل نجية.

ناضلت وتلوت وصرخ حمودة صراخًا موازيًا رهيبًا، ثم سكن منتظرًا نتيجة الصراع بين النار ونجية وهي تتلوى في رفض.. تسرب السكون إليهم جميعًا، وقفوا ينظرون إلى التي كانت تخرج من كل المعارك فائزة، هل يستطيع الموت أن ينال منها؟ هل سيهزمها اللهب؟ ثم سقطت نظراتهم وهوت مع سقوطها الصامت الأخير في رقصة هي الأخيرة.. ثم ثبتت

على الأرض كقطعة فحم منبعجة...

ماتت فلم تر الصباح. لم يجدوا جسدا للغسل، بل بعض فتات هش لجسد متفحم.

رضا

توسط الأستاذ عاكف المجلس في وسط مقهى الكاشف. أحاطه حشد كبير من رجال الحي مستضائين بأنوار زينات وأعلام صغيرة وجو احتفالي كبير، خلفه يافطة زاهية بعرض الحائط تسطع عليها صورته بجوار علم مصر وعليها كُتِب: «مرشحكم لمجلس الشعب، مرشح الحزب الوطني الديمقراطي رمز الميزان».

وبعد هتاف شديد وتصفيق من حاشية المعلم أبو سالم وأهل المنطقة وزبائن مقهى الكاشف وقد جلس على يمينه شاب وضيء شديد التأنق اسمه «رضا»، يضفي على الجلسة بأناقته وابتسامته العذبة جوًا من الوقار والتميز، وعلى يساره جلس المعلم إبراهيم الكاشف، فكان الاثنان عن يمينه وشماله وصلًا بين الماضي العريق والمستقبل المبشر بالأمل، بدأ الأستاذ عاكف خطبته:

«أشهد ألا إله إلا الله وأثني عليه بما هو أهله، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، بلّغ الأمانة وأدى الرسالة وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، وتركنا على المحجة البيضاء؛ لا يزيغ عنها إلا هالك، ثم أما بعد...

ليس للإنسان إلا ثلاثة طرق في هذه الحياة: العمل بكتاب الله ثم العمل بسنة رسوله - صلّى الله عليه وسلّم -ثم العرف المعمول به بين الناس، وإذا ما صادف غير ذلك قاس على فعل الصالحين ثم أسند الأمر لأهل العلم.. كل ما غير ذلك أقرب للباطل منه إلى الحق.

مش حاقول أكتر من كده وانتم عارفين عاكف عبيد ولست أرجو من ترشيحكم غير صالحكم ويعلم الله أنني لست بحاجة إلى هذا المنصب إلا لخدمة أهلي.. أهل الحي..».

تذكر سلامة خطبة عوف الليبي قبل أن يطلب من سوكة أن يفتح الباب.

- هو انت إخوان ولا إيه يا عاكف بيه؟

- الدين مش بتاع الإخوان ولا غيرهم يا عم ثابت.. الدين لله.

انتهى المحفوظ من كلامه، صمت قليلًا ليضمن انتباههم، شمل الجمع أمامه بنظرة محبة ثم أكمل:

«الشباب العاطل والناس التعبانة والفلاء، صعوبة العيشة وغلب مصاريف المدارس، الشوارع المكسرة والقمامة وعلاج الفقراء وتيسير الزواج، المشاكل دي وغيرها هي الرسالة التي سأعمل عليها، لن يكون هذا بجهدي وحدي بل بكم ومن أجلكم.. من أجلكم رشحت نفسي فلا تحرموني أصواتكم.. وعلى الله قصد السبيل».

قبل أن ينتهي من كلامه كان التصفيق والهتاف يسبقانه، كلما أنهى جملة صفقوا، كلما توقف ليبلع ريقه كان ذلك مبررًا للتصفيق.

قام وهم يتحلقون حوله، يتناوبون الأسئلة وتلقي الوعود، همس لسلامة في خفاء مصطنع: «روح مع رضا وقل لهم زي ما قلت لك».

عاد نحوهم سلامة، جمع الناس مرةً أخرى: «يا رجاله، ياهل الحي، الأستاذ رضا عايزكم في كلمتين».

تكلم رضا الشاب المتأنق في صوت شديد الاتساق وبمعان شديدة الترتيب، كلمات منتقاة بعناية. أخذ بمجامعهم منذ اللحظة الأولى. أسلوبه ساحر وحركات يديه متوافقة، لم يكن يتحدث كخطباء المساجد، طريقة جديدة تستمد أصولها من منبع لا يعرفونه، شرح لهم بهدوء كيفية إتمام التصويت على الوجه الأكمل.. شرح أن كل من سيدخل اللجنة سيجد ورقة انتخاب عليها أسماء المرشحين وأن لكل ناخب الحق في تسويد المربع الخالي أمام مرشحه ولتوفير المشقة على أهل الحي سيكون معنا أمام اللجنة هنا...

أخرج من حقيبته الأنيقة نموذجًا لبطاقة الترشيح واستأنف: «سيتسلم كل واحد منكم مثل هذه البطاقة قبل دخوله اللجنة».

عرضها عليهم وأشار لهم إلى المكان الذي تم فيه تسويد خانة عاكف عبيد بالفعل...

«وسيتسلم الناخب من القاضي بالداخل بطاقةً خاليةً، كل ما عليكم أن تضعوا الورقة التي دخلتم بها في الصندوق وتخرجوا إلينا بالورقة الخالية ليتم تسويدها من جديد بواسطة الناخب التالي. وإكرامًا لجهدكم الثمين الغالي ولقتكم وشرف وعودكم سيتسلم كل ناخب مئة جنيه لقاء تسليم البطاقة الخالية.. سموها مكافأة إخلاص».

انتهى كلام الشاب الوسيم، راقت المستمعين صياغته الراقية لبيع الصوت الانتخابي ولم يخف عليهم كرم الأستاذ.

قطع سلامة أفكارهم بقوله: «واللي مش هيصوت لنا برضه هنعرفه، وهنكتب اسمه».

لم يخف عليهم التهديد الذي تحمله نبرة صوت سلامة.

تكررت الجلسة نفسها مرات كثيرة بمقاهي الصباح والحرية وغُرزة السواح وكل مقاه الدائرة. تكررت بكل أركانها: الأستاذ وعم ثابت ورضا وورقة الانتخاب السحرية، وفي النهاية.. المكافأة وتهديد سلامة.

صعد سلامة مسرعًا إلى الأستاذ في مكتبه:

- كلهم في جيبك الصغير يا باشا!

- حتى لو مش معانا.. احنا مسنودين قوي، متقلقش... حاسبت ع المشاريب؟

- حاسبت يا باشا.

- فاضل معاك كام؟

- 600 جنيه يا باشا.

- حلال عليك.

دسها في جيبه مفتعلًا السعادة.. سرعان ما استهان بالمال والنجاح فقال للأستاذ قبل أن يذهب: «ليا عندك طلب يا باشا».

- اعتبره اتنفذ.

- عايزين نطلع قرار علاج على نفقة الدولة لسوكة أخويا.

- يا سلام! بس كده؟ بكره يكون عندك.

- بكره؟!

- آه بكره.. مستغرب ليه؟ يا بني احنا بنطلّعه لناس ميتين.. انتوا اللي زيكوا ولا دريانين بحاجه.

امتلأت الشوارع باليافطات الانتخابية التي تحتوي كل رموز العدالة والأمانة والمحبة وكافة القيم النبيلة. تنافس المرشحون في عرض برامجهم الانتخابية المذهلة.. منافسة الأستاذ كانت باهتة.. اصطنع بعضها بنفسه لذر الرماد في العيون.. كان الناس ينتهون من كل اجتماع يعرضه مرشح إلى سؤال واحد: «كم ثمن الصوت؟»، يسألون باستعلاء وهم يقايضون أصواتهم الثمينة، رغم أن معظمهم قد أضمر في نفسه اتباع عطايا الأستاذ عاكف وأمن بطش سلامة وعصابته.

العائلة

هذا هو الوقت المناسب للانسحاب بشرف.

لم يطق سوكة البقاء بالبيت بعد موت أمه. لا بد من إيجاد عمل؛ ليس هناك وقت للوقوف والبكاء وندب الحظ. بدرية حامل، لا بد لها من راحة وغذاء.

هذا الفكر الأبوي يطوف بهذه الحجر للمرة الأولى، استدعى بدوره حنانًا من آخرين، ولولا حنان إبراهيم الكاشف وذلك الزميل الشهم عذب الابتسامة أشرف التوبي لما استطاع الوفاء بدواء ولا بطعام.

انتقل فورًا لحيث كانت الأم قابعة طوال عمرها تبيع الجرائد. عارضه سلامة وميكا، عرضوا عليه أن يكفوه مؤونة العلاج والولادة بل وتربية الوليد. تحدث ميكا لأول مرة عن قدراته المالية الضخمة وأعلن أنه يستطيع أن يعالجه حينما أراد «إن شا الله ف بلاد بره».

قال له سلامة: «يعني تبيع جرايد؟ الناس تقول علينا إيه؟»

نظر له نظرة كفته الإجابة.. ضحكا بصوت عال.

رفض أي مساعدة؛ لمتعة الشقاء على العيال من جهة. ومن جهة أخرى، كان قد أضمر قرارًا خفيًا ألا يطعم أو يشرب من مال ميكا أو مال سلامة. قرر أن يعمل فترتين. عملين مريحين. بيع الجرائد صباحًا ثم تلميع الأحذية في المساء.

لم يكن العمل يسيرًا كما ظن، بدا له أن نجية الأم كانت تبذل جهدًا ضخمًا لم يكن يشعر به أحد: تذهب إلى الفورد في نهاية شارع «السد» بالسيدة زينب مع طلوع النهار وتعود بحمل كبير من الورق فوق رأسها إلى مكانها بآخر شارع سكة راتب بالحلمية. تبيع ما تبيع فتتكسب منه الفتات، ثم لا بد من عودة المرتجع. هل كان كل هذا الجهد من أجل أسرتها أم كان من أجل البقاء بجوار فرج؟ لا بدَّ أنها كانت تبذل نفس الجهد بالبيت ولا يدري أحد وإلا كيف كبروا وأكلوا وشربوا قبل أن يشق كل واحد منهم طريقه في الحياة.

كلما جلس بعد رص الجرائد والمجلات انتابه الوهن والنوم، لا يستطيع له مقاومة ولا يدري متى يغلبه، قد يصحو ليجد الناس اشترت وتركت ثمن الجريدة في جحره. بعضهم كان يستغل نومه فيأخذ جريدة ويمضي. الكسب هين يُعد بالقروش.

غفا يومًا بجوار الجرائد، بين النوم واليقظة سمع صوتًا عذبًا قديمًا يردد للناس أثمان الجرائد ويبيعها لهم بكل احتراف. في عالم ضبابي بين الحلم والحقيقة، ابتسم، دغدغه الصوت، سرى في قلبه وملأ أذنه نغمٌ يستعذبه منذ نشأته الأولى، قديم بقدم عمره: صوت

منى.

استكمل إحساسه الجميل بذكرى اللعب تحت المطر، الصوت والنغم الرخيم نفسهما. فتح عينيه والحنين يملؤه فوجدها أمل.. خرجت من مدرستها الإعدادية وتوجهت إليه تساعده، بهية في زيها المدرسي وبسمتها المشرقة.. أراد أن يحتضنها، لكنه امتنع...

استفادت من خبرة المبيعات مع نجية؛ أكسبها بيع المناديل والالتحام المباشر بالمشترين مهارة فائقة. اكتسبت مهارات البيع بالصوت والأيدي والعيون، البداية والوسط والنهاية، مزاحها لغرض، حفظها للأدعية التي ترصها رضا لأصحاب السيارات واستغلال جمال عينيها وبراءة محياها، توظيف كل الإمكانات في دفع حركة البيع للأمام، وفوق هذا أصبحت على نفس هيئة منى، «العيون الواسعات الهادئة والشفاه الحلوة الممتلئة»(8)، والوجه المستدير الصافي والشعر البريء القصير.. الفارق الوحيد أن أمل مليئة فعلًا بالأمل.

maktabbah.blogspot.com

يذهب إلى المنزل ليستريح قليلًا فيغلبه النوم أيضًا فتتركه بدرية نائمًا ساعة أو ساعتين.. تجهّز الغداء وتسأل الله في كل لحظة أن يشفيه ويحفظ حياتها هكذا، كما هي بنفس هذه البساطة، لا تريد شيئًا آخر. يستيقظ فيأكل ويجالسها قليلًا والعشق يملؤهما وبينهما أمل، ثم يعود إلى الشارع يسرح وبين يديه صندوق صغير لمسح الأحذية، تناديه في كل يوم أمل: «آجي معاك يا سوكة؟»

يضحك مجيبًا: «لأ، كله إلا دي.. ذاكري انتي بس».

يمضي في الشارع وهو يدق صندوقه مرددًا «حد يلمع، حد يلمع»، ثم يجلس عند أحد المقاهي. يطوف بين الزبائن، ويجمع عددًا من الأحذية مصغيًا إلى رزع القواشيط وصوت القهوجي.. ذلك الصخب الجميل.. يكاد يقوم بنفسه لجلب طلبات الزبائن.

أحرجه يومًا أن همس أحد رواد المقهى القديم في أذن أحد الذين أعطوه حذاءه، فقام الرجل من فوره وسحب الحذاء: «معلش، مش عاوز ألمع».

فاجأه ميكا قبل أن يخرج من بيته ذات صباح بالدخول راكبًا «تريسيكل» وقال: «انت محرّم على نفسك فلوسنا.. خلينا نجيب لك الجرايد».

ثم خرج وعاد إليه بالهدية التالية، صندوق مسح أحذية من خشب الكونتر، في أركانه متسع لكافة أصباغ التلميع ومكان لوضع الفرشاة، مؤطر بغلالة قطنية رقيقة رغم سمكها لتقي جسده احتكاك حواف الصندوق ومعلق بحزام يعلقه بسهولة على الكتف وكرسي صغير جدًا فنجد ليجلس عليه بدلًا من جلسة القرفصاء المتعبة.

ابتسم ابتسامةً مرهقةً، أراد أن يحتضنه، لكنه يخاف القرب ممن يحب، سيطر عليه الوهم أنه عدوى متنقلة. خاف الرجل على حنانه منه، ابتسم على البعد فبدا جلد وجهه مترهلًا تحت أسنان بارزة. لكن ميكا اندفع وألقى نفسه بين ذراعيه وهو يبكي ويصرخ: «انت أبويا وأخويا».

أبدى الجميع نحو سوكة حنانًا كان خافيًا، كان رمز الإنسانية الوحيد في هذه العائلة. وجوده الآن، ورغم مرضه، أضفى عليهم جوًا أسريًا وتلاحمًا لم يعهدوه في أنفسهم من قبل، أصبحوا عائلةً.

ونظفت بدرية سقف الشقة فرأوا سماءها مختلفةً للمرة الأولى.

---

(8) امل دنقل

الكحول

أخرج الأستاذ عاكف عقدا وقلما من درج مكتبه وقدمه لسلامة: «امضِ هنا».

وقع بخط ركيك في مدة أرهقت الأستاذ، لم يكن يجيد من الكتابة غير اسمه. علمه أحد السجناء كتابته للقضاء على الوقت الممل، سأل بعد أن أتم التوقيع:

- دا إيه يا باشا؟

- الشغلانة الجديدة، اترقيت.

لم يبذ عليه الفهم فاستأنف الأستاذ:

- دا عقد بيع بيت مساحته 460 متر في ركن فاروق في حلوان.

- مش فاهم.

- مش لازم.. امضِ ع الإيصال ده.

- معلش، إيصال يبقى لازم أفهم!

ابتسم الأستاذ عاكف وأشعل سيجارته ثم قال:

- تعجبني.. البيت دا تمنه مليون جنيه، بتاع موكل عندي، ورثه عن أبوه، مشكلته إنه مش عارف يخرج السكان. البيت كله على بعضه بيجيب إيجار 320 جنيه في السنة، مفيهوش غير شقة واحدة فاضية ف الدور الأرضي، سلامتك، انت بقى اشتريته، المطلوب منك يا حلو إنك تخرج لنا السكان. تاخد نصيبك وتستلم الإيصال.. وصلت؟»

- وصلت يا باشا.

- المتعب في البيت كله هو الساكن اللي في الدور التاني، مدرس، زعيمهم اللي مقويهم، راجل بتاع قيم ومبادئ وحاجات من دي.

طاعة الخوف أقل كلفة من مرارة الشجاعة. تزعم المدرس في البداية مراسم رفضهم، تصدى لهم بخطبة عصماء، ثم لم ينقض شهر واحد إلا والسكان القدامى يضجون جميعًا بالسكان الجدد. خمسة رفاق لسلامة سكنوا الدور الأرضي، أحدهم عربجي والآخر سباك والباقون عصبة بلطجية طاغية.

ركن العربجي عربته الكارو أمام البيت وأدخل الحمار في مدخل البيت يبرسيمه وروثه ونهيقه، تناثر التبن من العليق، وقطع روشة السباك المياه عن الأدوار الأربعة التي يقطن أولها

رجل مسن وزوجته وابنهم الشاب، اعترض الرجل المسن فتدخل ابنه الشاب ليحل مشكلة المياه، ارتدى معطفه الشتوي ونزل للجيران الجدد، دق على الباب بكل أدب ففتح له «روشة السباك».

- المياه مقطوعة من ساعة ما حضراتكم سكنتم هنا.

- انت راجل مش محترم.. واحنا مالنا.

- مالكم ازاي؟ ولزومه ايه الغلط؟ طب والحمار دا؟

- الحمار دا ساكن زيك انت وأهلك.

- انت قليل الأدب.

لم يكن مطلوبًا منه إلا أن يقول ذلك. هجم الثلاثة عليه، ضربوه ضربًا طاغيًا باغيًا، نزل الأب المسن فنال نصيبًا كبيرًا من الضرب والتنكيل. ولما ذهب إلى القسم وجدهم قد حرروا محضرًا مسبقًا قبلها بيومين بأن السكان يتواطؤون لطردهم من المنزل.

حضر الأستاذ الشاب رضا المحامي في الوقت المناسب، دخل عوض العربجي القسم مبطوح الرأس ملوحًا بتقرير طبي في يده، تناوله الضابط باحتقار: «اترمي هناك». يقر التقرير بأن حالته تستلزم العلاج لأكثر من واحد وعشرين يومًا، يعرف أنهم على الطرف الباطل، لكنه يعرف أكثر أن القانون يتبع الأوراق، وليس الحقائق...

نزل المدرس ليلًا حين عادوا من القسم ليطمئن على العربجي، دخل متهللًا هاشًا باشًا مرتديًا حمالات حمراء لا تخفي كرشه الضخم، كثيف الشارب مرتب الألفاظ كما يليق بمدرس قديم نشأ على قسم الزيف في التاريخ، كان اسمه إبراهيم، سمحوا له بالدخول، عرض عليهم شقته مقابل المبلغ الذي يحددوه هم: «زي مانتوا شايفين.. دانتوا ناس كُمل».

ومنذ هذه اللحظة حتى رحل أصبح الأستاذ إبراهيم المدرس هو المحلل التاريخي لوجوب رحيل السكان. قدرته على إقناع الناس بالرحيل لم تقل كفاءة عن دعوتهم في السابق للتمسك بحقوقهم.

أما الفتاة الأنيقة دارسة الطب بالدور الأول، فلم تطق أن تمر ذهابًا وعودةً على روث الحمار أو أن يصل خطيبها الطبيب في أحد الأيام فيمر بهذا المشهد. استوقفها العربجي في إحدى الصباحات عارضًا أن يقلها بسيارته الخشبية إلى الجامعة، فاجأها بطلب يديها.. طمأنها أنه سيتكفل بخطيبها الطبيب.. كادت تميتها الصدمة.. خافت أن تطالب أهلها بمجابهة السكان الجدد اتقاءً لبطشهم.

تقدم سلامة صاحب البيت الجديد بعرض مالي متواضع للسكان لإخلاء المنزل، وافقوا على المبدأ لكنهم اعترضوا على المبلغ المعروض، سمحت لنفس الأستاذ عاكف بتطبيق مبدئه الدائم القائم على التلون حسب المواقف.. رحب بالوصول إلى مرحلة التفاوض، زاد لهم سلامة المبلغ فرحل السكان تباعًا، عدا ساكن الدور الأول.. كان غاضبًا منذ معركة الحمار تطلّب طرده مجهودًا أكثر قليلًا في باقي الشهر.

أخرق باب شقته، شتم ذهابًا وإيابًا، ثم فُوجئ بروشة وعوض يقتحمان عليه شقته ويطالبانه بإدخال الحمار لأن الجو بارد. كانت مجرد رؤية روشة بعينه الحمراء وعضلات جسمه النافرة تصيبه بالقشعريرة، قبل أن يجيب كان عوض العربجي -المتمرس في تصعيد الحمار على الكباري والسلالم ممسكًا بخطم الحمار- دخل بنصف الحمار الشقة، ثم عرض عليه سلامة في اليوم الثاني مبلغًا مضاعفًا تقديرًا لبسالته وصموده.

عاد يبشر الأستاذ بالبيت الخالي، فأجزل له ولرفاقه العطاء وقرر أن يثق به في أعمال أكثر.

***

بداخله، لم يكن سعيدًا بتلك الحياة الجديدة؛ يشعر أنه يمضي عكس السير، هذا نجاح وازدهار، تلك البدايات بشيرة وقلبه يضمر البحث عن نهاية، ربما يليق هذا بشاب في بداية حياته كالأستاذ رضا المحامي الذي يستقبل الحياة بحماسة مفرطة.. لا يعلم أحد ما تخفيه تلك الابتسامة، ربما يضمر خطةً متأنيةً حمقاء الحيل ليرث مكتب الأستاذ عاكف مقطوع الأصل والنسل، سلّم له ابتداءً ومبتغى، لذلك يلزمه الوقت.

يعلم أنه سيضع الحد لحياته بيديه يومًا ما.. يدخل في غمار المشاكل بقلب ميت؛ لعل أحدهم يتعطف عليه بطعنة قاضية.. لقد خلقه الله في الحياة مؤذيًا.

ليس ما يعذبه ضمير أو رغبة أن يكون شكلًا آخر أكثر رقيًا ومكانةً.. لم يوجد بعد ما يستحق أن يعيش من أجله، كل شيء حوله يدعوه للموت والملل.. أكثر ما يتوق إليه هو أن يحتويه قبرٌ مظلم كالفلواتي.

***

على هذا النهج سارت المهام التالية: إيذاء وإخلاء بيوت ومحلات، ضرب، محاضر تكسير واجهات. لا تؤثر فيه دعوات الضحايا. أكثر ما كان يدهشه سهولة البطش وسهولة تنازل أصحاب الحقوق عن حقوقهم.. يسبقه صيته فينجز نصف المهام، يجد المتنازلون دائمًا علات تنازلهم قبل أن يوجدها لهم، يذكرون سجل جرائمه فينتقون ما يناسب خوفهم، لا

يصمد إلا قليل ممن يظنون أن لهم سندًا في قسم أو مركز، وهنا يكون دور الأستاذ عاكف.. دائرة صراع مفرغة يتسلح فيها بالبطش والعتاد وسلطة الأستاذ بينما يتسلح الآخرون بدموعهم وسجاجيد الصلاة.. وما زال قلبه كسقف حجرتهم.. يزداد سوادًا وقتامة.. بلا حدود.

الست رقية

في يوم السيرك الانتخابي، امتلأت الشوارع بزخم غير مسبوق: ميكروفونات تدور فوق سيارات نصف نقل، أغان وطنية، خطب مجلجلة، خلف الكواليس شباب يفهمون اللعبة.. أمام المقرات عجائز وشيوخ ما زالوا متمسكين بالأمل وحق الأداء الانتخابي.. مولد كبير فيه من كل صنف ولون.

كان الأستاذ رضا في كامل هيئته، أناقة ووضاءة وصبر وحسن إرشاد، كمن يقف في ليلة عرسه. يستمع بإنصات ويوجه بحنان، يتحمل زحام الأسئلة، وقف في خدمته سلامة على باب لجنة وعوض العربجي الذي باع الحمار وأصبح يرتدي ثياب أهل البندر على باب اللجنة نفسه ورفيقه روشة السباك على باب لجنة أخرى. توزع الرفاق على باقي اللجان في يد كل واحد منهم عشر رزم من فئة المئة جنيه، يتسلمها الناخب بعد أن يسلم بطاقته الانتخابية الخالية ويثبت حقه الانتخابي بالمسودة.

احتشد خلق كثير على أبواب اللجان، كلٌ يريد أن يمارس هذا الحق: حق المائة. أما داخل اللجان، فقد أشرف القضاء على هذه الانتخابات.. هذا ما أذاعته الأنباء.. لم يجبر أحدٌ أحدًا على التصويت لمرشح بعينه ما عنون هذه الانتخابات في صدر الجرائد كلها بالانتخابات النزيهة.

فعل الخصوم المرشحون الشيء نفسه على أبواب اللجان، وليس بالداخل النزيه، لكن بطش سلامة ورفاقه ألزمهم بالصمت الانتخابي، ولم يصمد فتوات المرشحين الآخرين أمام عصيهم وجزرهم.

وأقبلت «الست رقية» صوب اللجان، في وجهها أمل ونور. مرت تتكئ على عصاها، اخترقت ما بين صفوف الرجال والنساء تتهادى في بطء شديد، بادر شرطي على باب اللجنة يسندها فاتكأت على ساعده حتى وصلت إلى لجنتها. عرض عليها عوض البطاقة فأشارت بظهر يدها رافضة، صددت إليه نظرة فجرته.. عاد الكلب يلملم ذيله في عقبه.

وصلت إلى مكتب القاضي، سلّمها ورقة الترشيح وما زال الشرطي بجوارها عارضًا المساعدة حتى انتهت من التصويت الذي كانت تؤديه بحماس مبالغ فيه رغم هدوء ظاهرها. خرجت تتمتم بأدعية لم يعد أحد في الحارة يسمعها إلا منها: «ربنا يا بني يوقف لكم ولاد الحلال، يكفيكوا شر الخطرات، ربنا يسدد خطاكم، يكفيكوا شر حاكم ظالم، يجعل لكو ف كل خطوة سلامة».

وصل رضوان وعاطف إلى نفس اللجنة فعرض عليهما العربجي المئة جنيه وهو يسلمهما

البطاقة المسودة فسأله رضوان بجفاء:

- بتاعة إيه؟

- مش بتاعة حاجه يا باشا.. دا تقدير لتعبك في حب مصر

- هي مصر باعتاك تدي فلوس؟

- لأ.. عاكف بيه.. مرشح الحزب الحاكم.

امتلأت نفسه غيظًا فاضحًا لا يريد له كتفًا.. غيظًا يريد أن يبدي نفسه في صياح.. لم يدر كيف يطلقه.. أيضرب قائد الجحش الذي أمامه أم يصيح بالناس جميعًا أن أفيقوا؟

اعتلى تبة بجوار جندي يحرس المكان وصاح: «صوتك للحق أمانه. صوتك دانه ستفجر عرش الظلم بكل مكان. بصوتك يعتدل الميزان».

تجنب سلامة مواجهته وأشار إلى رجاله ألا يقربه أحد.

«يا ناس، يا رجاله، يا حريم، اللي يبيع صوته يبيع بلده، يبيع نفسه، يبيع مراته.. شرف الإنسان هو الكلمة»(9).

نهره العسكري الواقف قبل أن يبدأ قصيدة أخرى:

«انزل يا أستاذ.. إنت جاي تعمل شغب ولا إيه؟»

مرّ صياحه كالصمت، لم يلتفت إليه إلا قليل، في هذا اليوم، كان صوت خشخشة المنة جنيه أشد مضاءً من كل دواوين الشعراء، وظلت الوفود تترى، ووصل التزاحم حد الصراع.

قالت له امرأة مسنة في شبه اعتذار: «محتاجين يا بني.. هنعمل إيه؟»

وقال آخر: «أنا باخد الفلوس آه، بس بادخل انتخب اللي على مزاجي».

سمعه عوض العربجي فنظر إليه شذرًا فاستأنف الرجل: «يعني عاكف بيه.. المرشح الوطني».

ظهرت النتيجة في مساء اليوم التالي كاسحةً بفوز الأستاذ عاكف عبيد بأغلبية ساحقة. احتفل المقهى بهم هذه الليلة أيما احتفاء، وكانت كل المشاريب على حساب عاكف بيه، وفي روعة الاحتفال والهتاف والانفعال انقلب الشاب الجميل رضا المحامي إلى شخص آخر...

تحول بعد نجاح عاكف إلى شخص أقرب للأهوج منه لذلك الشاب الراقي الذي كانه في الصباح. تهدلت ملابسه من فرط نشاطه وهو يهتف من جوف عروقه ويخطب ويهلل

ويتوقف بين كل جملتين مطالبًا الحضور بالتصفيق، ويرصع تاج الأستاذ عاكف بصفات أقرب للنبوة والأساطير، تهامس كثيرون أن الأستاذ رضا قد تناول شرابًا أو حبوبًا جعلته بهذه «الهيبرة»، بعضهم كان يضحك منه وأكثرهم عليه..

وفجأةً سقط متشنجًا.. ثم همد بلا حراك.. توقف الصوت ولم يتوقف الزحام.. نقلوه إلى المستشفى القريب فامتلأ وجهه وجسده بأجهزة التشبث بالحياة. مات إكلينيكيًا..

لازمه سلامة طوال الوقت. أسقمه منظره نائمًا على أجهزة التعلق على البوابة الجافة بين الحياة والموت. تحوّل النهار الناصع إلى ليل أسود غطيس.. «أهذا الذي كان يملأ الدنيا نشاطًا أول النهار؟ أولى بمن تحب ألا نراهم في هذا التشبث الواهي بالأمل». راوده طيشه على نزع العلائق كلها لتحريره من تلك المنطقة الكاذبة التي برز فيها الموت وهم يدّعون الحياة: «تكذبون في الموت أيضًا يا ولاد القحايب».

أبدى الأستاذ عاكف حزنًا شديدًا يشبه الحقيقة.. اصطحب سلامة في سيارته بعد العزاء.

جالسه عند حمام سباحة فيلته الفارهة بالتجمع الخامس. حشّشا طوال الليل، نادمه منادمة الصديق. قام على الخدمة عوض العربجي وروشة السباك. دارت برأسيهما قطعة الحشيش الصافية. ذهبت أدمغتهما المسطولة كل المذاهب، همست في رأس سلامة ذكرى قديمة لجلسات عوف الليبي وحمودة وفرج وتحت أقدامهم حورية الساعاتي تلاغي المكوجي، اهتاج لذكراها وهي تنس الغسيل في طبق الغسيل، كيف عساها تبدو الآن؟ رحلت من الحارة بعد قتل المكوجي..

حاول تذكر اسم المكوجي، عصر ذهنه، ضم جبهته بيده محاولًا تذكره، لكنه لم يستطع. انتبه مشتعل العينين حين قطع أفكاره سؤال الأستاذ المفاجئ عن أحوال أمل، تلافى ذلك بنفس اللحظة التي ملأته غيظًا فالتفت غاضبًا: «وانت مالك ومال أمل؟»

ارتج عاكف، رأي في عينيه الحمراء توثبًا، حاول أن يجعل الأمر يبدو طبيعيًا، تمنى لو يسحب سؤاله.. أفاق على كتلة صماء وعين مرعبة.. أين صهوة المزاج؟ انتشاء الحشيش قد يمنح البهجة، لكنه لا يمنح القدرة على الاختفاء.. يصنع البهجة لكنه لا يقتل الغضب.. فُوجئ بسلامة يضع يده في موقد الفحم المشتعل بغير أن ينتاب وجهه ألم.

امتلأ قلب الأستاذ بالرعب.. لعله إن نطق بكلمة أخرى سيدس يده في صدره كما دسّها في النار.. ليس هذا رد فعل ابن نجية.. تحول انصياع الكلب إلى زمجرة ذئب.. هل يعرف ما كان؟

ازدرد ريقه بصعوبة.. وساد صمت غريب.

«امرأة أحبت فصارت قديسة»(10).

أبدت صمودًا لم تكن تتصوره في نفسها. لم يقربها زوجها منذ علم بعلته، ومنذ أخبره أحدهم أن المرض يمكن أن ينتقل إليها من خلال التلاقي. يملؤه الشوق فيمتنع، لكن حنان روحه وروحها أشبع عروقهما حتى الرواء. صارت له الأم والزوجة والطبيبة. مسحت السلالم لكنها لم تتسول، واجهت نظرات الأنذال بجمود مرة وبتغافل مرات. كلما رأى أحدهم ضموره وصبوتها توجهت قرون استشعاره نحو سهولة الصيد..

تعجبت كثيرًا من ادعاءات الشهامة ومن هوان الرجال على الرجال.. كل شعارات الشهامة تتوه بمجرد الهياج. مسحت الشقق، غسلت السيارات، تعلمت منذ أن تركت بيت أبيها أن المسح والتنظيف هما الوسيلة المثلى لاستعطاف ربات البيوت والسماح لها بالإيواء، قلّما وجدت بيئا بلا أطماع زوج أو مراهق يترخص الخادمة، لكنها كانت قد اكتسبت الخبرة الكافية لوأد الفكرة فور أن تصرح بها العيون، وجود امرأة وحيدة في الشارع هو الخطورة الوحيدة، حتى العيون العاطفة عيون ضباع تستخفى.

كانت الخدمة ثمنًا لبقائها في بيوت الناس آكلةً شاربةً ولو على بلاط المطابخ، لكنها أصبحت عن طوع خاطرٍ وحب في بيت «الست رقية». غسلت سيارة عاكف عبيد نفسه، قاتلها القديم، فعلت كل ما تستطيع أن تفعله امرأة كبيرة في موقف كبير.. في البيت أيضًا؛ بررت وجودها لديهم بتنظيف الشقة والعمل فيها كخادمة.

أعطاها الأستاذ عاكف مبلغًا كبيرًا مقابل غسل السيارة ثم قال: «ما تيجي تنضفيلي الشقه يا بدرية».

استنفرتها جرأته وتحفزت لقتال. وقفت مستقيمة العود رافعةً حاجبيها: «الوساخة اللي ف شقتك عمرها ما هتنضف».

أوشك أن يرد لكن خاف أن تثير زوبعة توقظ الجرم القديم وتصحح الشكوك الدفينة، كانت متنمرةً عملاقةً. اشتدت قامتها في استعلاء وتقازم أمامها حتى أوشك أن يتلاشى، ليس هناك اليوم نجية، كل حصانته البرلمانية لا تساوي في هذا الموقف حذق نجية.

أخذت ثمن غسيل السيارة وألقت الباقي على الأرض.. ظلت واقفةً أمامه كالطود تنتظر أن ينطق بكلمة.. ارتبك.. تلفت الأستاذ حوله ينظر هل يراه أحد.. ذلك ما يشغله دائمًا، ركع على الأرض أمامها والتقط المبلغ.. وركب عضو مجلس الشعب سيارته الفارهة ومضى.

سألها سوكة عما بها حين دخلت فقالت: «لا يا حبيبي.. بس الواحد بيقابل حاجات كتير ملهاش لازمه لحد ما يلاقي الحاجه اللي ليها لزمه».

ابتسم بوهن وقال: «حتى لو ضاعت بعد كده.. كفايه انه لقاها».

ارتمت في حضنه تقبل رأسه ويديه:

- انت الحاجة الوحيدة اللي حبيتها ف حياتي.. قبلك كنت باتمنى الموت.. دلوقت بحب الحياة.

- عارفه لو مكنتيش ف حياتي كان زمان الدنيا شكلها إيه؟

- يا نهار أبيض. يا نهار أبيض. انت اللي بتقول كده؟

***

تناوبت سوكة أعراض متناقضة في مراحل شتى. نوم وغثيان وقيء وإسهال وإمساك.. اضطراب في كل شيء.. نحل جسده وعلا بطنه في تشكل مضطرب.

اطلع الطبيب على التحاليل المطلوبة.. وقرر ألا يخدعهم بالأمل... «ليس أمامه سوى ستة أشهر.. الكبد والطحال متليفين والموضوع انطور».

قاطعه سلامة: «مفيش ف ربنا أمل؟»

قال الطبيب محاولا تبسيط الأمور قدر المستطاع: «الميزة في الكبد إنه ممكن يشتغل بأقل من ربع كفاءته. يعني تلاقي الواحد رايح وجي قدامك. إنما مفيش أي ضمان.. لسه مفيش علاج. زرع الكبد أظن هيحتاج مصاريف انتم مش قدها.. وبرضه الأمل ضعيف.. ربنا كبير».

ظل سلامة مثبتا نظره عليه وفتح فمه وجز على أسنانه وزر عينيه ثم أخذ أخاه وخرج.

أثر سقوط سوكة في سلامة أكثر من أي شيء آخر. قال موجها حديثه إلى بدرية: «ليه مش أنا؟ ليه مش ده؟»

أشار إلى أبيه المرمي ككومة من الرماد لا يعقل شيئا: «قضا ربنا.. ما باليد حيلة».

صمت ولم يعلق.

***

رفعت كتبة نجية للمرة الأولى منذ ماتت لتمسح تحتها. وجدت عفنا لم تكن لتخيله. لم

فتحت «السحارة» لتنظفها فوجدت في جوفها ملابس مهلهلة وبقايا طعام، توغلت يدها قليلًا فاصطدمت بصرة في أحد جوانبها، التقطتها، فكت الرباط المحكم فوجدت بداخلها ذهبًا وآلاف الجنيهات وصليب عوف الليبي وقرطًا كانت تدعي سرقته في كل «خناقة» والهاتف المحمول الذي سلمته رشا لسلامة يوم سلمته أمل.

انتظرت حتى عاد سوكة وسلمته الصرة كما هي، انتظر بدوره حتى عاد سلامة واستدعوا ميكا.

- الوليه كانت سايبانا ميتين م الجوع وهي مخزنه كنز

- طب كانت سايباه لمين؟

- تلاقيها فلوس كهرمانة.

شملت ميكا نوبة كرم وقال: «خدي الحاجات دي كلها ليكي يا بدرية، بس هاتلنا بطتين والنبي من بتوع فرج».

انفجروا جميعًا في الضحك حتى الدموع، قال ميكا لسلامة: «فاكر لما ضربتني عشان بيضة مسلوقه».

تلكأت الضحكة على فم سلامة ثم قال: «الظاهر أنا كل مشاكلي في الدنيا كان سببها البيض».

شيء أساسي تغير بداخلهم من دون أن يشعر أحد؛ حوّلهم وجود سوكة وبدرية إلى عائلة أخرى. وأصبح الذين كانوا يتقاتلون من أجل بيضة مسلوقة بالأمس يدفعون عن أنفسهم كنز نجية، نجية التي اختصرت نزاعات وصراعات حياتها في هذه الضرة. تخطى ميكا مرحلة العوز وكره سلامة كل ما تقبل به الدنيا عليه من نجاح.

رد سوكة عائدًا بهم إلى الأمر الأساسي: «وبدرية تعمل ايه بالفلوس دي كلها؟ دي بتاعتكم انتم».

قال سلامة: «أنا مش هاشيل فلوس تاني، هيا الدنيا ما لها ماسكه فيا وجيالي من كل ناحيه ليه؟»

رد ميكا: «بس التليفون ده..».

صرخت أمل: «آخده».

صمتوا جميعًا فقال ميكا مشجعًا: «اشحنيه وأنا بكره أجيبلك لك رصيد».

ثم حسم ميكا الأمر كأنه يحكم بينهم: «عالجي أخويا وشيلي الباقي للي ف بطنك ولأمل يا بدرية».

عندما شُجن الهاتف، طلبت أمل رقمًا بغير اتفاق فجاءها على الطرف الآخر صوت جاف. ردد الصوت: «ألو ألو..».

ارتبكت وأغلقت الهاتف.

على الطرف الآخر، كان نفس الرجل الذي تعلقت عيناه بوجهها على صفحة كوبري السادس من أكتوبر يوم انخلع الشبشب.. لم اختفى إلى الأبد.

طلب سوكة أن يتحدث إلى سلامة على انفراد: «عاوز ترامادول؟ أفيون؟»

- بلاش.

نظر إلى أخيه وقال:

- الظاهر إنه ورث.. زي الشقا والفقر.

- بعد كده مش هنعرف نستغنى عنه.

- مفيش بعد كده، هما أربع شهور بالكتير، الدكتور قال كده. سرطان في الكبد وتليف في الطحال ومش عارف بيقولك الترم دوالي إيه.. أنا تعبان قوي يا أخويا.. عاوز بس الوجع يقل.

أراد أن يمنحه الأمل.. وسرى في عينيه طيف دموع.

- عارف نجية كانت دايمًا بتقول إيه عنك؟ سوكة دا الوحيد فيكم اللي أبوه كان محترم.

ضحكوا ضحكًا أخويًا عذبًا ثم قال سوكة: «الحمد لله»

أجاب سلامة، وما زالت على وجهه بقايا ضحكته: «على إيه؟»

انتهره سوكة: «بتقول إيه؟»

- لا ولا حاجة.. هو انت بتشوفه فين؟

- هو مين؟

- ربنا.

- طول عمري شايفه، باحس بيه اكتر في المطن ساكن فيه، يملاك وتشوفه وتحسه، بس متقدرش تمسكه، أما في الوقت دا.. أنا شايفه أكتر عارف يا سلامة لو انت في بحر والدنيا ضلمه والموج حواليك واتقطعت أسبابك بأي حد وأي حاجه.. هتقول يا مين؟ مفيش غيره.

أنصت إليه بوجه جامد ثم قال:

- وهو هينقذك؟

- مين اللي قالك إن الموت مش إنقاذ؟

- وعيالك؟

- يا سلام! هو اللي معاهم أبوهم بس هما اللي كويسين؟ ربنا قادر يسبب لهم أسباب أحسن مني.

سعل حمودة الأفيونجي فمنح سلامة الجواب.

- هو انت مش خايف تموت يا سلامة؟

- أنا؟ مش عارف.. بس متهيألي أنا مت من زمان قوي.

***

لم يعد حمودة الأفيونجي يدرك مما حوله شيئا، أصابه العمى والصمم، غارت رقبته بين كتفيه واسودت يداه، جفت فيه كل منابع الحياة كما جفت الكلمات في فمه الأدرد إلا من صراخ مرتعب يطلقه بين حين وآخر من هولٍ لا يعلمه إلا الله.

يقضي معظم الوقت راقدا لا يتحرك من محله على الأرض بجوار «الكبنيه»، اختاروا له هذا المقام ليكون قريبا من الحمام لكنه لم يعد يستطيع الوصول إليه، حتى هذه المسافة صارت شاسعةً مستحيلةً ولولا أن أرسل الله بدرية لظل مكانه يبول ويغوط حتى يفنى، رغم ثقل الحمل وقرب المخاض رحمته بدرية...

تنتابه حالات صراخ ضج منها الجميع، ثم أصبح يأكل بنهم غريب ويكاد لا يشبع، يضع الطعام في بئر لا يمتلئ، تناوب كل سكان الحارة على مده بالطعام، يأكل ثم يأكل حتى يغفو ثم يقوم صارخا، ذكّر الحارة بالعواء القديم وكهرمان وكهرمانة ثم ظل ينازع الموت أسبوعا كاملًا.

انفصل عن العالم ولم يدر أحد ماذا يحدث له في واقعه الجديد، يخور كالثور ويتحدث

كالأخرس، يتعامل مع عالم يراه وحده ويسمعه وحده.. يمسح وجهه ويهمهم محركًا يديه في الهواء. حاول سوكة كثيرًا أن يقترب منه ويلقنه الشهادة أو يسقيه لكنه كان يشير بيديه إلى أعلى متحدثًا لمن يراهم وحده بلغة غير مفهومة...

لم يكن ذلك في عين الناس سوى هذيان، لكن كان واضحًا أنه يعاين شيئًا ما وبلغة تبدو كاملة الأركان لكن لا يفهمها أحد، لا شأن لها بدعاء سوكة وتلقيناته التي تذهب أدراج الرياح ثم أخذ يهز رقبته وقدميه ويديه اليوم الأخير كله، ثم تشنج ورفس ساعةً كاملةً ثم أرغى فمه وأزبد سائلًا أخضر، ثم سكن إلى الأبد..

مات بعد موت نجية بسبعة أشهر في نفس عمرها حين ماتت: الثامنة والستين، وولدت بدرية في نفس اليوم طفلةً رائعة الجمال.. في الأول من يناير عام 2011.

---

(10) توفيق الحكيم، (أهل الكهف).

وجه

قرر الأستاذ عاكف أن يمنحه المزيد من المسئوليات والعطايا؛ «لا بد من تطويق عنقه»، ومزيدًا من التوقيعات أيضًا.. أراد أن يُحكم عقد الحبل على رقبته ليستعمله كما يشاء أو يخنقه حينما يشاء. لم ينس للحظة نظرته الأخيرة والفحم يشوي لحم يديه.. لو لم يصادفها بحكمة لاخترقت هذه الكف قلبه.

أكثر ما راق سلامة كثرة الانشغال، أما أروع ما أسند إليه من أعمال، فكان العمل لدى محسن عزت، السياسي الكبير الذي اتصلت علاقته بالأستاذ عن طريق الحزب وأوكل له تخليص وقف في دائرته. كان للاسم وقع صادم وشجي وباك وصادم. توقف باهتًا بلا حراك حين سمع الاسم.. البركان الذي بداخله لا أثر له على ملامحه، لكنه لظى محرقة. تلك هي العلامة الأولى لبدء النهاية.. رسم الحد القاطع الفاصل بين الرتابة التي يعيشها والهدف الذي يضمره.

سأله الأستاذ:

- ما لك؟

- لا، مفيش.. بس الدنيا صغيرة قوي.

- تعرفه؟

- لا.. وانا هعرف الناس الكبارات دي ازاي؟ أنا معارفي قبل حضرتك عربجيه وسباكين.

- المهم، خد الورق دا وصله للباشا وإياك تطول معاه ف الكلام، الناس دي مش زينا، انت هتبقى الراجل بتاعه في الدايرة بتاعتنا، عنده كام حتة أرض على كام بيت عاوز يخلصهم، وانت طبعا ابن الدايرة وفاهم.

لم تزق له المزحة الأخيرة، لكنه لم يستطع منع نفسه عن ابتسامة فجاراة: «تمام.. تمام يا باشا».

خرج من عنده واليقين يملؤه أن الله حكيم فعلًا ومكير.. كل شيء عنده بميقات.. «لا بد أنه هو الذي أوعز لقابيل بقتل هابيل.. وضعهما معًا في طريقين متضادين.. منحهما الأسباب لم أطلقهما في الدائرة.. أهبط أبوهما بخطيئته من الجنة إلى الأرض.. سأصعد أنا بالانتقام من الجحيم إلى أي مكان؟»

***

تراءت له الفيلا على البعد صرحًا شامخًا.. أوقفه الأمن قبل الوصول إليها بمسافة تفوق الخيال، فتشوه تفتيشًا ذاتيًا محكمًا.. ضباط وأمناء في زي رسمي وآخرون في زي مدني. تذكر كمائن المرور. حذره المفتش الأخير أن يمس شيئًا مما يقابل حوله.

تذكر الحكاية القديمة التي قصها عليه سجين، حيث حذر الساحر علاء الدين أن يمس جواهر المغارة حتى لا تغلق الصخرة بابها عليه فيضيع إلى الأبد في الكهف المسحور.. كان على علاء الدين أن يحرص على نيل المصباح فقط، المصباح فقط.. أصبح للحياة هدف.

maktabbah.blogspot.com

مر من البوابة الحديدية الضخمة في طريق اصطفت فيه عتبات رخام فوق نجيل أخضر ندي.. بُنيت خصيصًا ليطمئن صاحب القصر ألا يطأ زائره النجيل.. كيف ذبحتها إذن؟

على يساره تراصت أقفاص حديدية بداخلها كلاب شرسة وخيول أنيقة القوام، تبدو الرعاية الواضحة على نظافة الحيوانات. أمام بعضها طعام فرغت منه، وحيوانات أخرى أسقمها الشبع.. وعلى يمينه سور استقر تحته العديد من التماثيل المزخرفة بدقة، وفي وسط الطريق ازدانت مسلة فرعونية طويلة حولها سياج من بازلت وزلط أنيق.

«ها هنا يعيش إذن.. قضى ليلةً كاملةً وهو يقتلها ويمزقها. بأي وجه سوف ألقاه في اللحظة الأولى؟ هل عليه ألقي التحية أم أطعنه في الوهلة الأولى؟ أي الوجوه سأرتدي؟ أأمد يدي إذا مد يده مصافحًا! هل أبتسم في وجهه وهو يشد على يدي؟»

في ذلك الممر الطويل المؤدي إلى الباب لم يكن يصبو لشيء إلا أن يحتفظ بشحنة الغضب كاملة. ثبتت خطاه على وتيرة واحدة. على بعد خطوات خلف هذا الباب تستطيع أن تغتسل من الدنس القديم والجديد. قاتلان على جثة واحدة.. بريئة لم تكن تملك إلا أن تطيع قاتليها.. بدءًا من الخال الخسيس.

خمس درجات ثم يصل إلى الباب، ضخم ومصمت، مقامات الوصول إلى الجرم البديع قبل نيل الحرية.. لا بد أن يكون الباب بهذه الصرامة.. هذا بابٌ يفصل بين الحياة والموت.. بين كل ما سبق وكل ما هو آت.. خمس درجات لا بد أن يرقاها ليراه وجهًا لوجه، ليصل المريد لما يريد، لتبرأ كلُ جروح الروح قبل أن تقرَ في الجحيم.. وليمنح نفسه الخلاص.

فتح له رجل صارم الهيئة متين العضلات، طلب منه الجلوس في مدخل الفيلا حتى يقابله الباشا. تأمل المكان.. بناء فخم أشعره بالصغار.. كثير من التفاصيل والتماثيل والتحف..

مؤكد هو يعشق الاقتناء، وإلا فلم قتلها؟ بدقة تحركهم تثبت أن لمس قطعة من مقتنياته تعني الانتحار.. الموت في الكهف.. بشر كثير يتحركون في قصر الباشا.. كلهم في مدار رضاه. كلهم أذلة صاغرون. يمر أحدهم بفنجان قهوة فيستوقفه الآخر ليتأكد من نظافة الفنجان

والصينية.

أجبر نفسه على الدخول في ذاته مرةً أخرى، فما وصل هنا ليتأمل المكان وصغار البشر الدائم أمام الأقوياء.. المدرس الثوري كان أول من باع القضية «انتم ناس كُفل». أيمكن في وجود كل هؤلاء أن يقبض على عنقه بيديه؟

عاد العملاق الصارم الذي فتح الباب وقاده إلى مدخل آخر يؤدي إلى مكتب الباشا.. خطوات طويلة في بهو فخم، فتح له الباب فرآه أمامه. سرت في جسده قشعريرة حين رآه. قصير مدكوك عريض الفكين، فاحم الشعر يكاد لا يبين خلف مكتبه الضخم، في ملامحه خبث قديم وتوتر وتعال، يرتدي نظارةً عريضةً سوداء الإطار.

كان يتحدث في هاتفه المحمول. يطوي جانب شفته العليا ليقرض طرف شاربه بأسنانه وهو يستمع. يحك ذقنه بباطن كفه ويحرك يده الخالية كمن يشق الهواء وهو يتكلم. تحتقر عيناه كل ما حوله؛ يعاملهم كالحشرات.

«لا بدّ أنك ذللتها كثيرًا أيها الوغد! كيف مرت عليها تلك اللحظات القاسية والدماء تتفجر ولا مفيث؟ أتراها تضرعت أم بصقت في وجهك؟ كيف تجرؤ أن تكون صلبًا هكذا بعد ما فعلت؟»

«جاب الورق؟»

وجد نفسه صغيرًا فجأةً. لم يكن يحدثه هو، بل حدث العملاق بجواره.. نظر له العملاق فقال: «موجود يا فندم».

مدّ له العملاق يده فتناول الأوراق ثم سلمها لسيده فأشار لهما أن يذهبا.

انتهى كل شيء.. احترق شيء بداخله، شعر بالدخان.. أحس أنه أقل من ذرة تراب «موجود يا فندم» هكذا إذًا.. أقعيت ذنبك في الوهلة الأولى ثم عدت من حيث أتيت.

عاد من الطريق نفسها.. الدنيا ونفسه خلاء. أطبق بيده على رأسه ووجهه، لم يرني الكلب، لم يحدثني، لو عرض له صرصور لانتبه، أما أنا فلست سوى.. موجود يا أفندم!

أحس أن عيونًا تسلط الغضب على قفاه.

***

عاد إلى الأستاذ عاكف وحكى له شكل اللقاء:

- شكله مشافنيش أصلًا!

- شافك وعارفلك.

- أمال ليه الطناش ده؟

- مش طناش ولا اهتمام.. الناس دي مبتفكرش كده.

ثلاثة لقاءات متتالية، يذهب بأوراق ويعود.. يحدثه من خلال شخص آخر.. في إحدى المرات تأكد أن عينيهما تلاقتا، لكنه لم يعتبر وجوده.. كأنه يمر بنملية بيتهم القديم أو طست الغسيل أو خرطوم الشطف.. تركه في المرة الأخيرة منتظرًا لساعة كاملة.. ثم سلمه العملاق أوراقًا وطلب منه بصيغة أمرة أن يسلمها للأستاذ عاكف.

قال الأستاذ عاكف:

- العملية دي لو عملتها هتبقى حاجه تانيه خالص، انت اتفتحت لك طاقة القدر.

- عملية إيه؟

- إخلاء برضه.

- سكن؟

- لأ.. وقف.

استخلص السيد محسن عزت عددًا من الأوقاف والتكايا من وزارة الأوقاف، لم يبق إلا التخلص من قاطنيها؛ لأنها ستدخل بعد قليل ضمن مشروع حكومي أثري كبير وعالمي. ضمن هذه الأوقاف وقف في دائرة عاكف، الوقف الذي يحتوي مقهى الكاشف ومحل الفيديو الذي أصبح «سايبر كمبيوتر» والتكية.

- هتحاول تعرض عليهم يمشوا بالذوق.. وهتراضيهم لكن بقى لو مرضيوش.. لازم تتصرف، امضي.

- هحاول وحراضيهم! حتصرف؟ هو سعادتك مش هتبقى معايا ولا إيه؟

- لا، لا، لا.. المره دي أنا بره الصوره خالص.. دول أهل الدايره.

- أيوه، لكن..

غضبت نبرة الأستاذ كمال: «لكن إيه؟»

ارتج للحظة، شعر باستحالة الاقتراب من ذلك الوقف ورغم ذلك وقع حيث أشار الأستاذ.

- بس يا باشا أنا أعرف أن الوقف دا ممنوع يتهد أو يتبني.

- ليه؟

- مش دا القانون يا بيه؟

- احنا اللي عملناه واحنا بنفصله.

- أيوه يعني.. مش دا آثار.. دا السياح بييجوا يتصوروا عند السبيل.

قام من مجلسه منهيًا الحوار:

- انت بقيت رغاي ليه؟ الناس دي يا بابا لو حبت تخلي الهرم بكره الصبح تخليه.. اسمع.. أنا عايزك تنجز الموضوع دا ف أسرع وقت.

***

«لماذا لم تقاوم؟ لماذا لم ترفض؟ أصبحت تتردد مثل الأغنياء.

كيف ستضع عينيك في عيني سوكة؟ أيتها الكلاب الفاضبة، انبحي بداخلي مرةً خارج الدنس لأصطف بين الأخيار.. إبراهيم الكاشف.. السرير الذي نمت عليه صغيرًا كان من فضلة خيره، أبوك الذي طردته كل الأماكن، هو الذي استوعبه، علاج أخيك، المقهى، أشرف.. إلام وصلت أيها الكلب النجس؟»

***

في الزيارة الخامسة، شعر أن كل هذا الأمن المحيط بالفيلا لصالحه هو.. اكتسب وجهه ألفة لديهم، أسعده وجودهم وكثافتهم وتعملقهم؛ هؤلاء سيضمنون نهاية مزدوجة؛ لا بد أنهم قاتلوه بعد أن يقتله. ما أروع أن يفرغ هذا العالم من كلبين في ليلة واحدة.. لا بدّ أن النهار التالي سيكون أنقى.

تخففت حدة التفتيش.. ما زال لا ينظر إليه، لعله ما زال يخشى أن يراها على بسيطة وجهه. ولكن إلام تلقاه ثم تلقاه ثم تلقاه ثم تلقاه؟ حتى يتسرب الخنوع إلى دمك؟ كما صرت تتلقى «بيض» الليبي حتى اعتادته يداك.

كالعادة، ترك الأوراق «للباشا» وخرج.. يدرك أنه يراه.. لماذا يسمح له بالدخول إلى مكتبه ما دام مصرًا على الادعاء أنه لا يراه ولا يكلمه؟ تعود الأمر قليلًا.. لعل هذا أفضل من أن يرى الحقد والسواد الذي يمتلئ به قلبك تجاهه.. كالعادة التي صارت مقيتة، سلمه الأوراق وخرج...

من شرفة بالطابق الأعلى للفيلا الشاهقة، كان وجهٌ يتابعه للمرة الخامسة بتطلع مثير

ويتساءل في صمت: إلام الصبرا متى ستضرب ضربتك وتنهش أيها الذلب البريّ القديم؟

وكانت قطرات من ماء المطر تترى منذرةً بهطول شديد.

الوقف

الليلة ليلة الحسم.. معركة دائرة منذ خلق الله هذا الشارع بين نفوذ السلطان وأحجار السبيل العتيقة.. تشهدها أبوابها المهنية من آلاف السنين. كم مرت عليها من خلائق فنوا ودرسوا وبقيت الرسوم والأبواب؟

جمع سلامة رجاله، عوض العربجي وروشة السباك والبلطجية الثلاثة. تجمعهم يبعث الرعب في القلوب، توجه يقدم قدمًا ويسحب أخرى نحو المقهى، خطوه وجل وقلبه جبان، جسده مقدم وروحه محجمة. كان الليل قد أرخى سدوله والكل منتظر نهاية هذا الحوار الذي بدأ منذ يومين بين سلامة وإبراهيم الكاشف.

طرده المعلم إبراهيم الليلة الماضية على مرأى ومسمع كل العيون فاختار بذلك الطريق الصعب..

ما زال صوته يتبعه منذ أمس: «الكلب ابن الكلب جاي يطردني من القهوة».

أطفأ سيجارته وقام بغير أن يرد. وجلس المعلم إبراهيم يحاول جمع أنفاسه «المكروشة» التي كادت تتطاير معها روحه، أسمعه المعلم الكاشف باقي كلامه قبل أن يمضي: «طلّعوا أرواحنا يا كفره أسهل ما تقلعوا الأحجار».

اليوم عاد، لا ليتحاور أو يقدم عرضًا، بل ليهدمها فوق أصحابها.

تراءت له وهو في الطريق جولات أبيه بين الطاولات، وصوته القديم يدوي: «وعندك اتنين شاي وحجرين معسل»، «خد فلووووس»، مذاق كوب سحلب دافئ بالبندق كان المعلم الكاشف يصر أن يدعوه ليشربه في الشتاء فيستحلبه على مهل متمنيًا ألا ينتهي..

الكوب الدافئ والمذاق النادر، لسعة اللسان كل مرة.. رائحة البندق والحليب والقرفة. يرقب أعاجيب الخط العربي وتعاريجه ولون آيات القرآن بريشات الخطاطين.. كانت تلك الخطوط المتحررة من كل قيد تمنحه صورة موقرة للرب أكثر من ضريح الفلواتي وسيرة الحياة..

قدرة نادرة على خلق مذاق الورع.. كان يشعر أن هذا الكلام الذي يخطونه عظيم وكبير رغم أنه لم يقرأ حرفًا. كلما اقترب تراءت له الأحجار أكبر وتأكد من استحالة هدمها.. وجة أمل.. غامت في عينيه صورة عوف الليبي متداخلة مع وجه محسن عزت وكلاهما يستبيحان شيئًا لا يمكن أن يخصهما بأي شكل، كلاهما امتداد للآخر، حياته بأكملها في الجهة الأخرى. ممتهنة بكل حقارة.. هذا اغتبط بها ثم قتلها حية، وهذا سدد لها الطعنة الأخيرة. الخال لا

يراقب وصاحب المال والنفوذ لا يرد له طلب، وكراء كل هذا وتأتي لاقتلاع حجارة المسيل.

على البعد رأى المقهى خاليًا، ساكنًا يشع منه النور، واقفًا من خلال موقعه الكراسي مرصوصة كتحذ أسطوري باسل. لكن المقهى شبه خلاء. دائرة صغيرة متحلقة حول شيخ جالس، أخذت هيئته تتضح كلما اقترب. إنه هو، المعلم إبراهيم، بوهنه وقدرته العجيبة على بعث الرهبة رغم اختفاء قوته.. سر المقهى وروحه.. راسخًا كالأحجار العريضة التي هزمت السنين..

كان متكئًا على عصاه يملأه الوهن والشرف، كالحجر، انمحت قشرته وبقيت صلابته.. وحوله سوكة وأشرف النوبي وعم جرجس ذو الثمانين عامًا.. توقف حين اتضحت معالمهم، أشار بيديه فتوقف أتباعه.. لم تستطع قدماه أن تخطوا خطوة أكثر، حرن كفيل أبرهة.

***

زمجر الأستاذ عاكف عبيد كالأسد الجريح: «لا وحياة أمك، متجيش مع الناس دي وتصغرني».

خرج من أمامه والحيرة تملؤه، لا يدري ماذا يحدث حوله أو بداخله.

تحين عوض العربجي الفرصة المواتية ليكون رجل الأستاذ: «سلامة ايده مرعوشه يا باشا.. خايف على أخوه».

هذا كلب آخر يهز ذيله..

- تقدر؟

- لو انت معايا.. أفوت في الحديد

- سيبني دلوقتي.

منح الفرص للفاشلين لا يعني أنهم قادرون على النجاح، لكنه يعني مزيدًا من الإحباط.. ليس هذا العربجي. كان يريد مساحة ليفكر، لم يكن أسلوبه متسرعًا قط، بل شديد الصبر على ضحاياه حتى يغشاهم السم فيسقطوا.

لماذا لم يطو سلامة تحت إبطه رغم كل هذه العطايا وهذا الزمن وهذا الأصل الخسيس والطبع الحيواني؟ ما الذي يجعله عصيًا على الانصياع؟ أليس هذا ابن نجية والأفيونجي، كلاب السكك؟ هو الذي لهث ليحظى بخدمة محسن عزت وهو الحريص دائمًا على الوصول إليه.

لست بالفشوم حتى أصدق خشيته على أخيه، هذا الكلب لا يخشى شيئا في هذه الحياة ولا تطوف بقلبه مثل هذه المشاعر، عوض العربجي لا يستطيع أن يسوق غير الحمار، بل الحمار أسرع في اعتياد الطرق، أما هو فينهق لو رأى أتانًا.. لا.. ليس هذا، بل سلامة ولا أحد غيره.. عصيانه هذا لا يعني أن أخسره، أستطيع بشيك واحد مما وقع عليه أن أخفيه إلى الأبد، لكن ليس الآن، ما زالت هناك استخدامات كثيرة.. ليس قبل أن يرضخ هذا الكلب طوع يدي.

أخرجه طرق على الباب من أفكاره. أخبره عوض العربجي أن المعلم إبراهيم الكاشف بالباب. عدل الأستاذ هيئته وأعاد ترتيب نفسه ثم أذن له بالدخول.

لجأ إليه المعلم كحبل نجاة قبل أن يقع الصدام. كان معه أشرف. أبدى الأستاذ اندهاشا شديدا مما فعله سلامة، عاب عليه تجاوز الأصول والمعمول به من غرف في محاورة الكبار، لكنه ختم خطبة دهشته بقوله:

- لكن مكدبش عليك يا معلم، سلامة مش لوحده.. سلامة أصغر عسكري في اللعبة.. وأنا مش هقدر أناطح الناس دول.

- لكن تقدر تشتري الراجل بماية جنيه.

- اسمع بس يا معلم، المشكله أن أنا خايف ادافع عن القهوه.. أتعاص.

جمع المعلم كل تقاطيع وجهه في منطقة وسطى من وجهه وقال غاضبا:

- إنت بتقول إيه يا حضرت؟

- ريحة الاجتماعات اللي بتتعمل ع القهوه.. العيال اللي عايزه تنزل في يناير. والخطاطين والوقفات اللي عايزين ينظموها.. انت مصلحتك تسيب القهوه النهار ده قبل بكره.. إنت متعرفش ممكن يحصل لك إيه.. انت قلبتها ماخور.

مرقت الكلمة الأخيرة كطعنة مخرت قلبه..

- أنا كبرت قوي على إنك تخوفني يا سي عاكف، اللي زيكم بس هو اللي بيخاف، القهوه دي قهوة جدودي وجدود جدودي والكلاب اللي زيك رايحه وهيا اللي باقيه.

لطمه عاكف على وجهه فرد له المعلم لطمته في نفس اللحظة، دخل عوض العربجي منتظرا إشارة ليفتك بالمعلم، لكن أشرف عاجله بلكمة كومته على الأرض وكاد يضرب الأستاذ الذي اتجه خلف مكتبه في اللحظة التي ضرب فيها عوض، وسمع دوي طلقة رصاص.

لم يصدق أشرف أن الرصاصة اخترقت قلبه، ولم يصدق الأستاذ عاكف أنه جرؤ على ذلك.. لكنه ظل ثابتًا. ولم يصدق المعلم إبراهيم الكاشف أن شخصًا على وجه الأرض يمكن أن تبلغ به الوحشية أن يقتل مثل أشرف.. ألقى عصاه وتهاوى أرضًا ليسند رأس أشرف. قام عوض العربجي يعدو نحو الباب، ثم عاد بالسباك وباقي العصابة.

***

في ذلك الزمان كان القتل مباحًا، ولم يكن رجال القانون يحارون في صوغ المحاضر. وكان أشرف أول قتيل رصاص في الشارع الشهير بضريح سر الدين الفلواتي، الذي أوغل عمره في الظلام والفحشاء بلا هوادة..

تحبكت القضية بتفاصيل جديدة مدهشة. وتساءل الناس، ما الذي أرسل أشرف القهوجي إلى مكتب الأستاذ في هذا الوقت المضطرب! وما تلك السكين التي ضورت بجوار جثته! وأسئلة كثيرة أخرى كلها تدين أشرف.. أوضحت التحريات بعد ذلك أنه كان تاجرًا للهيروين والمخدرات.

تفاصيل كثيرة.. لكن الحقيقة ظلت واحدة.. مات أشرف سعيد زهران النوبي، القهوجي الأعرج.. واستمر عاكف نائبًا محترمًا.

منى

- هو احنا ليه مش بنروح مستشفيات ونتعالج زي بقية خلق الله؟

سألت أمل ببراءة فأجابتها بدرية:

- والنبي يا حبيبتي مانا عارفه.. قضا ربنا.

- طب هو احنا الحكومه عارفه اننا عايشين.

- آه.. أمال بتحبس خالك ازاي؟

ضحكا ولم تستطع بدرية أن تحتمل ضحكتها من ألم الوضع. تناولت طفلتها وأسندتها إلى صدرها لترضعها ودخل سوكة ليراها أول مرة..

كان واهنًا يزفر أيامه الأخيرة، نظرته بين الدموع والامتنان، متهلل الوجه في هدوء يخفي تحته زمزًا وطبلًا.. سامح الحياة وتقبل كل ما لاقاه.. لمع ضوء الشمس القادم من شباك حجرة المستشفى أمامه وأرسل شعاع أمل على المكان كله.. لاقته عينا بدرية بحب وابتسام:

- استنى يا حبيبي حرضّعها وأديهالك.

- لا، أنا عاوز أشوفها كده وهيا على إيدك.

- هتسميها إيه بقى؟ اوعى والنبي تقول لي نجية.

- هاسميها منى. ايه رأيك؟

- أحلى اسم.

ظل مسندًا نظره إليها في حنان من بعيد.. دخل الطبيب وقال موجهًا حديثه لسوكة: «ادخل احضنها.. متخافش».

ألقى نفسه في حضنيهما حتى شبع.

***

مات مطمئنًا راضيًا سعيدًا.. دخل في غيبوبة كبدية مدة أسبوع ثم قضى وعلى شفتيه ابتسامة. بكته الحارة كما لم تبك أحدًا من قبل، أشرف على كل مراحل الغسل والتكفين والدفن الشيخ إيهاب وصحبة المسجد، بكاه عم جرجس كما لم يبك ابنه صمويل.. ووجد سلامة نفسه يبكي في صلاة الجنازة ويدعو الله دعاءً حارًا أن يرحمه.. لا يمكن لمثل هذا أن يموت فينتهي الأمر.. لا بدّ أن هناك جائزةً تحجب عن مثله هو بينما ينالها مثل سوكة، مؤكد

أن جائزة تنتظره هناك.

أصرّ إبراهيم الكاشف، رغم كبر سنه، أن يساعدهم في الغسل وصب الماء وتوضئته بنفسه قبل تكفينه، شارك في حمل النعش بيد واتكأ على عصاه بيده الأخرى.. ظل واقفًا في السرادق يتلقى العزاء كأنه ابنه. فقد في أسبوع واحد أشرف وسوكة.. تم هدفه من الداخل ولم تبقَ إلا الأحجار. وحضر الحاج عبده وابناه رضوان وعاطف ومعهم نبيل وعزّوهم في حرارة وحزن.

لم يجرؤ الأستاذ عاكف على حضور العزاء.. رفض سلامة أن يتكفل عاكف بتكاليف السرادق، ليس عن ثقة أنه أنظف منه ضميرًا، لكنه ارتأى أنه القذر الذي كان أقرب إلى سوكة، كما كان يعلم أن بدرية كانت لتقتلهما لو علمت. تبادل أهل الحي التعازي كأنه فقيد كل واحد فيهم هم. وانزوى سلامة في ركن قصي هامد الجسد شاخص العينين وحوله رجاله على رأسهم عوض وروشة، يكره مجرد وجودهم في العزاء، ليس لأمثال هؤلاء ولا لأمثاله أن يتواجدوا في عزاء سوكة، الحنق والحقد اكتمل في قلبه من كل شيء وعلى كل شيء.. الموت والحياة والوجود.. خبط الأقدار العشواء.

***

وقفت بدرية في ثوبها وغطاء رأسها الأبيضين مطمئنة شاكرةً أن الله منحها مثله ولو لأمد قصير، ماذا كانت الحياة لو لم يمر بها؟ وماذا كان يمكن لها أن يكون لو لم يرزقها الله منه منى؟

أصبح الموقف مختلفًا حين انتهى كل شيء ومضى المعزون. انطوت على حزنها الكبير لما رأت هذا الفراغ يملأ الكون. كان حضنه أوسع مساحة للحنان والبراح وضاقت بعده الدنيا بما رحبت.. شاقها أن الحياة تمضي، وأنها تأكل وتشرب وترضع ابنتها وتستمر الأحداث.

«أيها العالم انتبه، فقد راح سوكة».

لم يخلُ الأمر من حرج المبيت في الشقة في الليلة الأولى.. مضى الجميع ولم يبق إلا سلامة وأمل وطفلتها منى.. ذهب ميكا لشقته البعيدة في السادس من أكتوبر دون أن يعرض عليه الذهاب معه.. كان مشمئزًا منه منذ عرف قصة إخلاء المقهى.

خرج سلامة هائمًا على وجهه بلا وجهة حتى أعادته أقدامه للمبيت في ضريح الفلواتي.

عاد في الصباح متحرجًا من الدخول:

- هدخل آخد حبة حاجات وامشي.

- اتفضل يا خويا، دا بيتك.

جالت عيناه في المكان للحظة. امتدت يداه لبعض قطع متناثرة من الملابس.. وجد عينيه تهميان وهو يتذكر أخويه، قاده الحزن مضاعفًا إلى الوجه القديم، سوكة ومنى.. شعر بصوتيهما يملأ المكان، خلافاتهم الصغيرة وصراعهم على الطعام، لعبهم تحت المطر.

تذكر العصفور الذي حاول أن يقتله.. تذكر اليوم الذي زاره فيه سوكة في الإصلاحية بسندوتشات طعمية كانت هي أقصى ما استطاع أخوه جلبه وأشهى ما ذاق منذ خُلق.. زاده صوت ماء المطر شجى فأطلق لعينيه العنان وأجهش بالبكاء.

سألها فجأة دون أن يرفع عينيه:

- هو سوكة كان زعلان مني؟

- سوكة كان عارف إن جواك خير بس انت مش عارف توصللو.

ساد صمت حزين ثم استأنفت:

- هو انت ممكن تزعله في تُربته يا سلامة؟ القهوه دي مش مجرد قهوه يا سلامة.. بلاش عشان خاطر سوكة.

- متخافيش.. مش هزعله تاني.

- طلب أخير.

- أؤمري.

أخرجت من كيسها مبلغًا كبيرًا ودسته في يده: «فلوس الخَرجه والعزا».

امتنعت عيناه ودفعتها يده بانكسار.. يعلم أنهما كانا يستقذران منابعه. قالت بهدوء: «دي وصية سوكة».

تناول المبلغ ثم جمع متعلقاته وذهب للمبيت في ضريح الفلواتي.

***

اجتمعوا نهار اليوم التالي لتحديد مسار الحياة.. بدت على وجهها كآبة اختصرت كل أحزان العمر. كان واضحا أنها ظلت تبكي طوال الليل وأنها الآن تدعي التماسك.

عرض ميكا أن يأخذها والطفلتين ليعيشن معه.. عرض عليها سكنًا وعملًا معه لكنها تضمر عهدًا عاهدته زوجها ألا تأكل من مال ميكا.. قرر سلامة أن يتركوا البيت لها مع ما ادخرت

نجية لكنها أيضًا تعف عن مال نجية.. قالت إنها ستتركه كاملًا لأمل.. أراد ميكا أن يتكفل بأمل لكنه لا يستطيع أن يتكفل بها حياتيًا وإن استطاع أن يكفلها ماديًا.. سألوها أن تختار ما تشاء فاختارت الطريق الأصعب: أن تستمر في عملها.

- الظروف اختلفت ومعادش ينفع تمرمطي نفسك.

- مفيش أجمل من الشقا ع العيال يا ميكا.

أوقفته هذه الكلمة الأخيرة وأوقفت العالم من حوله.. لم يبك منذ موت سوكة ولا يذكر إلا لحظات بكاء قليلة في حياته.. لكنه الآن يشعر باندفاع بكاء شديد.. وضع كفه فوق وجهه وشعر بهطول أمطار تحتوي سر السماء.

طيبت بدرية خاطره ثم قالت:

- عارف يا ميكا أنا نفسي ف إيه.

- اؤمري.

- تاخدني بعربيتك يا ميكا لمكان بعيد.. مش عارفه فين بالظبط، بس حتة خلا. عايزه أعمل زيك كده نفسي أعيط وأصرخ براحتي.

حقق لها ما أرادت ثم عاد بها صامتةً ومنهزمةً.. عقدت العزم أن تتولى رعاية أمل ومنى ليكونا شيئًا آخر، وألا تجبر أمل على مواجهة الحياة وحدها.

***

نشأ نقاش هادئ حول تجديد الشقة، رفضت بدرية فكرة التجديد أساسًا لسببين: ثانيهما المعلن رفضها أن تتزين الحياة كأن شيئًا لم يكن، وأولهما المضمر تعففها عن أموال سلامة وميكا. تحمس سلامة للفكرة لسببين أيضًا، ثانيهما المعلن فعل أي شيء لابنة منى وابنة سوكة قبل أن يحين موته هو أيضًا.

كان يشعر بدنو الحسم، ارتسم الهدف في ذهنه، لم يهتد إلى طريقة تنفيذه بعد، ترك الوقت والصيغة للقدر الذي وضعهم جميعًا في محرقة واحدة، أما السبب الأول المضمر، فهو تأجيل الصدام ما استطاع بينه وبين الأستاذ عاكف من جهه وهربًا من مواجهة المعلم إبراهيم الكاشف مرةً أخرى.

يعلمَ أنه سوف يهجر الحارة نهائيًا بعد قليل.. خمسة وثلاثون عامًا أو يزيد وهو يعيش فيها كالجعل الأجرب، تراب الأرض فيها يكرهه، كل سكانها يكرهونه. لم يغفروا له جرأته على

الوقف والتكية، عطفًا على جرائمه القديمة كلها وبطشه بالكبير وبالصغير.

نذ مد يديه على عم عبده، أصبحت كراهيته فرضًا عليهم كصلواتهم في المساجد.. نظرة «الست رقية».. عصابته التي لم تعد فقط مكونة من عوض العربجي وروشة السباك، بل انضم إليها كل من أراد أن يكون مجرمًا.. عرف فوارق المقامات يوم عزاء سوكة.. أتراهم يوم يموت سيقفون نفس هذه الوقفة أم يلعنونه جميعًا؟ وفي أعماق نفسه، لم يختفِ عنه الجرم القديم.. أرسلها للعالم الآخر مدنسة.. وبقي هو وحده يجتر آلامه باقي عمره.. أتراهم سيقرؤون عليه قرآنًا أم سيرجمون جثته.

علّل ميكا رغبته في التجديد بكلمة واحدة: «عايزين العيال تعيش زي البني آدمين.. خليهم يطلعوا بني آدمين».

أفتاها الشيخ إيهاب أنه لا يحق لها أن تعترض على ذلك فهي في الأساس شقتهم.

أشرف سلامة على تجديد الشقة ودهان حوائطها وتغيير الحمام وأثاث البيت.

أحبت أمل الحمام الجديد كما لم تحب شيئًا آخر.

اشترى ميكا ثلاجةً وبوتجازًا وكل ما يلزم بيتًا حديثًا من أدوات كهربائية. وحقق وعدًا قديمًا لأمل.. اعتبره هو نفسه شيئًا غريبًا، بيتًا جديدًا يحتوي عائلةً جديدةً.. بدرية وأمل ومنى يشرف عليهم على البعد سلامة وميكا. والتحقت أمل، رغم أنها ما زالت في منتصف العام الأخير من المرحلة الإعدادية بشركة الكمبيوتر التي يمتلكها ميكا ولا يدري شيئًا عن إدارتها ولا استعمال الكمبيوتر من الأساس لكنه كما شرح لها:

«مشغل فيها عيال ولاد ناس.. بني آدمين».

الضريح

قالوا التعالب زئيرك زلزلة وتزول

هَبه، لكن بعد حبه، تتردف بخمول

إن غبت يجروا سوابق ف انتهاك الحق

وان سمعوا صوتك يزلزل يجروا جوا الشق

بطل زئيرك يا أسد. وافعل من دون ما تقول.(11)

جلس عم عبده على باب المحل الذي لم يكن يخرج إليه منذ أن هذه الشيب. ولداه لم يعودا منذ الأمس. انقطعت أخبارهما، سأل جميع أصحابهما لكن معظمهم كان هناك معهما في ميدان التحرير. العائد منهم إلى بيته يختفي.. والبيانات تتوالى والاحتشاد يزيد.

أبلغه أحدهم أنهم رأوا رضوان ينشد الشعر أمام فوهات الدبابات في ميدان التحرير، عند مدخل الميدان من جهة كوبري قصر النيل، ويهتف محفزًا الصفوف. وقف جسورًا بلا درع يحميه، ينشد قصيدةً أمام سيارة تضخ المتظاهرين بالمياه بجوار تمثال الشهيد عبد المنعم رياض..

مضخة مياه لو وقف أمامها جبل لهدمته، بمثلها حظم الجنود خط بارليف الحصين، لكنها لم تزعزعه من مكانه. وآخرون قالوا إنه كان يمر بالطعام على الثوار وينظف أرض الميدان في نهاية اليوم عند مدخل الميدان من جهة شارع طلعت حرب. ورآه آخرون في التلفاز يحمل الهلال والصليب ويهتف بهما معًا بجوار مجمع التحرير. ولما عاد أخوه عاطف في الليلة التالية ليبدل ملابسه ويأخذ لأخيه ملابس جديدة، أخبره أن رضوان هناك في الصفوف يؤم المصلين في الميدان.

لم يتشتت رأسه، يعرف ابنه جيدًا.. لكنه أوشك أن يفقد وعيه حين انفطر قلبه بالنبأ الأخير، خرجت طلقة من مسدس رجل يجاوره فاخترقت جانب رئته اليمنى وخرجت من اليسرى فمات من لحظته عند مسجد عمر مكرم...

عندما انتقل الإنسان من عهد المواجهات بالسيوف إلى استعمال الرصاص. سمى الناس المسدس والبندقية «غدارة».. تخفي الزناد تحت مقبض السيف.. يدعي الجبناء أنهم يواجهون خصومهم بالنصل وهم يخفون الطلقة في فوهته.. قتله أحدهم، ممن كانوا يهتفون بجواره مطالبين بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية..

آخر ما سمعه الناس من رضوان حين سقط: «حافضل أحبك مهما حصل».

انطلق إلى مشرحة زينهم ليتسلم جثة ابنه. فوجئ أن المكتوب في تقرير الطب الشرعي هو أن ابنه مات منتحرًا. وافق على استلام الجثة قبل أن تضيع في يوم الزحام ذاك. دفنه ثم لم يعد هو نفسه إلى البيت بل ذهب مسرعًا إلى ميدان التحرير.

***

تناثرت آراء وتواترت أنباء في الفضائيات وفي الحارات.. لم يعد هناك حكاية يمكن للمرء أن يتتبع خيوطها.. كل ما في الأرض شتته الهرج.. لم يعد في الكون سوى أنباء متناثرة.. بدا أن التاريخ أصيب بالهذيان.

- فُتحت السجون وهرب المساجين. تم اقتحام سجن المرج وسجن أبي زعبل. قالوا إن قوى خارجية هاجمته حين ساد الهرج. أما بقية السجون فقد فوجئ المساجين أنفسهم بأن عليهم الهرب.. لغز بلا تفسير. فرصة للخلاص. لم يكن هناك وقت لحسابات الضمير. التوق للحرية قابل ريحًا مواتية. لا يوجد عاقل في الدنيا يفضل الترمم داخل قاعة سجن عن لفح هواء الحرية. بعضهم ضُربوا بالرصاص ولم يكن أمامهم إلا الهروب.. البقاء هو الموت. من الذي يطلق الرصاص؟ ضابط برتبة لواء كان اسمه «البطران» في «سجن القطة» المشهور بعتاة المجرمين. حاول الحفاظ على النظام فأصيب بطلقة خبيثة كتلك التي فقأت عيون الشباب. فأردته قتيلًا.

- أحرقت كل الأقسام في وقت واحد. نفس وقت فتح السجون. وسرقت الأسلحة وهرب المحتجزون. صار القتل مجانيًا وعشوائيًا. اختلط الحابل بالنابل وخرجت الأحداث عن حدود المنطق إلى مدى غير قصير. والذي كان حاميًا ثبت أنه كان لصًا والذي هرب من السجن صار رئيسًا.. الأنذال والغوغاء وأوباش الناس أظهروا أخس معادنهم. سرقوا ما طالت يدهم. قطعت شركات فودافون واتصالات وموبينيل الشبكة عن منطقة التحرير إكمالًا لخطة تطويق الثوار.. لم يعد أبٌ قادرًا أن يطمئن على ابنه ولا زوجة على زوجها ولا أخ على أخيه...

- أغلقت المداخل والمخارج على الميدان.. منع دخول طعام أو دواء.. وكانت مقتلة عظيمة واشتد الكرب. قال الرئيس في خطبته: «لست أخشى عليكم إن رحلت إلا الفوضى».

- على أبواب الأقسام مات شاب كان يمر فقط كان يمر. وآخر دهسته سيارة تسير كالجنون بلا عقل ولا رحمة.. العجيب أنها كانت تابعة للسفارة الأمريكية التي لم يمسسها

أي سوء؛ رغم قربها الشديد من الميدان.. خرجت طفلة في الثالثة عشرة من عمرها تطل من البلكونة بالطابق الثالث ثم عادت فزعةً تجري أمام أبيها وأمها اللذين كانا يتجنبان كل شيء.. بضع خطوات ثم سقطت أمامهما.. سرى كالسر الخفي خيط من الدم من جبهتها؛ تلقت رصاصة من قناص خفي فماتت بعد تلك الخطوات.. شابَ همس وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة لآخر بجواره، ربما هو قاتله:

«احتفظ بذاكرتك فإنهم سيزيّفون كل شيء».

لم يحتفظ بذاكرته ولم يسند جثمانه، بل ذهب يبحث عن ضحية أخرى.

***

في الحارة، وفي كل الحارات، سادت إشاعة واحدة تصاحب الذعر والجري في كل اتجاه:

- جايين. هييجوا من هنا. هجموا على الحارة اللي جنبنا.. سرقوا كارفور.. سرقوا هايبر، بيثبتوا الناس في الشوارع.. قتلوا العيال.

- من هم القادمون؟

- المساجين الهاربين.. يسطون على كل الأماكن ويقتلون الناس.

***

لم يكن هادئًا متحكمًا في خطته في هذا اليوم، يوم التاسع والعشرين من يناير، سوى سلامة.

هذا هو الوقت المناسب للخلاص.. فليضرب اليوم ضربته وينتهي كل شيء.. لم يضع خطة الخلاص لكنه قرر أنه سيكون اليوم أو ربما وجد هذا في قلبه بطريق ما. لم ينم طوال ليلته في ضريح الفلواتي..

لأول مرة يغالطه النوم في هذا المكان.. لا يدري هل غفَلَ أم أن النوم غافله.. هام بين الوعي واليقظة.. ملأت أذنيه تراتيل غامضة وهمس غريب.. اشتم روائح أعواد بخور لم تكن بالأصل موجودة.. ملأ المكان الضباب وهامت في عينه الرؤى.. خضع أمام سطوته كهرمان وتقزم هيكله الضخم داخل الضريح، وغسلت قدميه كهرمانة..

كما تخيلها في صباه: شقاء، طويلة الشعر ساحرة العيون وذات جناحين يبلغان السماء إذا انفردا..

طافت به أرواح قديسين وزناة وعصاة.. رأى الدراويش يطوفون بالمقام.. رأى الشيطان

يتلصص عليه من خلف الضريح ثم يتخفى خشية أن تلتقي العيون.. لم يكن ذا قرنين كما صوروه، بل تمثل في صور شتى، معظمها حسن، معظمها خائف يتهيبه، تلثم بلثام مائع اللون ثم استحال أحمر.. الشيء الوحيد الثابت فيه هو خبث العينين.. يعلنان في كل الصور أن هذا الخنوع المدهش ليس سوى لؤم..

وعلى شباك الضريح، رأى ذلك الطائر الذي زارهم في الشقة، عاتبته عيناه لأنه كان يريد صيده.. حمل في منقاره الشبشب الصغير وألقاه فإذا هو حطبة مشتعلة.. اندلعت فخرجت من نارها منى.. التقت عيناه بعينيها لكنها أجفلت، لم تزل عيناها بلا سماح رغم ما تخفيه من شوق.. سمع نهنهة عوف الليبي في ليلته الأخيرة.. أوشك الضريح أن ينفتح فيخرج منه سر الدين الفلواتي.

لا يدري لماذا تذكر في هذه اللحظة الشيخ حسبو حين قبل النفحة من المعلم شندي، تاجر السجاد. سامحه واستاء من سحب يديه.. لا مانع أن يكون الشيخ ذو الثمانية أبناء محتاجًا.. شعر أن العمى ربما يصيبه.. وربما النوم...

أفاق عنوةً.. لم يسمح للضباب أن يشمله أكثر.. خرج من المقام متوجهًا نحو الفيلا.. هذا ميعاد قصاص، نزل من التاكسي في نفس المكان، لم يجد الأمن المكثف، كان المكان خلاء، فُوجئ بالفراغ.. لا أمن ولا حراسة. كل امرئ في هذا اليوم ذهب ليطمئن على أهله. مشى الطريق الطويل المؤدي إلى الباب..

الكلاب جائعة متشزسة والجياد بائسة، المكان كله محاط ببؤس لا يليق بأبهته السابقة، فكر كيف سيفتح الباب ومن سيفتحه إذا كان محسن عزت بالداخل وحده، كان متأكدًا أنه بالداخل ومتأكدًا حينها أن الرّب رتّب كل شيء.

***

عصفت الريح وامتلأ الجو بالأتربة وعلا الصياح في الميدان وماج كل شيء في دوران لا نهائي... في هذه الأثناء، كان ميكا عائدًا من شركته بالسادس من أكتوبر بسيارته رباعية الدفع وبجواره أمل بطريق الواحات، فُوجئ بقذائف بيض على سيارته.

لم تنجح مساحات العربية في حل الأزمة بل زادتها غيامًا وقذارة فاضطر للنزول من سيارته.. هذا بالضبط ما أراده رماة البيض، المفترض أنهم كانوا خلفه بكثير، لذلك سار بالسيارة مسافة طويلة تجنبًا لأي كمين، علمته تجارته الحيطة.. لكنهم كانوا -بفضل خبرة اكتسبوها من سرقات سابقة- أحوط منه.. كان المتربصون بأصحاب السيارات على بعد كيلو متر من قاذفي البيض.

هجموا عليه، أحس بهم قبل أن يصلوا إليه فتوجه مسرعًا إلى سيارته وسحب «كلبش الدريكسيون» وعاد لمواجهتهم فوجدهم أمامه، من السيارة رأت أمل الموقف كله، اندفاعه واندفاعهم ملأ قلبها بالرعب، فتحت الباب ووقفت بجانبه واضعةً كفيها على خدها، أبدى بسالةً وشجاعةً في مواجهتهم لكنهم غلبوه بكثرتهم ودقة تحديدهم للهدف، كما أنهم كانوا يضربون بلا رحمة. طرحوه أرضًا، استلّوا مفاتحه وأخذوا السيارة وهربوا.. لم يكن الطريق خاليًا يومئذ من الناس.. لكن يبدو أنه كان خاليًا من النخوة؛ حيث كانت كلها محتشدة في الميادين.

قال لأمل والضرب يوجعه:

- خدي تاكسي وروحي انتي على البيت.

- وانت هتعمل ايه؟

- حاروح الأول اعمل محضر وبعدين نشوف.

***

في اللحظة نفسها فُقئت عين عاطف. كان يهتف مع هتاف عم عبده، لم يرحم القناص الشيخ الكبير ولا ابنه الملائكي؛ فأطلق من مكان خفي طلقةً اخترقت إحدى عينيه، سقط بين يدي أبيه الطاعن. حملوه إلى المستشفى الميداني، ورفض عم عبده أن يترك الميدان، وظل يهتف بكل قوة.

«ارحل.. ارحل».

خلفه كان إبراهيم الكاشف وعم جرجس يشاركانه الهتاف.

***

خمس درجات.. صعدها مبطئًا، تلاشى كل ماضيه خلفه، ذاب في بحر العدم، لم يكن نصب عينيه سوى الهدف الذي حددته له الروح التي تقوده.. إلى الضريح في النهاية، وقف للحظة أمام الباب، سأل نفسه عن جدوى دق الجرس وهو يعلم أن لا أحد سيفتح.. لعلها حيرة الساحر التي ألجأته إلى علاء الدين للحصول على الكنز المخفي في غياهب الكهف.. وقف واثقًا من قرب الحل كأنه يأمر الباب.

فتحه شخص بالداخل، علاء الدين. انكشف الباب عن وجه جامد قديم، تأمل الوجه قليلًا، هذا الوجه يعرفه! وتلك النظرة الثابتة التي تعرف ما تريد، رشا مرجان.

قبل أن يسألها بادرته:

- اتأخرت كتير.

- انتي بتعملي ايه هنا؟

- مراته!

بحث التفاصيل قد يستغرق وقتًا. لم يأت هنا اليوم ليسأل عن قصص ائتلاف المتنافرين وتلاقي المتضادين.. هذا تدبير محكم من قوى تتحكم فيهم جميعًا، لم يأت هنا اليوم ليطرح أسئلة بل ليضع ختم النهاية.

ربما كانت حكمة الرب أن يقابل في هذه اللحظة المكثفة كل من ظلمهم وكل من يجب بالتحديد لقاؤهم.

اشتد عصف الريح وكاد يدفعه للداخل، كان الوقت عصرًا والسماء ملبدة تنذر بأمطار واعدة، اختلط حماسه ببهجة المطر لكنه وأد في نفسه كل فكرة مبهجة.

***

وصل ميكا قريبا جدًا من القسم.. لأول مرة سيحرر محضرًا وهو على حق، ليس اتهامًا مفترى هذه المرة.. ولا جز شكل...

لكن ما إن واجه القسم حتى اقتنصته رصاصة محكمة في رأسه فسقط حيث كان.. ظلّ ملقى حيث سقط إلى أن تجيف في اليوم التالي.

***

وصلت أمل إلى الحارة فوجدت أهل الحارة كلهم على بابها متأهبين بالعصي والأسلحة انتظارًا للمجرمين ونوتا عن أهاليهم، سألوها عن سلامة والعربجي وروشة، في عينيهم الفزع والتعطش للدماء.. قالت إنها لا تعلم فقال أحدهم: «اللي هيقرب منهم م الحارة هنقطعه».

ظهر الأستاذ عاكف في اللحظة المناسبة، يركب سيارته هربًا للوصول إلى مكان آمن فاستنجدت به، ليس منهم ولكن من أجل ميكا. قصت عليه ما حدث لميكا وهجوم المجرمين.

كانت كما كانت منى في عمرها.. الشكل نفسه والهيئة نفسها. نظر حوله ثم قال لها بخبث: «طب اركبي وانا حاتصرف».

لم يكن يستطيع أن يخفق إلى متى سيستمر هذا الهرج، ربما يحتاج لصحبة حتى تهدأ

مصر.. كان موقنًا أنها ستهدأ كدأبها منذ آلاف الأعوام، لم يخلق في الزمان غاصب إلا استباحها، دعك من كل الأغاني أيها الوطن.. ستهدأ الأمور وسيحبس سلامة وسيكون عما قريب رئيسًا للمجلس.. سيقضي الحكم على كل تلك السفاسف.

***

فتحت «رشا مرجان» باب المكتب على الأستاذ محسن ليدخل سلامة، كما فتحته منذ عشرين عامًا لتدخل زوجة المدرس. صارا وجهًا لوجه، وخلف سلامة وقفت.

كان متهدل الملابس شديد الاضطراب يتصل بكل من يعرف، يرتدي قميصًا مفتوح الصدر وبيديه سيجارة وتحت قدميه عشرات الأعقاب، أبدى لسلامة صداقة وترحيبًا مبالغًا فيهما.. رأيتني الآن؟

– شفت يا سلامة؟ شفت؟ الأمن كله هرب.. الكلاب والضبع عايزين يسرقوا البلد.

– قتلت منى ازاي؟

– منى؟!

نظر إلى رشا مندهشًا، يبحث عن صلة تربط الأحداث، وجد كل شيء في عينيها، سكن. أخرج سلامة من جيبه مطواة واقترب منه في ثبات، استعطفته نظرة الآخر بغير أن ينطق أو يقاوم.. لكن العطف والشفقة لم يكن لهما وجودٌ في هذا القلب، في هذه اللحظة، تجاه هذا المخلوق.. طعنه بكل قسوة.. طعنات متتاليات هادئات لا رحمة فيها. وقفت رشا تشاهد وقد ثبتت عيناها لا ترمشان.. بلا شفقة.

انتهى الجزء الأول من خطته، لكن أين من يقتله هو؟

دق هاتفه المحمول وكانت بدرية على الطرف الآخر: «سلامة.. عاكف خطف أمل!»

شرحت له ما حدث. قال لها الناس إنهم شاهدوها آخر مرة بصحبته.

سلمته رشا مفاتيح سيارتها فقال:

– مابعرفش أسوق.

سألته:

– انت عارف مكانه؟

– مفيش غير مكان واحد ممكن يروحه.

انطلقا معًا نحو فيلا عاكف في التجمع، هي تقود وهو يحاول أن يسترشد الغيب فيما يلي من أحداث. وذ أن تُتاح له الفرصة ليشكرها، لكنه استوقف الكلمات في حلقه، كيف ينطق أحدهم كلمة شكر لشخص يعلم يقينًا أنه يتمنى موته؟

يشعر منذ فتحت له الباب بوجه جامد أنها لا تفعل ما تفعل من أجله هو، بل انتقامًا لصديقة عذبها فراقها وتمنت أن تمنح روحها السلام، يعرف منذ آخر لقاء بينهما أنه ليس في عينيها سوى كلب آخر.. وكانت تقود وهي تشعر أن على كتفها سلاحًا فاتكًا، قنبلة من مقت، ستوجهها حيث شاءت. ثم تتخلص منه بلا شفقة.

في طريقهما صادفا رجالًا ونساءً وشبابًا يسطون على المحلات والمعارض من كل الأطياف. كل منهم يخرج بما تستطيع أن تحمل يداه.. تفادتهم ما استطاعت بسيارتها.

***

قدم الأستاذ عاكف لأمل قطعة شوكولاتة، رفضتها.

شعرت أنه رغم كل هذا «الهيلمان» تافه.. ما لزوم الشوكولاتة في هذا الوقت؟

الأوقات العصيبة لا يليق بها الرجل البارد، كرهته فجأة.

قال لها مطمئنًا: «خلاص أنا كلمت ناس هيجيبوا العربية لغاية باب البيت.. وهنأدب اللي عملوا كده.. انتي بس اهدي».

يا ربي.. ما هذا البرود وطريقته البطيئة الناعمة في الكلام! هكذا فكرت... «شكرا يا عمو.. ربنا يخليك».

كيف يمكن أن يكون المرء سمجًا ثقيلًا هكذا وأحدهم يحدثه في أمر هام؟

جلس بجوارها على الكنبة ووضع يده على كتفيها وسأل: «ها.. وانتي بقى في سنه كام دلوقت؟»

أهذا وقت هذه الأسئلة! سؤال الكبار اللزج.. يبدو أن هذا السمج العجوز لم يكن الشخص المناسب للجوء إليه، وما هذا الشارب الذي بدا تحت أرنبة أنفه المكور كأرجل العنكبوت!

تأففت من وضع يديه على كتفها، أحست بالقلق. ناولها كوب عصير وقال: «انتي خايفه مني.. دا أنا مش قد بابا، دانتي تقوليلي يا جدو، تعرفي أن ماما كانت بتقعد في نفس المكان ده.. وكنت بالاعبها وهي ف سنك كده».

استبعدت أن نجية كانت تلعب يومًا ما... «ماما؟! نجية؟»

أخرجه صياحهم من نفسه، ما إن وصل الحارة حتى وجدهم في انتظاره.

قبله بقليل، حاول عوض العربجي وروشة وباقي الرجال أن يسرقوا أحد المحلات فصرخ صاحب المحل فهجم أهل الحارة عليهم فضربوهم ثم ربطوهم معا وألقوهم على الأرض مقيدين ظهرًا إلى ظهر.. ولما وصل سلامة لم ينتظروا حتى يهجم على محل آخر..

صرخ أحدهم في الباحة الواسعة أمام الحارة: «سلامة جاي، سلامة جاي».

انهالوا عليه ضربًا ولكمًا. تطينت الأرض وأوحلتها الأمطار، تابع تدافع أحذيتهم تركل ساقه وبطنه، تلك ضربات الخلاص، لا بدّ أن تلك القوى التي أرسلته إليهم أو أرسلتهم إليه تريد له موتًا معذبًا.. كما يليق بطاغية قديم. لن يمر من طريق الموت مبتسمًا كما مر به سوكة.

maktabbah.blogspot.com

ليتهم ينتهون منه الآن لتغسله مياه المطر، قاومهم بالقدر الذي يسمح له أن يدخل الحارة، طفت على وجهه ابتسامة ترحب بالخلاص.. شقت طريقها رغم الألم بصعوبة، كل ما أراده أن يصل إلى الضريح.. أراد أن يأرز إليه كما تأرز الحية إلى جحرها، ليس بينه وبين الوصول سوى انتهاء ضربهم..

قاس وصوله إلى النهاية كما كان قاسيًا تخطيه الرمال الساخنة إلى البحر منهوشًا من كل ضارٍ، ملتهبًا من كل حريق.

لم ينقذه سوى ظهور الشيخ إيهاب، انتشله من بين أيديهم بيده وبمكانته. أتاه بكوب ماء، معظمهم قد أنهكه الضرب، كما كان أكثرهم يوقرون الشيخ.

قال سلامة للشيخ وهو لا يقوى على المشي:

- انت كمان كان لازم أقابلك قبل ما أموت يا بوب.

- أنا تحت أمرك.

- مش عارف، كنت عاوز أشوفك وخلاص.

أراد الشيخ الشاب أن يسنده للدخول به إلى شقته فدفعه سلامة دفعًا بسيطًا.

- أنا عاوز أروح المقام.

- أنا لا أدخله.

- معلش.. وديني هناك.

ذهب به إلى ضريح سر الدين الفلواتي. مر بالبيت ولم يدخله، نظر إلى الشق الصغير الذي

خرج منه الطائر.. تذكر صياحهم حوله، نظرة عين منى تستجديه أن يرحم الطائر الصغير، أسنده الشيخ فهبط ببطء مستندًا بظهره إلى الحائط ووجهه جهة الضريح وهم الشيخ بالخروج ليجد مسعفًا فناداه:

- شيخ إيهاب.. الدنيا ضلمه قوي.. ادعيلي.

- ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(12). صدق الله العظيم، هاروح أجيب لك دكتور من المستشفى، صعب أقدر أوديك لدكتور في القلق اللي ف البلد دلوقت، هنشوف حد ينقذك.

مضى الشيخ مسرعًا فهمس سلامة لنفسه: «مين اللي قالك إن الموت مش هو الإنقاذ».

حاول أن يردد ما قال الشيخ:

«الله..

سبحانك..

أنا من الظالمين».

***

اشتمله الضريح في سكون تام.. نقطة هادئة في عالم صاخب يمور بالخارج موزًا.. سكن بائسًا للحظة. لم يسمح لنفسه أن تسترجع حياته، أقرّ بعدل النهاية.. أيمكنه أن يقدم لذلك العالم الذي مرّ به اعتذارًا؟! لماذا تراوده هذه الأفكار الآن، ولأول مرة.. لماذا يبحث عن سماح العالم ويعبأ بالسلام والخلاص وعدل الإله!

أخرج هاتفه من جيبه واتصل بأمل، بادرته بصوت لائم: «أنا زعلانه منك يا سلامة».

رقّ ألفه حين سمع صوتها، راقت تفاصيل وجهه كالموج العائد إلى بحره. عاوده الضباب فلاح في عينيه درب إلى بطن الضريح.. كأنه بلا حدود. رن صوتها كالنور في قلبه. غافلت جراحه ابتسامةٌ صافية، صوتها القديم الجديد.. عاد بهيًا ممتلئًا بالبهجة والصبا..

- ليه محدش قال لي إن منى تبقى أمي؟

- معلش.. كده أحسن.. في حاجات كتير لو معرفنهاش يكون أحسن.

- هتيجي امتى؟

- مش عارف.. بس يمكن اتأخر.

- هاستناك.

سقط الهاتف من يديه.. وغاص الضريح في صمت عميق.

***

تمت

---

(11) فؤاد قاعود.

(12) سورة الأنبياء، الآية 87.